سلمان العودة

شكرًا أيها الأعداء

شكرًا أيها الأعداء

للشيخ: سلمان العودة

ⓒ سلمان بن فهد العودة ، ١٤٣١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سلمان بن فهد

شكرًا أيها الأعداء. / سلمان بن فهد العودة - الرياض ، ١٤٣١ هـ

٣٦٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٤ - ٤٤٢١ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الإسلام والديانات الأخرى ٢- الإسلام والغرب أ. العنوان

ديوي ٢٤١,٩٤ ١٥١٣ / ١٤٣١

رقم الإيداع: ١٥١٣ / ١٤٣١

ردمك: ٤ - ٤٤٢١ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

إصدارات

الإسلام اليوم للإنتاج والنشر

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لمؤسسة الإسلام اليوم، ويحظر طبع أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنفيذ الكتاب كاملاً، أو مجزءًا، أو تسجيله بأية وسيلة إلا بموافقة الناشر خطيًا.

الإسلام اليوم للإنتاج والنشر

مؤسسة الإسلام اليوم

إدارة الإنتاج والنشر

المملكة العربية السعودية

ص.ب. ٢٨٥٧٧ - الرمز : ١١٤٤٧

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

الرياض

هاتف : ٠١٢٠٨١٩٢٠

فاكس : ٠١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:

هاتف : ٠٦٣٨٢٦٤٦٦

فاكس : ٠٦٣٨٣٠٠٥٣

شكرًا أيها الأعداء

سلمان العودة

بسم الله الرحمن الرحيم

«اكتشفتُ أن حِسَّ المعركة هو (المفتاح السحري) الذي بمقدوره تشغيل (نظام الفكر والعمل) لدى الجمهور الأعظم من الناس!».

مُقَدِّمَة

مقدمة

كم أشعر بالسعادة والرضا حينما أتذكَّر أنني تجرَّعت بعضَ المرارات من إخوة أعزة، ربما لا يروق لهم هذا الوصف، ولكنني أقوله صادقًا؛ لأني أعلم أن ما بيني وبينهم من المشترَكات يفوق بكثير نقاط الاختلاف.

أشعر بالسعادة حين أتذكر توفيق الله لي بعدم الدخول في منازعات أو سِجالات يحضر فيها الشيطان، ويقع فيها حظٌّ من الانتصار للنفس بإدراك أو بغير إدراك.

قد تُملي عليك ضغوط اللحظة أَن لا بدَّ من البيان والإيضاح، وأحيانًا يسمَّى: الكَشف والفضح والتعرية .. وقائمة طويلة من عبارات تنم عن روح القسوة التي تسكن أعماقنا وتقيم في دواخلنا.

هذه الصحراء الغنية المنيعة من حولنا .. بدلًا من أن نحولها إلى حقول مُمْرِعة[1] خَصبة خضراء، تضج بالحياة والأمل، حولتنا إلى قلوب قاسية، ولغة جافة، ومشاعر هامدة، أو قل: جعلت بعضنا كذلك!

هذه المدن الجميلة لا تخلو من نفايات، بيد أنه ليس من الحكمة أن نضع النفايات في عربات، ونطوف بها على الناس، لنؤذي بها عيونهم وأنوفهم، ونفسد أذواقهم !

---

(١) أي: خصبة معشبة.

حرارة الإيمان التي كان يفترض أن نحوِّلها إلى طاقة إيجابية فاعلة للتحفيز والتواصل والأخلاق والتفاؤل، تحوَّلت عند بعضنا إلى أداة للقصف والإقصاء والحصار والإطاحة!

وبَحَثْنا في ثناياها عن مداخل للهجر والبِعاد والانقباض، حتى صار المسلم لا يفرح بلقيا أخيه أحيانًا؛ لأنه تعوَّد أن يثير الأسئلة: ما مشربه؟ ما مذهبه؟ ما طريقه؟ مَن شيخه؟ ما منهجه؟ ما خياراته؟

ويومًا ما جاء أحد الشباب لشيخي صالح البليهي رحمه الله، وطلبه على انفراد، فلما خلا به قال: إني أبغضك في الله. فابتسم الشيخ وقال له: لِمَ؟ قال: لأنك تفتي بإخراج صدقة الفطر من الرز، وبصلاة التراويح خمسًا. قال الشيخ: هذه هي السنة، وقد علَّمنا رسولُ الله ﷺ أن من الأدب أن أحدنا إذا أحب أخاه في الله أخبره أنه يحبه، كما في الحديث الذي رواه أبو داود[1]، ولكني لم أقف على حديث أنه إذا أبغض أخاه فليخبره أنه يبغضه في الله!

من أجمل ما كسبته من الإعراض: حفظ الوقت، وقطع المسافات، والنجاة من وَحْر الصدور؛ فإنني بحمد الله لا أحتاج إلى كبير مجاهدة في صفاء القلب على إخوة خالفوني.

وقد أتسامح في العبارة فأقول: إن بعضهم لم يرع حق الأخوة في لغته وحسن ظنه واستخدامه التحريض، ولكن عدم المجابهة طوَّعني للتسامح والنسيان، وشجَّعني على خطوة أخرى هي أنني أستذكرهم وغيرهم بالدعاء في الخلوات وفي الصلوات وفي عرفات وفي الأوقات الفاضلات

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٢٤)، والترمذي (٢٣٩٢)، وابن حبان (٥٧٠)، والحاكم (٤/ ١٧١) من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه.

بالمغفرة والرحمة وصلاح الحال والمآل، وأجد من حضور القلب والسرور في الذي يجتاحني، وأنا أتضرع إليه سبحانه مستوهِبًا إخواني المسلمين جميعًا عالمهم وجاهلهم برهم وفاجرهم، داعيًا لهم بالصلاح والفلاح، بل داعيًا للبشر كلهم جميعًا أن يولِّي اللهُ عليهم الأخيار، ويجنبهم الأشرار، وأن يفيض عليهم من بركته وعافيته وهداه.

ولست أتحدَّث مغترًّا إذ يعاجلني موقف مباغت يستفزني، فأنسى كلَّ ما تعلَّمته، وأتعامل معه باندفاع، ولا أذكر المبادئ التي أخذت نفسي بها إلا بعد وقوع الأمر، فأدري أن الله يؤدِّبنا بهذه المواقف؛ لنظل عارفين بأننا لا نزال صغارًا نتعلم من مدرسة الحياة، ولنتضرع إليه قائلين: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة:٣٢]، وقائلين: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣].

أجد هذا منذ الموقف الأول الذي واجهته بعد طبع كتابي «المسلمون بين التشديد والتيسير» قبل خمس وعشرين سنة، وإلى حادثة الحكم الصادر قبل أيام على إحدى الصحف المحلية التي تناولت موضوعًا يتعلق بي بغير إنصاف[١].

ولتجدد هذه السقطات والأخطاء والتجاوزات التي لا تليق بنا، لتجدد عزائمنا على السير في طريق الاستدراك والأمل والصبر، دون أن نيأس من نفوسنا التي هو خالقها وهو يتوفَّاها، وهو ملهمها فجورها وتقواها، ونسأله من فضله العظيم أن يزكيها، فهو خير مَن زكاها، وأن يجعل باطننا خيرًا من ظاهرنا، وسرَّنا خيرًا من علانيتنا، وأن يرزقنا الذلَّ

---

(١) وسأتحدث عن هذا بالتفصيل إن شاء الله في كتابي القادم: (طفولة قلب).

لإخواننا المؤمنين ممن سبقونا بعلم أو إيمان أو عمر أو سريرة بينهم وبين الله، وأن نتواضع للناس حتى لو ظهر عليهم التقصير؛ فـ «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِيْنَ التَّوَّابُونَ**»[1]، وربما كان لديهم من التجرد والصفاء والانكسار والعفوية، ما فاقوا به آخرين يُظَنُّ أنهم أهل علم، أو فقه، أو دعوة، أو رئاسة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٣١].

صدق الله العظيم.

أما بعد:

فهذه مقالات متفرقة، سطَّرتها عبر بضع سنوات، ووجدت أنها تتكامل في موضوع واحد يتعلق بالخلافات والصراعات التي تَعْصِف بالناس وطريقة تعاطيهم معها، وحرصت على استكمال الموضوع عبر مقالات عديدة كتبتها خصيصًا لهذا الكتاب، وقد فصلت بينها بكلمات حاولت إيجازها تشبُّهًا بالحكماء؛ لتكون خلاصة تجربة حياتية، أو خلاصة قراءة علمية، وهي بين يديك تنتظر قبولك الحسن، ونقدك وتسديدك .

المؤلِّف

الرياض

مساء الثلاثاء ٢٥/ ١/ ١٤٣١هـ

●●●●

(١) كما في حديث أنس ﷺ: أخرجه أحمد (١٣٠٤٩)، والترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، والحاكم (٤/ ٢٤٤)، والبيهقي في الشعب (٧١٢٧)، وصححه الحاكم وغيره، وفي سنده مَن تُكُلِّم فيه.

«ليس من الرُّشد أن تصنِّف الناس إلى أعداء وأصدقاء، وكأنك مركز الكون، فهناك الكثيرون لم يعلموا بوجودك أصلاً!».

شكرًا أيها الأعداء

شكرًا أيُّها الأعداء

أسوأ صناعة في الحياة هي صناعة الأعداء!

وهي لا تتطلب أكثر من الحمق وسوء التدبير وقلة المبالاة؛ لتحشد من حولك جموعًا من المغاضبين والمناوئين والخصوم.

وقد علَّمتني التجارب أن من الحكمة الصبر على المخالفين، وطول النفَس معهم، واستعمال العلاج الرباني بالدَّفع بالتي هي أحسن ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

يا مَـنْ تُضَايِقُـهُ الفِعَالُ ... مِـنَ الَّتِي وَمِـنَ الَّـــذِي
ادْفَعْ فَـدَيْتُـكَ ﴿ بِٱلَّتِى ﴾ ... حَتَّى تَرَى ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ﴾

وعلَّمتني التجارِب أَلَّا آسى على أولئك الذين يأبَون إلَّا أنْ يكونوا أعداءً ومناوئين؛ فهم جزء من السنة الربانية في الحياة، وهم ضريبة العمل الجادِّ المُثمر.

شكرًا أيُّها الأعداء!

فأنتم مَن علَّمني كيف أستمع إلى النقد والنقد الجارح دون ارتباك، وكيف أمضي في طريقي دون تردُّد، ولو سمعت من القول ما لا يَجْمُل ولا يليق.

وهذا درس عظيم لا يمكن تلقيه نظريًّا، مهما حاول المرء، حتى يُقيِّض الله له مَن يُدرِّبه عليه، ويجرعه مرارته أول الأمر؛ ليكون شيئًا معتادًا بعد ذلك.

شكرًا أيُّها الأعداء!

فأنتم مَن كان السبب في انضباط النَّفْس وعدم انسياقها مع مدح المادحين، لقد قيَّضكم الله تعالى لتعدِلوا الكِفَّة؛ لئلا يغترَّ المرء بمدح مفرط، أو ثناء مسرف، أو إعجاب في غير محله، ممن ينظرون نظرة لا تَرَى إلا الحسنات، نَقِيض ما تفعلونه حين لا ترَوْن إلا الوجه الآخر، أو ترَون الحسنَ فتجعلونه قبيحًا.

شكرًا أيُّها الأعداء!

فأنتم سخَّرتم ألسنةً تدافع عن الحق، وتنحو إليه ويستثيرها غمطكم؛ فتنبري مدافِعة مرافِعة.

لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فيما جَاوَرَتْ ... مَا كَان يُعْرَفُ طِيْبُ عَرْفِ العُودِ[1]

شكرًا أيها الأعداء!

فأنتم ذَوُو الفضل -ولو لم تشاؤوا- في صناعة قدر من الاتزان والعدل في الفكرة.

ولربما أُعطي الإنسان بعض الحق فوق قدره؛ فكنتم السبب في إحكام التوازن، ودقَّة التَّصويب والمراجعة.

ولا يأخُذَنَّكم الغضب من الإعراض؛ فإنَّ المرء إذا دخل في المرادَّة

(١) ينظر: ديوان أبي تمام (ص٢٧٨).

حرم نفسه فائدة النظر والتأمُّل، وانهمك في غمرة الردِّ والصدِّ؛ فلم يبق في نفسه موضع للهدوء والتأني.. والتدقيق في قول المخالف؛ فلعل فيه محلًّا للصواب ولو قلَّ.

قال حاتم الأصم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معي ثلاث خصال بها أظهر على خصمي». قالوا: وأي شيء هي؟ قال: «أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن له إذا أخطأ، وأحفظ نفسي لا تتجاهل عليه»[1].

شكرًا أيُّها الأعداء!

فأنتم مَن شحذ الهمة، وصنع التحدي، وفتح المضمار، وشرع السباق؛ ليصبح المرء شديدَ الشُّح بنفسه، كثيرَ الحَدَبِ عليها، حريصًا على ترقِّيها، وتحرِّيها لمقامات الرفعة والفضل.. والتنافس سنة شرعية، وقدر رباني: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وشرف المنافسة هو بشرف الأسلوب ونقاء الغَرَض، وصدق الوسيلة، وطهارة الجيْب!

شكرًا أيُّها الأعداء!

فأنتم مَن درَّبنا على الصبر والاحتمال، ومقابلة السيئة بالحسنة والإعراض.

شكرًا أيُّها الأعداء!

فلعل في الميزان من الحسنات ما لم تنشط النفس لتحصيله من الخير والعمل الصالح، لكن بالصبر والتجمُّل والرضا والمسامحة والعفو.

أيُّها الأعداء!

أعلم أن بعض القول يسوؤُكم، ولا والله، ما قصدتُ به أن أسوءَكم،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٨٢)، والخطيب في تاريخه (٨/ ٢٤٢).

ولكني أقول حقًّا: أنتم الأصدقاء الحقيقيون..

وأنتم إخوة في الله، مهما يكن الخلاف، ولو نظرنا إلى نقاط الاتفاق لوجدناها كبيرة وكثيرة!

فنحن متفقون على أصول الإيمان، وأركان الإسلام، ولُباب الاعتقاد، فما بالنا نتكلف استخراج وتوليد معانٍ جديدة؛ لنفاصل حولها، ونصنع الخلاف، ثم نتحمس له؟!

لِيكُن..

لِيكُن هذا صدر مني... أو لِيكُن صدر منك، عفا الله عما سلف، ولنصرفْ وجوهنا عن الماضي، ونلتفت إلى المستقبل؛ تفاؤلًا بخيره، وصناعة لمجده، وتعاونًا على البرِّ والتقوى، وتواصيًا بالحق والصبر، واستعادة لمعاني الحب والإخاء في الله، التي هي أعظم السعادة، ومن حُرِم خيرَها فقد حُرِم.

إنني لا أصفكم بـ (الأعداء)؛ لأنني أظنكم كذلك، كلا..؛ بل لأنني أظن أن ثمة مَن يريد أن نكون كذلك، ويسعى فيه جهده... وإلا فنحن الإخوة الأصدقاء، شئتم أم أبيتم.

سامحكم الله، وغفر لكم، وهدانا وإياكم إلى سواء السبيل، وأعاننا على تدارك النقص والخلل في نفوسنا، ومعرفة مواطن الضعف والهوى فيها، ولا وكَلَنا إليها طرفة عين.

شكرًا لكم أيها الأصدقاء!

والسَّلام ...

«يأسَى المرءُ لمعركة يقضي فيها حياتَه، تنتهي دون نصر أو هزيمة..

كما يأسَى لأخرى تستنفذ عمره وتنتهي بهزيمة، وثالثة تنتهي بانتصاره على أخيه..

إن المعركةَ الحقيقية هي معركة الانتصار على النفس!

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]».

لماذا لا ترد ؟

لماذا لا ترد؟

....

حين تَرْمِي حجرًا في الماء الراكد، لا يجب عليك أن تقف لتتأمل الدوائر المنداحة من وقع الحجر متعاقبة إلى نهايتها؛ إلا إذا كنت رميت الحجر لتراقب ما يحدث بعده!

سألني غير واحد عبر عشرين سنة (أو تزيد):

لماذا لا ترد على مخالفيك، وتفنِّد حججهم، وتبيِّن وجهة نظرك؟

وهل هذا يعني تجاهلهم والإعراض عنهم؟

كلا؛ أيها السائل الكريم، إن خلاصة ما أحب أن أوصله إليك بهذا الخصوص هو ما يلي:

١- إذا كان لديك أعمال عديدة؛ فمن الصعب أن تتوقف بعد كل عمل لتنظر ماذا يقال، ثم تجمعه، وتبدأ بالرد عليه بالموافقة أو بالرفض، إن اندماجك في مشروع آخر (مقال، كتاب، برنامج، مؤسسة.. إلخ) هو عمل أكثر إيجابية، وأكثر جدوى.

٢- لا تستعجل بالردِّ على مخالفيك؛ لأنك حينئذٍ سَتَرُدُّ رَدَّ المغضَب المنفعل المتحمس لرأيه، أعط الوقت حقه، وامنح نفسك شيئًا من الهدوء، ومن الانفصال عن جو الفكرة التي رقمتها، وأن تبتعد عنها قليلًا؛ لتتمكن من الحياد في قراءة الردود وتقبُّلها؛ ولئلا يكون ردُّك مجرد صدى سلبي

معاكس لما يقوله الآخرون، ولئلا تكذِّب بحقٍّ، أو تصدِّق بباطل.

ردُّك السريع يحرمك من إدراك الصواب فيما يقوله الآخرون، ولو كان جزئيًّا أو قليلًا، وخاصة إذا كان محجوبًا بلغة حادَّة، أو موقف مسبق، ذي طابع شخصي، و(الحكمة ضالة المؤمن)[1]، وأنت المستفيد الأعظم من اقتباس الحق من أيٍّ كان، وقد قال الهدهد لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢].

٣- ليس من الصواب الظنُّ بأن كل أمر يجب أن ينتهي الناس فيه إلى نهاية واحدة، بل الناس كما حكى عنهم ربهم جل وتعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

فالاختلاف قدر لا حيلة في دفعه، وقد جرت سنة الله أن يختلف الأنبياء عليهم السلام؛ (داود وسليمان[2]، موسى ومحمد[3]، موسى والخضر[4])، والملائكة عليهم السلام (في قاتل التسعة والتسعين

---

(١) كما قال كعب الأحبار وزيد بن أسلم وغيرهما.

ينظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٨٣١، ٣٦٨٦٤)، والعلم لأبي خيثمة (١٥٨)، والحلية لأبي نعيم (٣/ ٣٥٤)، وجامع بيان العلم (٥٥١)، وتاريخ ابن عساكر (١٩/ ٢٨٩).

ورُوي مرفوعًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وغيره. أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، ولا يصح. ينظر: العلل المتناهية (١/ ٩٥)، وتبييض الصحيفة بأصول الأحاديث الضعيفة (١/ ٦٥-٦٨).

(٢) كما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩].

(٣) كما في حديث الإسراء الذي أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ...﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٦٦-٨٢].

نفسًا)[1]، والصحابة ﷺ (أبو بكر وعمر...)[2]، والأئمة رحمهم الله (الأربعة، والعشرة، وسواهم)..

فلا ضير أن تبقى بعض المسائل مفتوحة لأكثر من قول، قُلتَ فيها أنت رأيًا، وقال غيرك رأيًا، فهل من المحتَّم أن تعقد مجلسًا للمناظرة، أو صفحة إلكترونية، ثم تستفرغا وُسْعَكما في الحوار، حتى ينقطع أحدكما ويعلن عجزه؟! كلَّا!

والغالب أن معك شيئًا من الحق، ومع خصمك شيء منه، وقد تكون

---

(١) كما في صحيح البخاري (٣٤٧٠)، وصحيح مسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «كان فيمَن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعينَ نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على راهب، فأتاه، فقال: إنه قتل تسعةً وتسعينَ نفسًا، فهل له مِن توبة؟ فقال: لا. فقتله، فكمَّل به مائةً. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائةَ نفس، فهل له مِن توبة؟ فقال: نعم، ومَن يَحُولُ بينه وبين التوبة!؟ انطلقْ إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء. فانطلق، حتى إذا نَصَفَ الطريقَ، أتاه الموتُ، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب، فقالت ملائكةُ الرحمة: جاء تائبًا مقبلا بقلبه إلى الله. وقالت ملائكةُ العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكةُ الرحمة».

(٢) كما في صحيح البخاري (٣٦٦١) من حديث أبي الدرداء ﷺ قال: كنتُ جالسًا عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ». فسلَّم وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي، فأبى عليَّ، فأقبلت إليك. فقال: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ». ثلاثًا، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر فسأل: أَثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتى إلى النبيِّ ﷺ، فسلَّم، فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّر، حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنتُ أظلمَ. مرتين.

العبارات مجملة، أو يتعامل القرَّاء معها بقدر من الانفعال؛ فيحمِّلونها ما لا تحتمل، ومع الوقت تعود العبارات إلى هدوئها، ويذهب وحر الصدر.

٤ - هذا يرد عليك، ثم أنت ترد عليه، ثم هو يرد عليك، وهو أفرغ منك لهذا، فهل ستواصل السِّجال وتفرد ذراعيك، أم ستقف وكأنك انقطعت؟ ولو أنك لم تدخل الحلبة أصلًا؛ لكان خيرًا وأسلم عاقبة.

٥- ومن الـمُسلَّم به أن المرء إذا زلَّ أو أخطأ، ثم ظهر له صواب راجعه؛ فـ «الحق قديم»، كما قال عمر ﷺ[1]، والشجاعة الأدبية تتطلب أن يوضِّح المرء موقفه في اللحظة المناسبة، وباللغة المناسبة، والرجوع إلى الحق لا يزيد المرء إلا رفعة عند مَن يعقلون.

إن من الصدق أن أقول: إنني أَكِنُّ الاحترام لكل مَن خالفني، كما أكِنُّه لكل مَن وافقني، وأقدِّر حتى أولئك الذين يشتدُّون أو يقسون؛ لأن دافعهم هو الغيرة غالبًا، وهم إن تلطفوا أهل للشكر؛ لأنهم يساعدوننا في الوصول إلى الحقيقة، وإن أغلظوا يستحقُّون الشكر أيضًا؛ لأنهم يدرِّبوننا على الصبر والمصابرة.

كم أنا مدين لأقلام طريرة كحد السيف؛ علَّمتني كيف أمضي في طريقي، مبتسمًا هادئًا، مستعدًّا لأقتبس منها، كما أقتبس من غيرها، متجاوزًا ما زلَّت به عباراتها، لأنني المنتفع الأعظم من كل معرفة أو حكمة أو صواب هداني إليه ربي بواسطة عبد من عباده.

---

(١) أخرجه عمر بن شبة في تاريخ المدينة (٢/ ٧٧٤-٧٧٥)، والبلاذري في أنساب الأشراف (٣/ ٤٢٢)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٢٢/ ٣٠-٣٢)، والدارقطني (٤/ ٢٠٦، ٢٠٧)، والبيهقي (١٠/ ١١٩، ١٥٠)، وابن عساكر (٣٢/ ٧٠-٧٢).

أما المسألة ففيها قولان.. أو ثلاثة.. وإن شئت فأربعة، ولكل قول حجته، وفيها الضعيف والقوي، والراجح والمرجوح،.. وهي أمور نسبية تختلف من إنسان لآخر.. وسيظل الجدل فيها قائمًا ما دام العلم منشورًا، والخير مشهورًا في الأمة.

لا حرج عليك أن تصدع برأيك، ولا حرج على أخيك أن يخالفك الرأي، ولا على الناس أن ينقسموا بين هذا وهذا، شريطة أَلَّا يتحول الأمر إلى استقطاب وتحزب وفرق مفترقة، يغِيرُ بعضُها على بعض، وتتسارع لحشد الأنصار والموافقين، وكأنها أمام معركة الحياة الكبرى، أو مفصل الحق والباطل.

«اللَّهُمَّ رَبَّ جبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

●●●●

«الإنسان يبحث عن دور يمثِّل شخصيته؛ فإما أن يعمل، أو ينتقد الذين يعملون».

الموت لأصدقائي

الموت لأعدائي

نعم! إنه هتاف الـ «أنا» التي جعلت من ذاتها مركزًا للكون، ومستقرًّا للحقيقة؛ وأيقنت أن تصوراتها ومبادئها وحلولها ونظراتها وآرائها هي الحق المطلق، وأن معارضيها هم المعوِّق الجوهري للإصلاح والنجاح والاستقرار. فصارت تتمنَّى لهم الموت العاجل الزُّؤَام[1]، وربما تشاهده في الأحلام؛ رأى أحدهم عدوه يموت، فقال له المعبِّر: طولة عمر.

هذا المنطلق الذي يسوِّغ للمرء أن يتجاوز القيم النبيلة والمبادئ الشريفة في الخصومة، كيف لا! وهو الحق، وما سواه الباطل ؟ وهو الصلاح، وما سواه الفساد والكساد ؟!

هو الذي يحمل المرء على الإطاحة بفضائل مخالفيه، وهيهات أن يكون لهم فضائل، وهم خصومه وأعداؤه!

وهو الباعث على السعي الدؤوب في عرقلة مشاريعهم؛ لأنها مشاريع الخيانة والعدوان!

وهو الدافع للاستعداء والتهويل والتحريض المعلن والمستور، المباشر وغير المباشر!

(١) أي: الموت المفزع شديد الذعر.

هو يدعو إلى «القتل».

فإذا لم يكن القتل ممكنًا؛ فيلجأ صاحبه إلى «القتل المعنوي»؛ بالمحاصرة والتشويه، وقطع الرزق، وتعويق المحاولات، والاتهام، وسوء الظن، والوقيعة!

هل هذا هو الإخلاص للمبدأ الذي تعلمناه؟

كلَّا؛ فإن الله الرحيم وسِع كل شيء رحمة وعلمًا، وسِع عبادَه كلَّهم؛ برِّهم وفاجِرهم رزقًا وعافية وإمهالًا، وفتح لهم في هذه الدار من أسباب النجاح والسعادة والتوفيق والسؤدد والمجد والغنى، وفق النواميس والسنن، ما يشترك فيه المؤمن والكافر.

وحين دعا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ قال الله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان إبراهيم احتجَرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أيضًا؛ فأنا أرزقهم كما أرزق المؤمنين»(١).

وحين استُؤذن رسول الله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام أن يُطْبِقَ على أهل مكة الأخشبين؛ عدل عن ذلك إلى ما هو خير وأوصل، وقال: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**»(٢).

إن وجود المعاندين والكفار والمنافقين ينطوي على حِكَم إلهية ومعانٍ ربانية ومقاصد جليلة؛ حتى قال الحسن البصري رحمه الله: «لولا المنافقون

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٢٩، ٢٣٠) (١٢١٩)، والطبراني (١٢٤٣٢)، والضياء في المختارة (٣٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

لاستوحشتم في الطرقات»[١].

وفيه معنى الابتلاء والدعوة والصبر والمنافع المتبادلة والأسرار العظيمة.

فَلِمَ يضيق صدرُك وقلبُك بمخالفيك؛ حتى تظن أن الحياة لا تطيب مع وجودهم، وتحصر أملك في أن تسمع خبرهم وقد ودعوا ورحلوا .. وتردد: تخفيف ورحمة!

أو كما يقول الشاعر:

إِذَا مَا مَاتَ ذُوْ عِلْـمٍ وَتَقْـوَى ... فَقَدْ ثُلِمَتْ مِنَ الإِسْلَامِ ثُلْمَـهْ[٢]
وَمَوْتُ الحَاكِمِ العَـدْلِ المُوَلَّـى ... بِحُكْمِ الأَرْضِ مَنْقَصَةٌ وَنِقْمَهْ
وَموتُ فَتَىً كَثِيرِ الجُوْدِ مَـحْـلٌ ... فَـإِنَّ بَـقَـاءَهُ خَصْـبٌ وَنِعْمَـهْ
وَمَوْتُ الفَارِسِ الضِّرْغَامِ هَدْمٌ ... فَكَمْ شَهِدَتْ لَهُ بِالنَّصْرِ عَزْمَهْ
وَمَـوْتُ العَـابِـدِ القَـوَّامِ لَيْـلًا ... يُنَـاجِـي رَبَّــهُ فِي كُـلِّ ظُلْمَـهْ
فَحَسْبُكَ خَمْسَـةٌ يُبْكَى عَلَيْهِـمْ ... وَبَاقِي النَّاسِ تَخْفِيْـفٌ وَرَحْمَهْ
وَبَاقِي الخَلْقِ مِنْ هَـمَـجٍ رِعَاعٌ ... وَفِي إِيْجَـادِهِــمْ للهِ حِـكْـمَــهْ[٣]

أو لعلك تنشد مع أبي القاسم الشابي قوله:

أَيُّهَا الشَّعْبُ! لَيْتَنِي كُنْتُ حَـطَّا ... بًا فَأَهْوِي عَلَى الجُذُوعِ بِفَأْسِي!

---

(١) أخرجه الفريابي في صفة النفاق (ص٧١)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٦٩٨)، وينظر: مدارج السالكين (١/ ٣٥٨)، ونسبه إلى حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أي: ثغرة.

(٣) ينظر: طبقات الشافعية (٨/ ٢٠١)، ونسبه إلى عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدَّميري الدِّيريني.

لَيْتَنِي كُنْتُ كَالسُّيولِ، إذَا سَالَتْ تَهُدُّ القُبُورَ: رَمْسًا بِرَمْسِ!
لَيْتَ لِي قوَّةَ العَوَاصِفِ، يَا شَعْـ ـبِي فَأُلقِي إِلَيْكَ ثَوْرَةَ نَفْسِي![1]

* * *

لَيْتَنِي كُنْتُ سَاعَةً مَلكَ المَوتِ فَأُفْنِي الثِّقَالَ حَتَّى يَبِيدُوا[2]

ولو كان الأمر بيدنا لتفانينا، ولكن حكمة الله أغلب وفضل الله أوسع!

لقد كان اليهود يتظاهرون بالتسليم وهم يقولون: السامُ عليك يا محمد! والسام هو الموت.. كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أَتى النبيَّ ﷺ أناسٌ من اليهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. قال: «**وَعَلَيْكُمْ**». قالت عائشة: قلتُ: بل عليكم السَّامُ والذَّامُ. فقال رسولُ الله ﷺ: «**يا عَائِشَةُ، لَا تَكُونِي فَاحِشَةً**». فقالت: ما سمعت ما قالوا؟! فقال: «**أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمُ الَّذِي قَالُوا! قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ**»[3]. فنهاها النبي ﷺ.

إنه لم يقل: (عليكم) وإنما قال: «**وَعَلَيْكُمْ**» إشارة إلى أن الموت قدر مشترك، وحق على رقاب العبيد كلهم، ولا يخص مسلمًا من كافر.

اعتاد رجل أن يأتي باب أبي هريرة رضي الله عنه؛ فيؤذيه ويثقل عليه. فقيل لأبي هريرة رضي الله عنه: قد مات. فقال: «ليسَ في الموتِ شَماتة»[4].

---

(١) ينظر: ديوان أبي القاسم الشابي (ص١١٧).

(٢) ينظر: روضة العقلاء (ص٦٧)، ونسبه إلى منصور بن محمد الكريزي.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢٤) ومسلم (٢١٦٥).

(٤) أخرجه محمد بن المرزبان في ذم الثقلاء (ص:١٩)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٧٦)، وابن عساكر في تاريخه (٦٧/ ٣٧٨).

وروي من قول سفيان الثوري: أخرجه علي بن الجعد في مسنده (١٧٩٠)، وابن عساكر (٤٥/ ٢١)، وينظر: كشف الخفاء (٢/ ١٧١).

وقال زياد: «من سعادةِ المرء: أن يطول عمرُه، ويرى في عدوه ما يسرُّه»[1].

وهذا ضيق نفس واحتدام خصومة، وإلا فالعاقل يدري أن الأعداء الصرحاء جزء من الناموس، والدول العظيمة تصنع لها عدوًّا؛ لتحشد طاقتها في مواجهته، فضلًا عن أن معظم الخصوم ليسوا أعداءً على الحقيقة، وإنما بينك وبينهم من مشتركات الدين والمبادئ والقيم والأخلاق أكثر وأعظم من مواطن الاختلاف التي ينفخ فيها الشيطان، وتُكَرِّسُها[2] النفوس المريضة، ويتشاغل بإثارتها الفارغون والبطَّالون.

أما مشتركات الدنيا ومصالحها فأمرٍ وراء ذلك .. والحكيم يَقْدِر أن يروِّض الوحوش ويَسُوس الأسود، ويوظِّف ما حوله ومَن حوله بالصبر وحسن الظن وصفاء السريرة، واتساع البصيرة والعقل، وإطار ذلك كله: القول اللين، والموعظة الحسنة، ومدافعة السيئة بالحسنة، وتجاوز المواقف الخاصة، والمجريات العابرة، والذكريات المؤلمة .

أوربا -التي عاشت حربين عالميتين، قتل في الأولى قرابة (١٥ مليون إنسان)، وقتل في الثانية حوالي (٥٥ مليون)، وامتدت لسنوات، وأكلت الأخضر واليابس- تسير نحو الوحدة في دستورها ومصالحها، وقد تجاوزت الحدود بين دولها، واندمجت في عملٍ وُحْدَوِيٍّ عظيم .. فلماذا نجترُّ معارك وهمية حول فروع ومواقف وتمحُّلات وظنون -أو مواجهات بين قبائل-، أو احتكاكات بين مناطق، أو تفاوتًا بين تيارات ومذاهب؛ لنجعل من الحبة

---

(١) ينظر: تاريخ دمشق (١٩/ ١٨٦)، والإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي (ص٦٦)، والبيان والتبيين (ص٣٧١)، ونثر الدرر لأبي سعد الآبي (٥/ ٩، ١٢) من قول زياد بن أبيه.

(٢) أي: تُجَمِّعُها.

قبة، ولنحكم العزلة والقطيعة، ولنجعل مشروعنا الذي أخلصنا له حياتنا، وضحينا في سبيله، وصرفنا جهدنا وعرقنا له؛ هو إقصاء الخصوم وتهميشهم وقتلهم معنويًّا، حيث لم يمكن إلا ذاك، وربما هم جعلوا مشروعهم قتلنا وإطاحتنا.. واتفقنا بالصدفة على أن نجعل شعارنا الموحد من مادتين:

المادة الأولى: أنا أحارب، إذًا أنا موجود!

المادة الثانية: لا يجتمع وليٌّ الله وعدو الله.

ومنحنا أنفسنا صك الولاية، وحرمنا منها مَن لا يتفق مع قناعاتنا واجتهاداتنا.

هَبْهم جُهَّالًا أو متأولين أو متلبسين بهوى خفيٍّ لم يدركوه، فربما وسعتهم رحمة الله!

وفي «مسند أحمد» بسند صحيح عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لَيْسَ عَلَيْهَا فِي الآخِرَةِ عَذابٌ، إِنَّما عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا بِالزَّلَازِلِ، وَالقَتْلِ، وَالفِتَنِ**»(١).

لا تسمح لقلبك أبدًا أن يفرح بموت مسلم عابد لله، لمجرد خصومة بينك وبينه، فإن أَبَى قلبك إلا هذا، فتخلَّ عنه؛ فإنه ليس قلبًا، بل هو حجر من الحجارة، بل الحجارة ألين منه وأرق؛ فهي تبكي لموت المؤمن، كما قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان:٢٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا مات الإنسانُ بكَى عليه مكانُه من الأرضِ الذي كان يذكر الله فيه ويصلِّي فيه، وبكى عليه بابُه الذي كان يصعَدُ فيه

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (٥٣٦)، وأحمد (١٩٦٧٨)، وأبو داود (٤٢٧٨)، وأبو يعلى (٧٢٧٧)، والحاكم (٤/ ٤٤٣)، والبيهقي في الشعب (٩٣٤٢).

عملُه، وينزِلُ منه رِزْقُه»(١).

هذا الانتظار الطويل القاتل لموت فلان وفلان.. قد قتلك أنت قبلهم؛ فاستدرِكْ ما بقي بإنجاز تتوب به من معرَّة استعجال القدر، والغفلة عن حكم الله وحكمته، وقراءة الحياة بصورتها الصحيحة الواسعة المرنة، واخرُجْ من قوقعتك التي أسرت نفسك فيها، إلى بحبوحة الرضا والإيمان، وضع نفسك موضعها، بلا تعاظم ولا ازدراء، وردد: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

●●●●

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٣٦)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٣٢٨)، والبيهقي في الشعب (٣٠١٨).

ورُوي نحوه عن علي رضي الله عنه: أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٣٦)، وابن الجعد في مسنده (٢٣٠٥)، وأبو داود في الزهد (١٠٧)، ومحمد بن نصر (٣٢٧)، والضياء في المختارة (١/ ٣٨٩) (٧٤١).

«لست مسؤولًا عما يعمله الآخرون تجاهك، بل عمَّا تعمله أنت تجاه الآخرين».

أأنت كذلك ؟!

أأنت كذلك؟!

....

يحتدم الغضب لسبب ولغير سبب، ويتحول في نفوس مريضة إلى كراهية وحقد؛ يعيش عليه المرء طيلة عمره، يجتره اجترارًا، ويبدئ فيه ويعيد، ويحطب على ناره حتى لا ينطفئ، ولعل الاصطفافات المدرسية والحزبية والتنظيمية، الواعية وغير الواعية هي البيئة المثلى لنشوء مثل هذه المشاعر السلبية وتغذيتها، ولاستقبال الناس المسكونين بها، لينضموا إلى نظرائهم، ويظفروا بمجالس أو مواقع إلكترونية أو وسائل إعلامية تعتمد على الشتيمة والإزراء والاحتقار للآخرين، وضمن ذلك التزكية المطلقة للنفس والاجتهاد والأشخاص الموافقين، وإن لم ينطق بذلك اللسان.

وشر ما يُبتلَى به المرء اللجاج في الخصومة، حتى يَعْمَى عن عيب النفس، ويغفل عن صوابات الآخرين؛ ليصبح لسانه كجهاز التسجيل؛ يردد كلاما مكررا، لا يخضع للنقد والتفكيك؛ لأنه مبني على غير أساس، وتفكيكه يعني انهياره، والحجة هنا لا تخاطب المنطق، ولا تحترم العقل، ولكنها تستثير العصبية، وتحفِّز على القطيعة، وتكرِّس سوء الظن.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ [البقرة:٢٠٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي ذو جدال إذا كلمك وراجعك»[(١)].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «هو الكاذب في قوله»[(٢)].

وقد يتلبَّس بهذا نوع غيرة جاهلة؛ تجعل صاحبها يُمعِن في طريقه، معتمدًا على إحساس ذاتي داخلي بالإخلاص والولاء لقيمة شرعية أو أخلاقية.

وهذا يقع بسبب فرط الاحتساب على الآخرين، ومحاصرتهم ومحاكمتهم، مع التسامح إزاء النفس، والغفلة عن منزلقاتها ومخادعتها وحيلها الخفية.

قلتُ لأحدهم: أنت تهاجم فلانًا بانتظام، وكأنك تنتظر أن يزل لتنازله، فقد أشهرتَ السيفَ وسننته، أفهذه الروح تسمح لك بحيادية تجاه الخطأ والصواب؟

ألم يقل لنا رسول الله ﷺ -كما في «صحيح البخاري»-: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا...﴾ [البقرة:١٣٦]»[(٣)].

وفي رواية في «المسند»: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الكِتَابِ عَنْ شَيءٍ؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، وَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ، وَإِمَّا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ»[(٤)].

فإذا كان هذا بشأن روايات ماضية، لا يقوم عليها حكم شرعي؛ فكيف بآراء وأقوال وعبارات تحتمل الصواب، أو يكون فيها ما يشبه الصواب، أو يكون فيها قدر ولو قل مما يستفاد وينتفع.

هذه الروح المتحفزة بالتخطئة والتسفيه تضرك أنت؛ لأنها تبني سورًا على عقلك، يحرمك من الانتفاع بالآخرين، وربما لا تجد لدى موثوقيك إلا الكلام

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٥٧٣، ٥٧٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٩١٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٥٨٠)، وابن أبي حاتم (١٩٢٠).

(٣) صحيح البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (١٤٦٣١)، وأبو يعلى (٢١٣٥)، والبيهقي (٢/ ١٠-١١) من حديث جابر رضي الله عنه، وفي إسناده ضعف.

الذي هو عندك أنت، فلا جديد لديك إذًا!

أين الشمس التي لها كل يوم أفق جديد؟

أين النهر الذي لا تنغمس في الدفقة الواحدة منه مرتين؟

أين عبادة الله حتى يأتيك اليقين؟

أليس العلم هو لُبُّ العبادات وأولها، وأول ما خُوطب به المكلَّفون ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق:١]؟

ثم هذا الإنسان الذي استَحْكَمت بغضاؤه في قلبك؛ أسألك بمَن خلق قلبك، وهو المطلع عليه، أَلَا يسرك أن يقع في فضيحة، أو تُنشر عنه قالة سوء؟

ما شعورك لو رأيت صورته على حال لا تحمد، لتكن صورة صادقة، وقد زلَّت به القدم، أو صورة مدبلجة مركبة أتقنتها آلة التقنية الماهرة، أتكون حزينًا مكسوفًا موجع القلب لأن مسلمًا عثر، أو اتهم بما هو منه براء، وتنبري للدفاع عنه وحماية عرضه؛ رجاء أن يذب الله عن وجهك النار يوم القيامة، أم ستجدها فرصة رائعة تهتبلها؛ لتؤكد أن ما كنت تقوله عنه صدق وصواب، وأنك تعلم من بواطن الأمور ما لا يعلم أولئك السذج الأغرار البلهاء ضعفاء الإيمان، الذين كانوا يعارضونك ويرفضون مسلكك، ويدافعون عن أخيهم المسلم؟

ظني أنك غالبًا ستقع في الدائرة الأخرى، وإن اختلطت مشاعرك؛ فسينتصر شعور الغبطة والشماتة.. وكأنك أنت المعصوم!

وقد جربت هذا غير مرة في قراءتي لأحداث جرت من حولي؛ فوجدت أن مَن يلح على إيذاء الناس وبهتهم والوقيعة فيهم؛ لا يطول به وقت حتى يقع له ما يوجب أن يتسلط عليه بعض مَن حوله، ويفعلون فيه نظير ما فعل هو بغيره ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦]، والجزاء من جنس العمل.

ولعل مما يحسن أن يقال هنا: إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة،

قال بعض الحكماء: «ما جُوهد الهوى بمثل الرأي، ولا استُنبط الرأي بمثل المشورة، ولا حُفظت النعم بمثل المواساة، ولا اكْتُسبت البغضاء بمثل الكبر، وما اسْتُنْجحت الأمور بمثل الصبر»[1].

وهذا النظر مدعاة إلى أن يرتدع العاقل عن التسرع والإلحاح في سلخ جلود الآخرين، وأن يدع لحسن الظن موضعًا، وللصلح موضعًا آخر، وللمروءة والأخلاق موضعًا ثالثًا، ويفسح المجال لخط رجعة يخصه هو، إذ قد يجد نفسه بعد حين منحازًا لرأي كان يعارضه، ولا تثريب في ذلك؛ فقد كان سيد ولد آدم ﷺ يدعو بـ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[2]. و«**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**»[3].

ولكنه لم يدع قط بأن يثبِّت الله قلبه على رأيه، بل كان يقول: «وإنِّي واللهِ إنْ شاءَ اللهُ لا أَحْلِفُ عَلى يَمينٍ، فَأَرى غيرَها خيرًا منها، إلَّا كفَّرْتُ عن يَميني، وأتيتُ الذي هو خيرٌ»[4].

ومشكلة فئة من الأخوة أنهم لا يفرِّقون في قضية «المنهج» بين المسلَّمات الشرعية والكلِّيات الأصلية، وبين مسائل الاجتهاد والاختلاف والرأي، وهم حين يقبلون شخصًا ما، يقبلونه بمسائل الفروع قبل الأصول، وبالجزئيات قبل الكليات،

---

(١) ينظر: زاد المسير (١/ ٤٨٨)، والمنهج المسلوك في سياسة الملوك للشيزري (١/ ٤٨١)، والجوهر النفيس في سياسة الرئيس لابن الحداد (١/ ١٦٧)، ونثر الدر لأبي سعد الآبي (٤/ ١٢٠)، والمستطرف (٢/ ١٤٢).

(٢) كما في حديث أنس ﷺ: أخرجه أحمد (١٢١٠٧، ١٣٦٩٧)، والترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤).

(٣) كما في حديث عبدالله بن عمرو ﷺ: أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

(٤) أخرجه البخاري (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى ﷺ.

ولذا لا يلحظون ثباته على المبادئ الأساسية التي هي المنهج، بقدر ما يلحظون أنه غيَّر اجتهاده في موقف سياسي، أو اجتهاد فقهي، أو رأي حياتي، أو مسلك دعوي.

فاللَّهم اهدنا إلى سواء السبيل، وبصِّرْنا بمواطن الضعف في نفوسنا، واعصمنا أن نظن بمسلم ظن سوء، أو نتمنى له غير الخير، أو نَرُدَّ منه حقًّا لعصبية، أو نقبل منه خطأ بعصبية، أو نشمت به أو نفرح عليه بقالة سوء، أو نقول عنه ما ليس لنا به علم، إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

●●●●

«أتدري لماذا يهاجمونك؟ لأنهم يريدون أن يلعبوا مع الفريق الفائز!».

شكرًا للشيخين

شكرًا للشيخين

ربما خطر ببالي حينًا؛ أن المرء كلما صفا وتجرَّد، وأحكم لسانه من الاندفاع والطَّيْش؛ كان أقرب إلى السلامة من الناس، وأَدْعَى إلى أن يتآلفوا عليه، ويقلَّ حوله خلافهم..

ولا زلتُ أدرك أن قدرًا من ذلك هو صحيح، فإن مَن صحَّ جَنانُهُ فَصُحَ لسانه، كما قال بعض السلف.

وفي صحيح السنة: «**الْمُؤْمِنُ مَأْلَفٌ، وَلَا خَيْرَ فِيْمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ**»[1].

لكن مما يحسن أن يضاف إلى هذا المعنى؛ حتى تكتمل صوابيته: أن المرء كلما اتَّسعت دائرته اختلف الأمر بالنسبة إليه؛ لأن الدائرة التي تتعامل معه -رضًا وقبولًا، أو ترددًا وشكًّا، أو رفضًا واتِّهامًا- هي دائرة واسعة، ربما تمتدُّ لتشمل البشرية كلَّها جمعاء، كما تراه في شأن مشاهير المصلحين والمؤرخين، وعلى رأسهم أنبياء الله ورسله، صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) أخرجه أحمد (٩١٩٨)، والحاكم (١/ ٢٣)، والبيهقي (١٠/ ٣٢٦-٣٢٧)، وفي شعب الإيمان (٨١١٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

وقد سنح لي أن أقرأ في سيرة الشيخين المقدَّمَيْن لدى المسلمين؛ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فرأيت من كمال الإخلاص واليقين، كما في الأثر عن بكر بن عبد الله المزني: «ما سَبَقَكُم أبو بكر بِصَومٍ ولا صَلاةٍ، ولكنْ بِشَيءٍ وَقَر في قلبِه»[1].

وكمال العلم والمعرفة كما في رؤيا النبي ﷺ أنه رأى على عمر رضي الله عنه قميصًا يجرُّه، ورآه يشرب فَضْل النبيِّ ﷺ من اللبن، وأوّلَ ذلك بالعلم والدين[2].

وهم طليعة الأصحاب الذين أَذِن الله في سمائه أن يكونوا خلصاءه في حياته، وجيرانه في قبره بعد رحيله؛ ليكون ذلك شاهدًا ماديًّا قطعيًّا لكل ذي عقل وإنصاف أنهم وزراؤه وخاصته من أصحابه، وليعلم كل متأمل أن مَن ازدرى أو انتقص، فإنما يزدري بمقام مَن اختارهم وفضَّلهم؛ لأن قربهم من مربيهم وهاديهم عليه السلام، هو ضرورة تاريخية ومشاهدة واقعية.

وإذ نقرأ في سيرهم تجرّدهم من حظوظ النفس، وكمال إحسانهم إلى الخلق بكل مقدورهم؛ من علم أو مال أو جاه أو قوة، وتفانيهم في ذلك، مع التجافي عن المصالح الآنية، والترفُّع عن الإرادات الأنانية، وإيثار العفو عن الناس من القريب والبعيد، والموافق والمخالف..

ومع ذلك لم يسلم جنابهم من قادح! ولعلك حين تقرأ بعض ما سطَّرَتْهُ

---

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١١٨)، وأبو داود في الزهد (٣٧).

وينظر: نوادر الأصول (٣/ ٥٥)، (٤/ ٥)، وتخريج الإحياء (١/ ٧٣)، ولطائف المعارف (ص:٢٧٩)، والمنار المنيف (ص١١٥)، وتبييض الصحيفة بأصول الأحاديث الضعيفة (١/ ١١٠-١١١).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٨٢، ٣٦٩١)، وصحيح مسلم (٢٣٩٠، ٢٣٩١).

أقلامٌ مسمومة، وأياد موتورة في حقِّ الشيخين عليهما الرضوان والسلام، تهون عليك الدنيا، وتعلم أن جمعها شتيت وكثيرها قليل، وأن الله ادَّخر لأوليائه من رفيع المقامات في الآخرة ما لا يبالون معه ما أصابهم من الدنيا، وربما ودَّ أهلُ العافية أن لو قُرضوا بالمقاريض في جنب الله.

إن الذي يقرأ كتبًا مسطورة، ويعلم أن مجلداتٍ ضخمةً طُبعت ووُزِّعت ودُرِّست في مدارس، ولُقِّنت لأجيال، مليئة بالذم والعيب والاتهام بالمؤامرة والتخطيط لاقتناص فرص الدنيا، أو السيطرة على الحكم، أو الإعداد لاغتيال النبي ﷺ أو بعض خاصَّته من قرابته، بقدر ما يرفض هذه الصورة السوداوية للتاريخ، وخاصة لأفضل حُقَبِه ومراحلِه، إلا أنه يدرك أن سنة الله في عباده أن يكون من كمال أجر السابقين وتوبتهم؛ أن يقيِّض لهم حتى بعد موتهم مَن يؤذيهم ويبهتُهم بما هم منه براء؛ ليكون ذلك درسًا لكل سالك للإسلام من الناس، ولو كنت في عيار أبي بكر وعمر، فشكرًا لشَيْخيْنا على هذه الدروس العملية، وجزاهما الله عنا أفضل الجزاء وأوفاه.

والمؤكد أن اختلاف الألسن بفحش القول في حق الأفاضل، هو أثر عن «الاختلاف»؛ فالاختلاف يغرز لدى المتعصبين «التصنيف»، هذا مع، وهذا مع، ولا خيار ثالث سوى هذين...! فأما مَن كان معي، فهو مَلَاك في صورة إنسان، معصوم اعتقادًا أو عملًا، وأما مَن كان ضدي، فهو شيطان مارد، وأفعاله لا تقع إلا فاسدة، وهذا دأب القلوب التي ران عليها الجهل، وغلَّفها الهوى وأحاطت بها العصبية.

ولهذا قيل: إن الأخلاق إنما تبدوا عند الاختلاف، فأما مع التوافق،

فالتصنع والانسجام هو سيد الموقف..

ولقد كان مما علَّمونا -لو تعلَّمنا- ﷺ: كيف يكون المرء مترفعًا، عفَّ القول، حسنَ الظن بالآخرين، يتّهم نفسه قبل أن يتهم غيره عند الاختلاف:

أَتَانَا أَنَّ سَهْلًا ذمَّ جَهْـلًا   أُمُـورًا لَيْسَ يَعْرِفُهُـنَّ سَهْلُ
أُمُورًا لَوْ دَرَاهَا مَا قَلَاهَا   وَلَكِنَّ الرِّضَا بِالجَهْلِ سَهْلُ[١]

●●●●

(١) ينظر: أدب الطلب للشوكاني (١/ ١٥٧)، ولم ينسبه.

«أعط الناس أفضل ما لديك، وستصاب بحزن وإحباط شديد، فلا تتردد. أعط الناس أفضل ما لديك».

شكرًا صديقي

شكرًا صديقي

لم يتعوَّد قرَّائي أن يجدوني في مقام الرد، لأسباب خاصة، شرحتُ بعضها في مقال (لماذا لا ترد؟)[1].

وهذا الحديث ليس استثناءً، إنه ليس ردًّا، ولا نقدًا، ولا مراجعة، لقد اشترطتُ على نفسي هنا أن لا أكتب ما يحتاج معه غيري إلى تعقيب، إن استطعتُ إلى ذلك سبيلًا.

أنا هنا في محاولة أخلاقية للتعالي والسمو على رغبات النفس، وحظوظ الذات، ودوافع الـ(أنا)، طلبًا للفلاح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، ومدافعة للسيئة بالحسنة داخل نفسي، لقد خاصمتها وقلت لها: لا نوافل لديك من صيام، ولا قيام، ولا مال لديك لتنفقيه، ولا مجهود يُذكر لدعوة الناس إلى الله، ولا أعرف عنك نية صالحة في الخير، ولم تقدمي للمسلمين مشروعًا نهضويًّا عظيمًا، ولا إنجازًا تاريخيًّا، ولا اختراعًا يضمن لك مقعدًا بذكرٍ حَسَنٍ في الدنيا، أو مثوبة في الآخرة .

فليكن ما تقدمينه؛ طلبًا لمرضاة ربك: الانتصار على ذاتك، والتفوق على دوافعها وأنانيتها المؤذية.

---

(١) ينظر ما تقدم (ص ١٩).

وعاد بي التذكُّر لأول صديق جرَّعني مرارة القول، لقد كانت فترة حزينة، ولكنني أدركتُ أثرها في مسيرة حياتي، كانت تطعيمًا ضروريًّا لفتى يعايش أجواءً متفاوتة، فيها النقي الصافي، وفيها دون ذلك، وقد يمر ببعضها الوباء.. فكانت تلك الجرعة وقاية ودعمًا وتدريبًا ميدانيًّا قلَّ نظيره، ولا زلت أدعو لأصحابها، لقد علَّموني الصبر ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٥]، وجعلوني أدرك وقع كلامي على الآخرين، فأنهنه ما استطعت من جموح القلم، وأحرص على أن لا أجرح مشاعر الآخر، ولو اختلفت معه، وأعطوني ميزانًا للتفريق بين (النقد) المشروع و(البغي) الممنوع، لقد كان على إثر حملة نتجت عن نشر كتابي: «المسلمون بين التشديد والتيسير»!

شكرًا صديقي «...» فقد جدَّدت عهد المحبة والإخاء، ولست أنسى دعوتك لي بعد انقطاعي منذ سنيات قلائل، واستضافتك وإكرامك مما لمست معه كريم أخلاقك، وعميق محبتك لإخوانك وزملائك، وهذه حسنة عظيمة أدعو الله أن يتقبلها منك ويثبتك عليها، ولذا أصرف عيني وقلبي عن كلام أخ يزعم أنه مني فينال منك، أو يشرك معك في هذا إخوانًا لنا جميعًا، وكأننا بتعصبنا لمَن نحب لا نطفئ النار، بل ننقل شررها إلى مواقع أخرى .. وكأنه لم يكفنا ما نعانيه من الضعف والهوان والعجز، حتى نصرف طاقتنا المحدودة إلى المزيد من توسيع النزاع الذي ينتج الفشل وذهاب الريح!

لتعلم يا بني، أيها الشاب الإلكتروني، أنني ألتمس لك العذر حين تهاجمني، لكنني لا أعذرك حين تهاجم الآخرين تحت ذريعة الدفاع عني.

شكرًا لأنك صنعتَ مناسبة للثناء على رجال الصدر الأول، وإن كان الثناء عليهم لا يحتاج إلى مناسبة، فحبهم قرة العين، وذكرهم أنس الفؤاد، وحفظ مقامهم علامة السلامة، وبرهان الاستقامة، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ورحمنا الله بحبهم، وحشرنا معهم، وغفر لنا خطايانا وجهالاتنا وزلاتنا بحبنا لهم، وكيف لا نحب من أحبه اللهُ ورسولُه، وأثنى عليه تعالى في تنزيله، وهم خريجو المدرسة المحمدية، فهو إمامهم وسيدهم ومعلّمهم ومربِّيهم، وهو الذي وصفهم بأنهم خير القرون، وأثنى عليهم جملة وتفصيلًا.

إن تعظيم الصحابة ﷺ وحبهم عقيدة تعلمناها في الصبا، وتلقنا حروفها الأولى في الطفولة، وحفظناها في الشباب، وعرفنا تفصيلاتها ومفرداتها، وتحولت مع الزمن إلى عاطفة قلبية، وكأنما عايشناهم ورأيناهم وسمعناهم، فيفز القلب كلما ذكروا، ويخفق ويهتف مع الشاعر عصام العطار:

يَا سَائِرِيْنَ عَلَى دَرْبِ اليَقِيْنِ كَمَا
تَمْشِي الأُسُـودُ بِقَلْـبٍ غَيْرِ مُضْطَرِبِ
وَرَاحِلِيْـنَ وَعَـيْـنُ اللَّهِ تَرْمُقُهُـمْ
وَجَنَّـةُ الخُلْـدِ فِي شَوْقٍ وَفِي رَغَـبِ
وَخَالِدِينَ عَلَى مَـرِّ الزَّمَـانِ بِمَا
جَادُوا مِنَ الرُّوْحِ أَوْ صَاغُوا مِنَ الأَدَبِ
أَفْدِيْكُمْ عُصْبَـةً لِلَّهِ قَدْ خَلُصَـتْ
فَمَـا تَغَـيَّـرُ فِي خَصْـبٍ وَلَا جَـدَبِ

يَكْفِيكُمُ مِنْ عَظِيمِ الفَضْلِ مَنْزِلَةً
ثَنَــاءُ خَالِقِكُـمْ فِي مُحْكَـمِ الكُتُبِ

حين يمرُّ ذكرُهم أشعر أنني في روضة دَمِثَةٍ أتأنق[١] فيها، لأنني أجد ثَلَج اليقين في صدري.

وفي حلقات (الحياة كلمة)[٢] كان حديث عن آل البيت ﷺ، ومكانتهم عند أهل السنة، ثم حديث عن الصحبة، ومنَّ الله عليَّ فيهما بكلمات مألوفة، لكنها بحمد الله كانت مما تواطأ عليه القلب واللسان في الثناء على السابقين وأمهات المؤمنين والأنصار والمهاجرين رضي الله عنهم أجمعين.

وفي دورة قرآنية لتفسير جزء «قد سمع»[٣]، طال الوقوف والإعجاب والإشادة والثناء بالجميل على رجال ذلك الجيل ونسائه، كيف والتفسير يتناول قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾، ثم ينتقل إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، لينتهي إلى الأجيال اللاحقة

---

(١) دمثة، أي: ذات أرض لينة سهلة، وأتأنق، أي: أتتبع محاسنها.

(٢) ينظر عبر الرابط:

http: / /www.hklive.tv /archive_view.php?arc_no=200

(٣) ينظر عبر الرابط:

http: / /islamtoday.net /radio /mediashow-107-2323.htm

التي يلقنها ربها في كتابه ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر:٨-١٠]، ومن هنا نص مالك رحمه الله على أن مَن نال مِن الصحابة فلا حق له في الفيء[1]!

وهو تعليم لشبابنا ورجالنا ونسائنا وعامتنا أن ندعو بصفاء القلوب لمَن سبقونا بعلم أو عمل أو دعوة أو خير أو حتى سن ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

وإنني أرى أن من كمال التأسِّي بالصحابة رضي الله عنهم اعتقاد بشريتهم، وأن العصمة لإجماعهم، لا لآحادهم، ولولا بشريتهم لم يكن للقدوة اعتبار، والبشرية ليست عيبًا، فحتى الأنبياء كانوا بشرًا، لأنهم يخاطِبون بشرًا ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام:٩]، والحديث هو عن عصور ممتدة، وليس عن الجيل الأول فحسب، وكتب التراجم شملت هذا كله، وفي كتب الجرح والتعديل حديث عن مئات الألوف من الرجال والنساء، فيهم الأئمة الثقات الأثبات، وفيهم الصدوق، والضعيف، والمجهول، والمتهم، والكاذب، وهم في عصور التابعين وتابعيهم، ومَن جاء بعدهم.

أظن أن هذا المعنى لا يبرر وقوع الأخطاء والتسليم بها، بل يربِّي الشبيبة على ألَّا يحملوا الأمة على الوعر والصعب الذي يكون سببًا في فتنة الناس، أو نكوص بعض الشباب عن طريقهم.

---

(١) ينظر: مسند الموطأ لأبي القاسم الجوهري (٨٤)، وسنن البيهقي (٦/ ٣٧٢)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ١٥٨)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٧٣).

فالخير في التأسِّي بهم أفرادًا، وفي محاكاة مجتمعهم الذي لا مطمع في نظري في تكَوُّنِ مجتمع يفوقه أو يماثله.

وبهذا نضمن التسليم بظواهر النصوص القرآنية، كما في سورة آل عمران في قصة أحد، وفي الحديبية، مع معرفة أقدارهم والتسليم بعظيم مقامهم، كانوا بشرًا أفضل البشر.

●●●●

«لا تضع على الحق أسوارًا منيعة تحول دون الناس ودونه، ولا تدقق في هويات الداخلين، ولا تطلب منهم الاعتراف: فالحق ليس خصوصية لفرد ولا جماعة».

بيني وبين ابن جبرين

بيني وبين ابن جبرين

ثمت قضايا كنت أُتَابعُ بها منذ زمن، تُثار وتُذْكى حينًا بعد حين، وكان يقيني أن التشاغل بتفتيت مثل هذه الإثارات انصراف عن الأهم المجدي مما قصدنا إليه، وجعلناه هدفًا نجهد أن ننفق فيه ما أبقى الله لنا من أعمار.

ولذا تفارطت السِّنون تباعًا، وأنا في غاية الإعراض عن التشاغل بهذه القضايا أو التعليق عليها، أو التعقيب على الردود حولها.وكنت أرى أن المسألة ستتحول بمُضِيِّ الزمن من مرافعات شخصية إلى قضية علمية بحتة، متجردة إلى حد كبير من انفعالاتها وحساباتها الوقتية.

ولذا فإن رسالة وصلتني من سماحة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله جعلتني أقف لهذا الموضوع هذه المرة وأبيِّن فيه ما عندي، وعسى أن يجعل الله في هذا الأمر خيرًا لنا جميعًا.

وكانت رسالة الشيخ عبارة عن سؤال وصله من أحد الشباب، ضمَّنه عدة أسئلة ترجع إلى سؤالين، هما مَثار الجدل لهذه القضايا، أقتصر عليهما.

يقول السائل:

(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نود من فضيلة شيخنا عبد الله الجبرين الجواب عن الأسئلة الآتية:

١ - ما حكم الشرع فيمَن قال عن مغنٍّ يجاهر بفسقه ما نصه: «هذا لا يغفر الله له! إلا أن يتوب؛ لأن النبي ﷺ ذكر بأنه لا يعافى «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى...»؛ لأنهم مرتدُّون بفعلهم هذا ردة عن الإسلام!! هذا مخلد - والعياذ بالله- في نار جهنم إلا أن يتوب!! لماذا؟ لأنه لا يؤمن بقول الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٣٢].

بالله عليكم الذي يعرف أن الزنا حرام وفاحشة، ويسخط الله هل يفتخر أمام الناس؟ أمام الملايين أو مئات الألوف من الناس؟! لا يفعل هذا أبدًا..؟

فبالله عليك يا شيخ عبدالله الجبرين: ما حكم الشرع فيمَن قال ذلك؟ وهل يعد من الخوارج؟ وهل نحذِّر منه نصيحة لله ولرسوله وللمسلمين؟ وهل نصرِّح باسمه؟ علمًا أنه قد نُوصِحَ ولم يرجع؟

٢- وما حكم الشرع فيمَن فرق بين (الطائفة المنصورة) و(الفرقة الناجية)، وقال أيضًا: «إنَّ الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله قد وافقني على ذلك»؟!!

علمًا بأن الشيخ رحمه الله قد سُئِل عن ذلك، فقال: «لم أوافقه على ذلك». بل قال الشيخ رحمه الله: «الفرقة الناجية هم الطائفة المنصورة».

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

وقد تكرم الشيخ عبدالله رحمه الله، فكتب على الرسالة التعليق التالي، وبعث بها وبالتعليق إليَّ، ونص التعليق هو:

(عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وبعد:

أرى أن تحال إلى فضيلة الشيخ سلمان بن فهد بن عودة؛ ليتولى الإجابة عنها؛ فله -وفقه الله- اختصاص بهذه المواضيع، ويمكن تولِّي مناقشة هذه المسائل معه، وسوف يقتنع السائل بما لديه من الجواب، إن كان قصده الصواب، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

٢٢/ ١٢/ ١٤٢٢هـ.

عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين.

التوقيع).

وقد دعاني هذا الخطاب من سماحة الشيخ رحمه الله إلى التعليق بما يلي:

١- فالقول الأول المتعلق بالغناء، ورد في كلمة ألقيتها بعنوان: (جِلْسَة على الرَّصيف)[1].

وقد أشار الأخ الكريم إلى أن المتكلِّم نوصح فلم يرجع، وكأنه فهم من هذه الكلمات أنني أُكَفِّر أصحاب المعاصي، وهذا الكلام لو افترض أنه يوهم ما أشار إليه الأخ السائل، ما كان خليقًا أن يُفْصَل عن سياقه، ولا عن حال قائله، والكلام الشفهي عادة ما يكون ارتجالًا، لا يتمكن المتحدِّث فيه من استحضار اللوازم، وإيراد المحترزات، وحبك الصياغة باللغة العلمية المحكمة، كما يقع في حال الكتابة والتدوين.

---

(١) ينظر عبر الرابط:

http: / /www.islamway.com /?iw _s=Lesson&iw _a=view&lesson _id=12650

على أنه من المعلوم لدى أهل العلم أنه لا يؤخذ أحد بمفهوم كلامه، إذا كان له منطوق كلام صريح بخلافه، كما قرر ذلك الإمام ابن الوزير في (العواصم والقواصم) وحكاه اتفاقًا بين أهل النظر.

والأصل أن حال المتكلِّم ومشهور قوله كافٍ في إيضاح مراده، ومع ذلك فإني أوضح الأمر، فأقول:

إن أهل الإسلام كافة لا يكفرون أصحاب الذنوب، ما لم يستحلُّوها، لا يخرج عن هذا إلا فرقة الخوارج ومَن سلك سبيلهم، ممن استحلوا دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم بغير حق.

وهذا المذهب الفاسد معروف مَن ينتحله ويذهب إليه، وليس ثمة حاجة إلى اقتناص شوارد يدان بها هذا أو ذاك؛ فإن الأصل في المسلم السلامة، وإذا ادعى مسلم أنه لا يقول بهذه المقالة، فالجدير أن تقبل دعواه، ويُوكَل أمره إلى الله، ولا يكلَّف بالتزام القول ثم الرجوع عنه.

لقد جاء المنافقون إلى النبي ﷺ في أعقاب غزاة تبوك يعتذرون إليه، فقبل منهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله[1].

ونحن اليوم ننادي بتحقيق هذا القدر من التعامل الحسن بين المؤمنين الذين جمعتهم لُحمة الدين والإخاء الشرعي، أن يقبل بعضُهم من بعض، ويستغفر بعضُهم لبعض، ويحسنوا الظن فيما بينهم، ويكِلُوا السرائر إلى الله.

وهذا القول المذكور لا يُقصد به المعنى الذي ظنه السائل، وليس المراد به فعل الخنا، أو حتى الزنا بمجردها، وإنما التمدح بالفجور والزنا

---

(١) كما في صحيح البخاري (٤٤١٨)، وصحيح مسلم (٢٧٦٩) في حديث توبة كعب ابن مالك رضي الله عنه.

والثناء عليه وعلى أهله، وانتقاص مَن لا يفعله، بأنه ليس لديه الفُتُوة والرجولة والقوة، وبين هذا وذاك فرق كبير.

وحتى مع هذا، فالحكم على الناس يستصحب الأصلَ الذي هم عليه من الإسلام حتى يثبتَ خلافه بيقينٍ لا تردُّدَ فيه.

إن الألفاظ وعاء المعاني، فإذا ظهر المعنى حَسُن التجاوز عن اللفظ، ولو كان فيه نقص أو إخلال أو حتى خطأ.

وقد حكى لنا الرسول ﷺ قصة الرجل الذي قال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ**»[(١)]. فغلبه الحال عن المقال.

فلا تحمل مقالات الناس فوق قدرها ونصابها، ولا تعزل عن سياقها الخاص والعام، ولا يتطلب من ورائها معنى وَقَر في ذهن السامع أو القارئ، فأصر على الإلزام به؛ لأن المقصود -إن شاء الله- هو البيان والنصيحة، مع الشفقة والرحمة، وحب الخير للناس.

إن للخوارج مسلكين فاسدين يعزز أحدهما الآخر:

أولهما: مسلك الغلو في الاعتقاد، الذي ظنوه تعظيمًا لحرمة الشريعة، وخرجوا به عن حد الاعتدال إلى الإفراط بتكفير أصحاب المعاصي، وعامة المسلمين.

وثانيهما -وهو تفريع على الأول-: يتمثل في العدوان على المسلمين

---

(١) كما في حديث أنس رضي الله عنه: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ، كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ». أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧).

والجور في معاملتهم، فاستحلُّوا دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

قال ابن دقيق العيد: «أعراضُ المسلمين حُفْرَةٌ من حُفَرِ النار، وقف على شَفِيرها طائفتان من الناس: المحدِّثون والحُكَّام»[١].

وليس في جمهور المسلمين -بحمد الله- مَن ينتحل صريح رأي الخوارج في الغلو والتكفير بالمعصية، إلا فئة قليلة لا شأن لها، وعسى الله أن يكُفَّ بَأْسَهم، ويهدي قلوبهم، ويحفظ المسلمين من شرهم.

ولكن هناك مَن يتجرأ على دماء المسلمين وأموالهم بتأويل فاسد، وهذا خطير، وقد كتبتُ حوله الكثير، وحذرتُ من مغبَّتِه، وإن كان علاج مثل هذا يتطلب الجد في إزالة أسبابه ودوافعه، والتي منها الحجر على الدعوة ومحاربتها، واضطرارها إلى المخابئ البعيدة عن التدارك والتصحيح.

ويوجد وراء هذا وذاك من أهل الخير والتفقُّه ممن لا يقولون بقول الخوارج، وربما أعلنوا عليه الحرب والنكير، لكنهم يقتبسون منهم مسلكهم في القسوة على مخالفيهم، ومحاصرتهم بالتُّهم؛ فهذا زنديق، وهذا مبتدع ضال، وهذا خارجي، وهذا مرجئ !! دون أن يكون لهم في ذلك بصر ولا أَنَاة، أو يكونوا من أهل العلم المحتكم إليهم في هذه المسائل، وقد يصبح معقِدُ الولاء والبراء على مثل هذه الأغلوطات، وربما استقر في ذهن الشاب (حديث السن) معنى قريب، فتشبث به وجادل حوله، وأضاع فيه أثمن سِنِّي عمره، إذ كان خليقًا أن يُصرف في البناء والتكوين العلمي والسلوكي.

---

(١) ينظر: الاقتراح في بيان الاصطلاح (ص٦٠).

إنَّ التصحيح والبيان واجب، على أهله الذين هم أهلُه، ممن يملك العلم والرحمة معًا ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥].

ولقد يدرك أولو الألباب الجهود الإسلامية التي يأكل بعضُها بعضًا، ويدمِّر بعضُها بعضًا، مع مسيس الحاجة إليها والعجز المستحكم عن مدافعة العدوِّ الصريح الذي سلب الديار، ونهب الأموال، وصار يتدخل في خصوصيات المسلمين ومعاقد حياتهم.

وأظهر منه ضعف تبليغ الإسلام إلى البشرية، ففي الوقت الذي يحتدم الجدل والتمحك بيننا في مسائل ما كانت لِتبلُغ ما بلغت، لولا أننا ألححْنا عليها وأكثرنا من الدوران حولها، في الوقت نفسه يظل أربعة من كل خمسة في الأرض كلها من غير المسلمين، وممن لم تبلغهم رسالة الإسلام غالبًا.

ونحن نرى أن هذه وتلك هي المعارك الجادة التي يجب أن نتأهل لها، أما العراك مع إخواننا فنؤْثِر طَيَّه وتجاوزه، وقبول العذر، وإحسان الظن، ونؤثر لكل شاب يُجر إلى مثل هذه المنازلات، ألا ينجر إليها بحال، وأن يؤثر العفو والصفح والتسامح، وعدم أخذ الأمر بالشدة.

وللإخوة الذين يقولون: إنهم يدافعون عن بعض الدعاة أو يحمون أعراضهم.

أقول: أحسنتم وأجملتم، ولكن كان أَوْلَى بكم أن تنشغلوا بما هو أهم من ذلك؛ من الدفاع عن الإسلام والعقيدة، وتصحيح أحوال المسلمين، أو دعوة غير المسلمين، أو بناء الدنيا، أو بناء الدين.

ومن طريف الحال: أن يقول لي أحدُ الدُّعاة: لقيت شابًّا، فقال: أنا

أُحبُّكَ وأدافع عنك في كلِّ مجلس! فقلت له: كأنك تخبرني أنني أهمز وألمز في كل مجلس!!

إنه قد لا يضير إنسانًا أن يموت موحِّدًا، ولكنه يسيء الظن بي عن اجتهاد، أو عن تقليد لمَن ظهر له صلاحه، ولكنه يضيره أن يموت جاهلًا بالله أو بدينه وشريعته، أو بكتابه، أو برسله.

وإذ نحن مسلِّمون بمحدودية الجهد الذي نبذله، فلم لا نختار له أهم المواقع وأنفعها؟

٢- المسألة الأخرى التي وردت في سؤال السائل، هي أنني أقول بالتفريق بين (الفرقة الناجية) و (الطائفة المنصورة)، وأنني أزعم أن الشيخ ابن باز رحمه الله، وافقني على ذلك، ولكن الشيخ نفاه، وقال بأنهما واحد.

وبحث هذه المسألة لا بأس به، فهي من المسائل العلمية التي لا يخلو تأملها من فائدة، ولكنها ليست من المسائل الكبار، بل هي من جنس بحث العلماء في التوفيق بين الأحاديث، كما صنع الطحاوي وابن قتيبة والنووي وابن تيمية وابن حجر، وغيرهم، ومن جنس بحث المفسرين في دلالات الألفاظ القرآنية وتطابقها أو تفاوتها؛ فإن أفراد هذه المسائل قد يَعْرِضُ للناظر فيها بعض التردد، أو الخطأ غير المقصود، وهذا مرفوع حرجُه عن الأمة، كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، والقائل فيه باجتهاد بين أجر وأجرين[(١)].

وقد تكلم أهل العلم فيما هو أولى بالنظر من ذلك؛ كمسألة الفرق

(١) حديث: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ، فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ». أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

بين الإسلام والإيمان، فمنهم مَن قال: هذا هذا، ومنهم مَن حَمَل كلًّا على معنى، ومنهم مَن فرَّق في حال دون حال، وبكل قال أئمة ذوو قدر واعتبار، ولا تعنيف على أحد منهم فيما ذهب إليه؛ لأن المسألة علمية لها دقة وخصوص، وقد بسط القول فيها ابن تيمية في كتاب الإيمان(١).

ومثله كلام المفسرين حول المقتصد والظالم لنفسه والسابق بالخيرات(٢).

وما أبديته في بحثي المطبوع ضمن: «رسائل الغرباء» هو نوع من التفسير للنص، وهو عندي صواب يحتمل الخطأ، وعند الأخ السائل خطأ لعله يحتمل الصواب إن شاء الله، إذ لا قطعية في هذه المسألة، وليست من معاقد الإجماع، بل هي من موارد الظنون.

وكأن بعض الناس أطلق أنني أقول بأن الطائفة المنصورة غير الفرقة الناجية، ولم يفصح عن المعنى، والحق أنني أذهب إلى العموم والخصوص، وأزعم أن الطائفة المنصورة هي بعض الفرقة الناجية، فالفرقة أعم، والطائفة أخص، والنجاة حاصلة لكثير من المسلمين، ولو كانوا غير منصورين، فالصحابة الذين اختلفوا وتنازعوا كلُّهم ناجون، ومنهم المنصور ومنهم غير المنصور، ويحسن مراجعة كلام ابن تيمية في هذا المعنى في «مجموع الفتاوى»(٣).

---

(١) ينظر: الإيمان الأوسط لابن تيمية، ومجموع الفتاوى (٧/ ٢٦٣).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤٦-٥٥٠)، والدر المنثور (١٢/ ٢٨٤-٢٩٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٤٤٣-٤٥٠، ٤٦٧-٤٧٠).

وهذا المعنى ثابت في الكتاب المنزل في قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فجعل الطائفة جزءًا من الفرقة وأخص منها، وهذا معروف لغة أن الطائفة أقل، حتى يقال: طائفة الثوب، وطائفة النخل، وقد يسمى الواحد طائفة، كما في آية النور عند بعض المفسرين ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٢][1].

وساعد على هذا القول أن اللفظين مختلفان في دلالتهما وفي وصفهما، فهذه فرقة، وتلك طائفة، وهذه ناجية، وتلك منصورة، واختلاف المبنى يدل على تفاوت في المعنى، وكان هذا هو الأصل، والله أعلم.

وبكل حال يعلم بأنني لا أقول: إن (هذه) غير (تلك)، كما قد يلتبس على قوم، ولكنني أقول: هذه (من) تلك، أي: بعضها، فقد يقع لقومٍ النَّجاة من الانحراف دون النُّصرة، ويقع لآخرين هذا وهذا.

وقد بسطت القول في غير هذا الموضع[2]، ولا أرى الإطالة في المسألة؛ فهي مبحث عارض يحسن تجاوزه، والقول بأنهما لفظان مترادفان لا فرق بينهما ألبتة، له محمل.

وقد علَّق على البحث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» بقوله: «وأما ما أثاره في هذه الأيام أحد

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٩/ ٩٣-٩٥) ورجحه، وتفسير ابن أبي حاتم (٨/ ٢٥٢٠) (١٤١٠٩-١٤١١٢)، وتفسير الخازن (٥/ ٤٧)، وتفسير السمعاني (٣/ ٤٩٩)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٦٦)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٨)، والدر المنثور (١٠/ ٦٣٧).

(٢) ينظر: صفة الغرباء (ص٢٣٨-٢٤٩).

إخواننا الدُّعاة من التفريق بين (الطائفة المنصورة) و(الفرقة الناجية)، فهو رأي له، لا أراه بعيدًا عن الصواب، فقد تقدم هناك النقل عن أئمة الحديث في تفسير الطائفة المنصورة أنهم أهل العلم بالحديث وأصحاب الآثار، وبالضرورة تعلم أنَّه ليس كلُّ مَن كان من الفرقة الناجية هو من أهل العلم بعامة، بل من أهل العلم بالحديث بخاصة.

ألا ترى أن أصحاب النبي ﷺ هم الذين يمثِّلون الفرقة الناجية؛ ولذلك أمرنا بأن نتمسك بما كانوا عليه، ومع ذلك فلم يكونوا جميعًا علماء، بل كان جمهورهم تابعًا لعلمائهم؟

فبين (الطائفة) و(الفرقة) عموم وخصوص ظاهران، ولكني مع ذلك لا أرى كبير فائدة من الأخذ والرد في هذه القضية؛ حرصًا على الدعوة ووحدة الكلمة)[1].

ويعلم أن بين اللفظين ترادفًا ظاهرًا؛ من حيث إن استجماع أسباب النجاة سبيل إلى تحصيل النصرة، وأن النصرة لا تكون إلا لأهل النجاة، وهذا قدر مشترك بينهما، لكن هل يلزم من هذا الترادف التطابق التام من كل وجه؟

هذا محل النظر.

إذ يمكن أن يكون بينهما تطابق محض، ويمكن أن يكون بينهما عموم وخصوص، كما أشرنا واخترنا، والعموم والخصوص لا ينافي الترادف والاشتراك العام.

---

(١) ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، القسم الثاني من المجلد الأول (ص٩٣٢)، استدراك رقم (٩).

والتفاوت في المقامات العلمية أو العملية هو من الأمور القطعية؛ فالجنة درجات، وأهلها متفاوتون بحسب مقاماتهم في الدنيا، منهم النبيون، ومنهم الصدِّيقون، ومنهم الشهداء، ومنهم الصالحون، ومنهم دون ذلك، ومنهم مَن يدخل بغير حساب، ومنهم مَن يدخل النار ثم يخرج منها، وفي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ**»[1].

ولأهل العلم مآخذُ شتى في أقسام الناس وطبقاتهم ومنازلهم، وقد صنَّف فيه أهل السلوك، وتفاوتوا بحسب الخصال التي اعتمدوها، وبحسب البسط أو الإيجاز وغير ذلك.

وهذا من أسرار الشريعة في العدل بوضع كل شيء في موضعه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وفي الترقي بالناس مرحلة بعد أخرى، فالسائر كلما وصل مرحلة لاحت له معالم فوقها، فتطلّع إليها وجاهد في تحصيلها ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

وهذا لُبُّ المسألةِ: أن يعظُمَ حرصُ المرء على العلم الذي ينفعه في نفسه، ولا يتحول العلم إلى خصومات بين أهله تقطَعُهم عن الطريق وتشغلهم عن الغاية.

ولقد جرى أن سألني شابٌّ عن هذه المسألة بعينها، فبادرته بالسؤال

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٣).

عن معنى الفرقة الناجية، ومعنى الطائفة المنصورة، فلم يحر جوابًا، وعلمتُ أنه يردِّد أقوالًا سمعها وشُحن بها فؤاده، دون أن يعيها ويدرك أبعادها، فاللهم سامح إخوانًا لنا جعلوا وَكْدَهم وهِجِّيراهم[1] تلقين المهتدي الجديد مسائل المنازعات والفروق؛ حتى يَحُولُوا بينه وبين الآخرين، فأفسدوا فطرته، وكدَّروا قلبه، وشغلوا عقله بما يصح -إن كان حقًّا- أن يأتي في مرتبة متأخرة، لا أن يكون هو المبتدأ والخبر!

●●●●

(١) الوَكَد: العمل والجهد. والهِجِّيرى: الدأب والعادة.

«إذا كان الجهد
قليلًا؛ فعليَّ أن أختار
الميدان الملحَّ».

الدفاع عن العقيدة أولًا

الدفاع عن العقيدة أَولى

تصلُني رسائلُ كثيرة حول موضوع يتكرر ويعاد، خلاصته أننا نعرف عنك العُزوفَ عن الدفاع عن نفسك، وابتعادك عن حرب الردود، ولكن ليس صحيحًا أن هذا هو الصواب دائمًا، فثمة أمور ربما كانت ملتبسة على بعض الناس وفهموها عنك خطأً، فبيانها كاشف لهذا اللَّبس، كما أن الردَّ على بعض الطعون يسرع بإطفاء الفتنة...إلخ.

وأقول: إن من حقِّ المرء أن يدافع عن نفسه، لكن هذا ليس واجبًا في الأصل، والدفاع عن النفس والانهماك فيه مَشْغَلَةٌ للذِّهن، وصرفٌ للجهد عن قضايا الإسلام والمسلمين.

ولن يؤدِّي إلى إطفاء نيران الفتن، بل هو سيزيدها اشتعالًا؛ لأنه سيقدم مادة جديدة يتم التعليق عليها وإخراجها والبحث عن عثراتها، وهو سيؤكد أن ثمة فريقين يختصمان، بينما الأَوْلَى أن تظل القضية أن طرفًا يهاجم، وآخر يلوذ بالإعراض عنه، والاشتغال بما هو أهم، وفي النهاية لا يصحُّ إلا الصحيح.

يوجد ما يزيد على أربعة مليارات إنسان فهموا ربهم خطأً، أو حتى كفروا به وأنكروا وجوده، فلماذا لا ننشغل بكشف هذا اللبس في حدود طاقتنا؟

يوجد ما يزيد عن مليار مسلم، ينتشر بينهم الضلال، وتُرَوَّج البدع،

وتُعْبَدُ القبورُ، ويُدْعَى الأولياءُ، وتمارَسُ الفواحشُ، ويُتَعَاطَى الرِّبا.. وتقع أجزاء من بلاد المسلمين تحت وطأة الكافرين وسلطانهم، كاليهود والنصارى والملحدين... ويتعرضون لأبشع صور التعذيب والنكال والقتل والاغتصاب، وتعيش شعوبٌ إسلامية فيما يشبه حالة الاحتضار... في طائفة من محنٍ وأخطاءٍ وخَطَايا يعيشها المسلمون.

وهذا ليس هجاءً لهذه الأمة المصطفاة، فهي في قلوبنا ووجداننا، ونحن -بحمد الله- ممن يحفظ لهم وصف الإسلام، وإن وقعوا في الآثام، وحتى أولئك الذين وقعوا في الشرك جاهلين، نؤثر عذرهم بالجهل، وبقاءهم على الأصل. ورحمته وسعت كل شيء، فنسأله أَلَّا يحجبَها عنَّا بذنوبنا، ولا عن أحد من المسلمين، ويفترضَ أن نستفيدَ من خصمنا الكثير.

نستفيد الانتباه إلى أي ملاحظة أو خطأ وقع فيه الإنسان: و«**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»(١).

وإن كان الناقد محبًّا قلنا: رحم الله امرأً أهدى إلينا عيوبنا. وإن كان شانئًا، قلنا:

عُدَاتي لَهُم فَضلٌ عَلَيَّ ومِنَّةٌ ... فَلَا أبعَدَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الأَعَادِيَا

هُمْ بَحثُوا عن زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا ... وَهُمْ نَافَسُونِي فَاكْتَسَبْتُ المَعَالِيَا(٢)

وبعض الناس قد يركب متن الخطأ إصرارًا وعنادًا واستكبارًا، وهذا

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠).

(٢) ينظر: نفح الطيب (٢/ ٥٣٦)، ونفحة الريحانة للمحبي (١/ ٢٨٥) منسوبًا إلى إمام النحاة أبي حيان.

ضعف في الشخصية، ونقص في الثقة بالنفس.

وآخرون قد يتنصَّلُون، ويتراجعون، ويعتذرون عن الصواب، أو ينطقون بالخطأ، وقصدهم حماية أنفسهم، أو السلامة من لسان فلان وفلان، وهذا أيضًا ضعف في الشخصية، ونقص في الثقة، وقلة أمانة.

كما نستفيد من خَصْمِنا الاعتيادُ على سماع النقد، بل والسبِّ والشتمِ والاتهامِ والجرحِ، ولا أحد يسلم قط، ومَن تعوَّد على سماع المديحِ المحضِ والثناء والإطراء، ربما ثقل عليه سماع النقد والملاحظة، حتى لو كانت من وادٍّ ناصح، وبأسلوب ليِّن، وحتى لو كانت حقًّا جليًّا.

وربما كان سماع الثناء المجرد سببًا في إعجاب المرء بنفسه، وذهابه وتيهه، والله أعلم بعباده.

والذي نختاره لإخواننا الشباب في بلاد العرب، وفي بلاد المَهْجَر، وفي كل موقع، أَلَّا يدافعوا إِلَّا عن دينهم، ولا يشغلوا أنفسهم إِلَّا بالحق، حتى لو سمعوا مَن يتكلم أو يزيِّف أو يتهم، وحتى لو رأوا أن الناس اقتنعوا بما يقول هذا وأجلبوا وراءه، وتناولوا فلانًا وفلانًا بالعيب والثَّلْب، فالأمر هين، ومسائل الأشخاص والأعيان لا يجب أن تكون مَيْدان خصومة ولغَطٍ، والكف والإعراض أَوْلَى.

ونختار أيضًا: العمل الجاد المثمر، تعلُّمًا، وتعليمًا، ودعوة، وتعاونًا بين العاملين، وسعيًا في التربية والإصلاح، وانتماء حقًّا للأمة بشمولية هذا الانتماء وعمقه وامتداده، مشاركة في ميادين الخير، إعلامًا، واقتصادًا، ونشاطًا اجتماعيًّا، وتنمية للمواهب والطاقات، ورعاية للإبداع.

إن هذه الأغلوطات والمسائل الصغيرة لا تُـنَمِّي عقلًا، ولا تبني ثقافة،

ولا تؤسِّس علمًا، ولا تشيِّد بناءً، ولا تحفظ وُدًّا، ولا تُصْلِح فاسدًا، ولا تقيم معوجًّا.

ولو أن امرَأً شغل نفسه وحياته بسبِّ فرعون وهامان وقارون وأبي جهل وأبي لهب ورؤوس الكفر والشرك، فهو يسبُّهم ويفضحهم ويلعنهم، لكان مذمومًا ملومًا على تفريطه بالطاعات، وتركه للواجبات، وانشغاله عن ذكر الله تعالى بذكر فلان وفلان، ولربَّما مات مسلم لا يعرف هؤلاء، ولم يسمع بأسمائهم، فكان من أهل الدرجات العلا، وهذا صح عن النبي ﷺ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: «**لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ؛ فَتُؤْذُوا الأَحْيَاءَ**»[١].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «**فَإِنَّهُم قَدْ أَفْضَوا إِلَى مَا قَدَّمُوا**»[٢]. قال هذا في أبي جهلٍ، فرعون هذه الأمة[٣].

إن النفس المشغولة بالبحث عن عَثَرات الناس وجمعها ومحاصرتهم بها، نفس مريضة ولا بد، والنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله، ومن ظلم المرء لنفسه أن يختصر الآخرين في زلاتٍ محدودة، فإن النفس البشرية فيها من العمق والاتساع والتنوعِ، ما يجعل كل إنسان فيه جوانب من الخير لو فُعِّلت واستُخْرِجت ووُظِّفت، لكان من ورائها خير كثير.

ولذلك كان المصلحون نابغين في هذا الجانب، جانبِ تحريكِ الخير الكامن في نفوس الناس، وهذا يكون بالثناء المعتدل الصادق، مثلما تجده في ثناء النبي ﷺ على قبائل وأحياء وأعيان ومواطن.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٢٠٩)، والترمذي (١٩٨٢)، وابن حبان (٣٠٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٣).

(٣) ينظر: اللمع في أسباب ورود الحديث للسيوطي (ص٤٨).

كما يكون بحفظ جاه الناس ومكانتهم، وعدم ازدرائهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ؛ فَهُوَ آمِنٌ»[١]. وقال: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[٢]. وغمط الناس: ازدراؤهم، وبطر الحق: ردُّه.

ويكون بالتواضع وترك الاستعلاء، ولهذا قال ﷺ، وقد أتاه رجل يكلمه، فجعل ترعد فرائصه: «هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ القَدِيْدَ»[٣].

ويكون بقبول الحق والخضوع له، ولو جاء من غير مظنته، ولهذا قال ﷺ: «صَدَقَكَ، وَهُوَ كَذُوبٌ، ذَاكَ شَيْطَانٌ»[٤]. وصَدَّق رسولُ الله ﷺ قولَ اليهودية في عذاب القبر[٥].

ويكون بالفرح بالنجاح الذي يحققه الآخرون، فلا نشعر أن نجاحهم على حسابنا، الميدان رحب، والفرص عديدة، وقد نجح أعداء الإسلام الصرحاء في الكثير الكثير، وعلى حساب ديننا وأمتنا فلم يزعجنا ذلك، أو على الأقل لم يظهر على قسماتنا وملامحنا ولغتنا الانزعاج، وكان ذلك

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبدالله بن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، والحاكم (٣/ ٤٧) من حديث أبي مسعود ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٢٣١١، ٣٢٧٥) معلقًا، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٧٩٥)، وابن خزيمة (٢٤٢٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال ابن خزيمة: خبر غريب غريب، وينظر: فتح الباري (٤/ ٤٨٧-٤٨٨).

(٥) كما في حديث عائشة ﷺ: أن يهوديةً دخلت عليها، فذكرتْ عذابَ القبرِ، فقالت لها: أعاذكِ اللَّه من عذاب القبر. فسألت عائشةُ رسولَ اللَّه ﷺ عن عذاب القبرِ؟ فقال: «نَعَمْ، عَذَابُ القَبْرِ حَقٌّ». قالت عائشةُ ﷺ: فما رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ بَعْدُ صلَّى صلاةً إلَّا تعوَّذَ مِن عذابِ القبرِ. أخرجه البخاري (١٣٧٢)، ومسلم (٥٨٦).

أولى بنا؛ لأننا أمام باطل محض، بينما ما نعيبه على إخواننا المسلمين هو على أسوأ الأحوال باطل مشوب بحق.

إنني أَحُسُّ أن الشباب المسلم بحاجة إلى تصحيح طرائق النظر والتفكير؛ لأن القوالب الخاطئة في النظر والتفكير تولد نتائج خاطئة، وهذا أولى من ملاحقة مفردات المسائل وتصحيحها؛ لأنه إذا كان المصنع مبنيًّا بطريقة معوجَّة، وكانت القوالب غير منضبطة ولا منتظمة، فلابد أن يكون الإنتاج معوجًّا وغير منضبطٍ، وإصلاح المصنع وتصحيح قوالبه هو المتعين، أما ملاحقة المنتج، فردةً فردةً، وواحدة تلو الأخرى؛ لتعديلها، فهو عمل شاق وقليل الجدوى.

ولا يفوتني أن أستدرك ما قد يقوله بعض الأحبة: وهل هذا يعني إلغاء باب الذب عن عرض المسلم؟

كلا. وهيهات، المسألة المطروحة ليست هذه، هي مسألة صراعات واحتدام نزاع وضياع أوقات، ولبس وشماتة عدو... فالانسحاب من هذا الميدان إلى ما هو أنفع هو اختياري، ولا بأس أن يذب المسلم عن عرض أخيه المسلم.

وقد اقتصرتُ هنا على ما أظنه لُبَّ المسألة، وتركت الدخول في التفاصيل، ولعل عذري أنني أظن في هذا مساهمة صغيرة صغيرة في تعديل المصنع، وصياغة القوالب. والله أعلم.

«الصراع يستخرج أسوأ ما في النفس من الشرور والانفعالات، فإذا كان ضرورة، فهو أهون الشرّين».

إذا عزَّ أخوك فَهِنْ

إذا عزَّ أخوك فهنْ

الناظر فيما يُكتَبُ اليوم في الإنترنت؛ يلحظ جرأة محمودة في الطرح والتناول للقضايا؛ تؤذن بانقراض زمن الصمت، وميلاد عصر المشاركة، والمصارحة، وحوار الآراء.

وعلينا أن نتقبل هذا الواقع؛ لاعتبارات كثيرة، من أهمهما: أنه يفضي إلى تكريس دور الفرد، وواجبه ومسؤوليته، ويخفف في نهاية المطاف من الاحتقان والتوتر الناجم عن المصادرة والإلغاء، والقضاء على خصوصية الإنسان.

فمناخ الحرية المعتدل هو الأفضل لبناء أناس أسوياء راشدين معتدلين؛ ولهذا كان النبي ﷺ متواضعًا، بعيدًا عن مؤاخذة الناس ومعاجلتهم. وما ضرب خادمًا ولا امرأة ولا أحدًا؛ إلا أن يضرب في سبيل الله[1].

وقال له رجل: اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ؟ فقال ﷺ: «**وَيْلَكَ! وَمَنْ يَعْدِلْ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟!**»[2]. وانتهى الأمر عند هذا الحد.

---

(١) كما في صحيح مسلم (٢٣٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأصله في صحيح البخاري (٣٥٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٣٨)، ومسلم (١٠٦٣)، وابن ماجه (١٧٢) من حديث جابر رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وقال آخر: والله إن هذه القسمة ما عُدل فيها، وما أُريد بها وجه الله! فبلغت رسولَ الله ﷺ مقالةُ الرَّجلِ؛ فقال ﷺ: «**فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، رَحِمَ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»(١).

وأنزل عليه ربه سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب:١]، وقوله: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب:٣٧]، وقوله: ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء:١٠٥]، وقوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [عبس:١،٢]، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى:٨]، وقوله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٧-٦٨]، ومن حوله كان المنافقون واليهود وضعفاء الإيمان من الأعراب وغيرهم..، فكان يتلو عليهم جميعًا هذا القرآن، وهم يتحفظونه ويقرؤونه في صلاتهم ومجامعهم؛ ولهذا اختار ﷺ أن يكون عبدًا رسولًا(٢)، فليس له سيماءُ الملوك، وأُبّهتُهم في الهيبة المتكلّفة، والوقار المُفْرط. وقد رآه أعرابي؛ فاضطرب! فقال ﷺ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَأْكُلُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) كما في حديث أبي هريرة ﷺ قال: جلسَ جبريلُ إلى النبيِّ ﷺ، فنظرَ إلى السماء، فإذا مَلَكٌ ينزلُ، فقال جبريلُ: «**إِنَّ هَذَا الْمَلَكَ مَا نَزَلَ مُنْذُ يَوْمِ خُلِقَ قَبْلَ السَّاعَةِ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ رَبُّكَ، قَالَ: أَفَمَلِكًا نَبِيًّا يَجْعَلُكَ أَوْ عَبْدًا رَسُولًا؟ قَالَ جِبْرِيلُ: تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدُ. قَالَ: بَلْ عَبْدًا رَسُولًا**». أخرجه أحمد (٧١٦٠)، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (١٢٥)، والبزار (٢٤٦٢ - كشف)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، وابن حبان (٦٣٦٥).

القَدِيدَ»[1].

ومن أكثر أصحابه هيبة وقوة: عمر بن الخطاب ﷺ، وفي خلافته كان يأتيه أُبي بن كعب ﷺ؛ فيرُدُّ عليه في مسألة علمية، ويقول له: يا ابن الخطاب، لا تكونن عذابًا على أصحاب محمد ﷺ[2].

واختلف مع أبي موسى الأشعري ﷺ في شأن الاستئذان، فاستشهد بأبي سعيد الخدري ﷺ؛ فيعتذر الخليفة، ويقول: «خَفِيَ عليَّ هذا مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ، أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْقُ بالأَسْوَاقِ»[3].

إن الرجوع إلى هذا النمط في العلاقة بين الناس -من العلماء، والمتعلِّمين، والعامة- ضرورة في هذا العالم المتغير.

وإذا كنا في مرحلة توجب علينا تقبل هذا التنوع في المعالجة والنظر، وهذا التجديد في الرؤية لاعتبارات عديدة، منها: اعتبارات خارج إطارنا الإسلامي، من حيث الانفتاح العالمي والإعلامي والاقتصادي والسياسي، بحيث إن الدول بما تملكه من قدرات وإمكانات أصبحت عاجزة عن مقاومة هذا الانفتاح أو صده، فكيف بغيرها؟!

وهذا قد يبدو كما لو أن الانفتاح كان أمرًا اضطراريًّا لا خيار فيه من حيث الجملة.

لكن ثمَّة اعتباراتٌ داخل الإطار الإسلامي، تلاحظ أن كسر الاعتياد المألوف على أمر واحد كان صعبًا، وقد يفضي إلى كثير من الخصام

---

(١) تقدم تخريجه (ص٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢١٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٦٢)، ومسلم (٢١٥٣).

والانشقاق الذي يداريه بعضُ رجال الدعوة، ويتخوفون سوء عواقبه، فلما جاءت هذه الحركة الانفتاحية، رأوا فيها -على ما فيها- وجهًا من الخير يؤهل للرجوع إلى الأمر الأول الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، بحيث لا تكون الأطروحات الدعوية مُثقَلة بأعباء تاريخية وواقعية تئد مسيرتها وتبطِّئ خطوها، وبهذا يتم التخفف من ألوان العصبيات العلمية والاجتماعية والحركية لصالح الحرية الشرعية المنضبطة.

ولأن الناس ربما لم يتعوَّدوا على كيفية استخدام هذه الحرية التي حصلوا عليها إلكترونيًّا أو فضائيًّا؛ فإن المرحلة السابقة يمكن اعتبارها فترة للتدريس والتعود، وهذا يخفف من القلق الذي يساورنا حين نرى اللغة التي يتم تداولها عبر الحوار، أو المسلك الأخلاقي في التثبت والاستماع والمعالجة والجرأة على ما لا يفهم المرء ولا يحسن، ولا يدرك أبعاده، وبصفة أوسع: التفريط في حقوق الأخوة بسبب ما يظن أنه اختلاف، وقد يكون الأمر اختلافًا سائغًا، بل محمودًا لا تثريب فيه، أو أن الحق مع الطرف الذي نشجبه ونشنع عليه، ولكن خفي علينا، ومَن جهل شيئًا أنكره و عاداه، أو ليس ثمة اختلاف أصلًا، وإنما هو كما يقول أهل العلم: خلاف لفظي، ليس له ثمرة ولا محصلة.

وبكل حال؛ فإن الواجب علينا أن نجتهد في رفع مستوى الحوار ولغة التخاطب وأخلاقيات التعامل إلى أسمى ما هو ممكن، والمثل الأعلى لدينا هو في التعليمات الربانية في محكم التنزيل، وفي التطبيقات النبوية الكريمة.

ومن الخطأ: افتراض أننا نعيش أوضاعًا ليس لها مثيل من قبل، ولذلك

نفترض أن أساليب مواجهتها يحب أن تختلف عما كان عليه الأمر في عهد السلف.

هذا غير صحيح، فلدينا سيرة نبوية عطرة، عاشت فترة الضعف والتمكين، والكثرة والقلة، ومع الموافق والمخالف، وعايشت اليهود والمنافقين بالمدينة، والوثنيين بمكة ثم بالمدينة وجزيرة العرب، والنصارى في نجران وبلاد الشام، وضعفاء النفوس من المسلمين، كما عايشت الاختلاف في وجهات النظر منذ العهد النبوي ثم عصور بني أمية وبني العباس.

والعبرة بالقواعد العامة التي انطلقوا منها، وليس بالاجتهاد الفردي، فحين نقول عن منهج ما أو طريقة ما: إنها طريقة سلفية؛ فهذا يعني لزامًا أن السلف مطبقون عليها، أما حين يكون اجتهادًا لإمام منهم؛ فإنها تظل اجتهادًا فرديًا غير ملزم، وإنما الملزم للناس هو: الكتاب، والسنة الصحيحة، والإجماع الثابت، وليس المدَّعى.

ولكل فقيه أو عالم أن يجتهد وراء ذلك بما يدين به من فهم النص أو الجمع بينه وبين غيره، أو الانطلاق من القواعد الكلية والمقاصد الشرعية.

وليس ثمة حَجْرٌ أن يختلف العلماء، وأن يَرُدَّ بعضهم على بعض، لكن مع رعاية أصول الاختلاف وأصول الرد وأصول التنازع، فلا تجريح ولا اتهام، ولا تنقص ولا ازدراء، ولا تسفيه، وإنما عفة في اللسان والقلم يكسو المرء بها لفظه، ويبين عن طيب معدنه وسلامة قصده، وحرصه على الهداية، وبعده عن الهوى والحظ الشخصي.

وقديمًا كان حكيم الفقهاء (الشافعي) يقول:

* قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب[1].

* ما ناظرت أحدًا فأحببت أن يخطئ، وما ناظرت أحدًا فباليت أظهر اللهُ الحقَّ على لسانه، أو على لساني[2].

* لو خاصمتُ ألفَ عالم لخصمتهم، ولو خاصمتُ جاهلًا لخصمني.

* يا ربيع، اكسُ ألفاظك[3].

* ألا يمكن أن نكون إخوة؛ وإن لم نتفق في مسألة[4]؟!

* الحر مَن راعى وداد لحظة، أو تمسك بمَن أفاده لفظة.

فرحم الله الإمام الشافعي وأعاد إلى المسلمين سداد هذا المنهج.

●●●●

(١) هذا القول اشتهر عن الإمام الشافعي رحمه الله، ولم نجد مَن نسبه إليه من المتقدمين، وأقرب من نُسب إليه ذلك القول: الإمام عبد الله بن أحمد بن محمود الحنفي النسفي، كما في: الفتاوى الكبرى لابن حجر الهيتمي (٤/ ٣١٣)، وحاشية ابن عابدين (٦/ ٤٢١)، وغيرهما.

(٢) ينظر: حلية الأولياء (٩/ ١١٨)، والفقيه والمتفقه (٦٦٥).

(٣) ينظر: فتح المغيث (١/ ٣٧١)، قالها للمزني: يا أبا إبراهيم، اكسُ ألفاظك، أحسنها.

(٤) ينظر: تاريخ دمشق (٥١/ ٣٠٢)، والسير (١٠/ ١٦).

«التقنية لم تهذّب طباعنا، بل أعطتنا أدوات جديدة للانتقام والتشفّي!».

هتافات حضارية

شتائم حضارية

جُبِلَ بعضُ الناس على ضراوة النفس، وحِدَّة الطبع، وآية ذلك: قعقعة الألفاظ التي لا تبدو قوتها في الحجة والبرهان، بل في الشتم والسب.

واللَّعَّانون لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة، كما في الحديث الصحيح: قال رسول الله ﷺ: **«لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ»**[1].

وفي الحديث الآخر: أن النبي ﷺ قال: **«إِنَّ المُؤْمِنَ لَيْسَ بِاللَّعَّانِ، وَلَا الطَّعَّانِ، وَلَا الفَاحِشِ، وَلَا البَذِيءِ»**[2].

ومَن أحبَّ النبي ﷺ ورجا أن يحشر معه، فعليه الاقتداء بهديه ﷺ، وحفظ لسانه، إلا من خير.

ولذا كان من توجيهه ﷺ لكل مَن يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يقول خيرًا أو يصمت، فقال ﷺ: **«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»**[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٨) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٤٨)، والترمذي (١٩٧٧)، والحاكم (١/ ١٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فرحم الله امرأً قال خيرًا فغنم، أو سكت فسلِم.

وليس ثمت حرج أن يختلف الناس أو يتنازعوا، لكن آلية معالجة الاختلاف هي بالحجة الناصعة والقول الليِّن، والبيان الإنساني المعبِّر عن صفاء النفس ورجاحة العقل ونبل الطبيعة.

وليس يخفى أن الأمة تعيش أزمات خانقة، وكأنها سفينة في لُجِّ البحر، تتقاذفها الرياح يمنةً ويَسرةً، ويوشك أهلها على الغرق، تتعالى الأصوات وتختلط، فيها الصوت الرحيم المشفق، وفيها الصوت الهادئ، وفيها الصوت الغاضب المزمجِر، وفيها الصوت الذي يوزِّع اللعنات يَمنةً ويسرةً، ويستثني نفسه، وكيف يلعن نفسه وهو المنقِذ والمصلِح والأمين والغيور والقائم على أمر الناس، حين نكل الآخرون ونكصوا، وتراجعوا وضعفوا، واشتروا الدنيا وباعوا الآخرة، وبئسما لامرئ أن يظن بنفسه الخير وبالآخرين الشرَّ، وإخوانك جزء منك، ظُنَّ بهم كما تظنَّ بنفسك: ﴿ لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور:١٢]، ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [النور:٦١]، ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات:١١].

جدَّ في هذا العصر (الشتمُ الإلكترونيُّ) عبر مواقع الإنترنت، شتيمة مجانية بغير حساب، باسم صريح مكشوف، وتلك لعمرِ الله هي المجاهرة بالخطيئة، و«**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ**»[١].

أو شتيمة مقنَّعة تختفي وراء اسم أو لقب، وتتحلل من كل القيود

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والتبعات.

ولأن القول المعتدِلَ الموزون قد لا يستفز، ولا يدعو للتوقف، فصاحب الشتيمة الإلكترونية ربما أغراه وقوف الناس عنده بين مؤيِّد ومعارض، وخُيِّل له أنه يصنع التاريخ!

وثمت نمط آخر جديد هو (الشَّتمُ الفضائِيُّ) من خلال اتصالات هاتفية مجهولة تتبجَّح برديء القول وساقطه، وتعد هذا جرأة وشجاعة، وهي حقًّا جرأة.. جرأة اللص الذي يقتحم البيوت، أو المعتدي الذي يهتك الأعراض دون تردد.. إنها الجرأة على تقحم الهلكات، وفي الحديث الصحيح: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ، فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا»[(١)].

وهذه المواقف لا تعبِّر عن مبدأ أصلًا، بل هي أصدق دليل على غياب المبادئ، وضياع القيم، وسيطرة الوحشية والغضب الأعمى والانتقام الشخصي على صاحبها، وهيهات أن تكون نصرةً لحق أو تعزيزًا الدين.

ومما جدَّ من طريف الشتم: السب على حسابك!!

أحد الأصدقاء أَرسل إليه شخص ما رسالةَ جوَّالٍ، يطلب فيها الاتصال العاجل والضروري، واتصل من خارج البلد، وأمضى نحو ساعة مع الذي طلب الاتصال، وكانت المكالمة شتيمة، فكنت أضحك منه، وأقول له: شتمك على حساب فاتورتك!!

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إن الذين آلوا على أنفسهم أن يسيروا في الطريق المستقيم محتاجون إلى:

١- الإعراض؛ فهو مبدأ قرآني: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ [القصص:٥٥]، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون:٣].

وقد كان من صفة النبي ﷺ: أن لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا(١).

وما أحسن الاقتداء بمريم عليها السلام: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٦].

٢- المدافعة بالتي هي أحسن؛ بالدعاء والاستغفار وطيب القول، ومجازاة السيئة بالحسنة، والنصوص في هذا المقام عظيمة كثيرة: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [المؤمنون:٩٦]، ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣]، ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ [القصص:٥٤].

وفي ثلاثة مواضع في القرآن ذكر الله تعالى الاستعاذة من شياطين الجن، ومصانعة شياطين الإنس.

٣- الحفاظ على النفس وسكينتها؛ لئلَّا تضطرب أو تتكدَّر، فأمامك مشوار الحياة الطويل، وأنت بحاجة إلى راحة وهدوء، كذلك الذي وعد الله نبيه ﷺ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح:٤]، ﴿ فَأَنزَلَ

---

(١) كما في حديث عبد الله بن سلَام في قصة زيد بن سَعْنة رضي الله عنه: أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٠٨٢)، وابن حبان (٢٨٨)، والطبراني (٥١٤٧)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ وآدابه (١٧٨)، والحاكم (٣/ ٦٠٥)، والبيهقي (٦/ ٥٢)، والضياء (٤/ ٣٢-٣٣) (٤٢١).

وفي «الصحيحين»، وغيرهما شواهد على حلمه وعفوه ﷺ. ينظر: صحيح البخاري (٣١٤٩، ٣١٥٠)، وصحيح مسلم (١٠٥٧، ١٠٦٢)، والشمائل المحمدية للترمذي، وكتاب (مع المصطفى ﷺ)، وكتاب (هذا رسول الله ﷺ).

ﭐللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح:١]، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل:١٢٧].

عِش حياتك العائلية برضا وطمأنينة، وعش برنامجك -إن كان تجارة أو صناعة أو دعوة أو إدارة أو ما شاء الله لك من الضرب في الأرض- هادئًا مطمئنًا مبتسمًا صابرًا.. وإياك والتردد أو الالتفات أو الإصغاء لأصوات التثبيط والاسترخاء.

٤- لا يجرمنك الشنآن والاستخفاف أن ترد حقًّا، أو تقول باطلًا، أو تصِرَّ على خطأ، فاجعل المراجعة والتصحيح دأبك، ولو بعد زمن، فالكثيرون قد ينتقدون ظاهر القول، ولا يدركون أبعاده، لكن قد تجد مَن يُبَصِّرك بمعنًى غاب عنك، أو يعينك على تحقيق الاعتدال والتوازن والتوسط في نظرتك للأمور، وجزى الله الأعداء عنا كل خير، فلولاهم ما نزلنا منازل القرب، ولا حللنا حظائر القدس، كما كان يقول بعض السلف(١).

٥- تذكر أن لك ذنوبًا أمثال الجبال، من نظرة حرام أو كلمة أو غفلة أو ما شابه، وأن الله تعالى بلطفه يختار لك الأسهل والأيسر من أذى الدنيا؛ ليكون كفارة لخطيئة أو رفعة لدرجة أو بلوغًا لمنزلة، ما كنت تبلغها بعملك الصالح، فقيَّض الله لك مَنْ هُمْ في الظاهر مناوئون، وهم في الحقيقة مساعدون، ومنحك الأجر والثواب.

وليس بالضرورة أن يكون الأجر من حسناتهم؛ ففضل الله عظيم، وقد يمنح أحدَهم فضلًا بصدقه ولو كان غالطًا، ويمنحك أجرًا بصبرك، فلا تجعل رفعتك على حساب الآخرين.. وأكثر من الاستغفار؛ فـ «مَنْ لَزِمَ

---

(١) ينظر: مجلة المنار (٤/ ١٢١).

الاستغفارَ، جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فرجًا، ومِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخرجًا، ورَزَقَهُ مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِبْ»[1]، والله مع الصابرين.

الشيء اللافت، أنه مع تفاقم الأزمات -كما يحدث في غير موقع من بلاد المسلمين- ترتفع وتيرة الغضب، ويحتدم لدى أقوام لا يجدون وسيلة إلا الشتم.. ويا ليتهم يشتمون العدو، إذًا لهان الخطب..! ومن قبل قال الأعرابي: أَوْسَعْتُهم سبًّا، وأَوْدَوْا بالإِبلِ[2].

لكنهم يشتمون بني جِلدتهم، ومَن يخالفونهم، ومَن يقابلونهم، ويشتمون أهاليهم وأُسَرَهم وأزواجهم.

وعذرُهم: أنهم (مقهورون)!!

نعم مقهورون..!!

يقهرُك العدوُّ، فتجعل غضبك في الصديق والحبيب والأخ والقريب..!!

وقد نعتبر هذا جزءًا من التفاعل مع الأزمة، وكأن مَن ينهانا عن الشتيمة، ينهانا عن نصرة المظلومين..!!

بينما نحن صنعنا بشتيمتنا مظلومين آخرين، وقعوا ضحية عدواننا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

●●●●

---

(١) رُوي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩)، وغيرهما، وفيه ضعف.

(٢) ينظر: الأمثال لابن سلام (ص٦١)، والمستقصى في أمثال العرب للزمخشري (١/ ٤٣١)، والعقد الفريد (٣/ ٥٧).

«بمقدورك ألَّا تُحِبَّ الظروفَ
الصعبةَ، لكن ليس عليك أبدًا أن
ترفض التعامل الإيجابي معها!».

توظيف النص

توظيف النص

....

* ضاق ذرعًا بامرأة كانت تدير حوارًا، كان هو أحد المشاركين فيه اضطرارًا؛ حيث تدخَّلتْ في التفصيلات، وتحكَّمتْ في الوقت، وفي مواقع الجلوس، وأعلنتْ مبكرًا عن أدلجة مكثفة، ناءت بها لغتها التي تحاول أن تكون فصيحة.

وحين جاء دوره في الحديث؛ كان أول ما قال: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[1]!

ليس الحديث عن الحديث، وإنما عن المناسبة، وهل نحن هنا ننتقم لأنفسنا بتعريض سنة سيدنا محمد ﷺ للهجوم والانتقام أو الانتقاص؟!

* غاضب زوجته واحتدم الجدال، وكلمة من هنا وكلمة من هناك؛ ليجترَّ النصوص الشرعية إلى صفه؛ قائلًا: نعم! لا غرابة، أنت ناقصة عقل ودين،كما قال محمد ﷺ!!

وما قال رسول الله ﷺ لأزواجه يومًا مثل هذا القول، ولا عيَّر به أو سبَّ، ولا ساقه في مقام الانتقاص، بل جعله كالمقدمة لمعنى جميل لطيف جذاب: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ»[2].

---

(١) كما في حديث أبي بكرة رضي الله عنه: أخرجه البخاري (٤٤٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولو حذفت هذه الجملة؛ لكان المعنى صحيحًا: «مَا رَأَيْتُ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ». فهي أشبه بجملة معترضة؛ كما يقول النحاة، ولكن مناسبتها أن الرجال الألبّاء العقلاء تغلبهم ذات العاطفة الجياشة والحنان الفيّاض والأنوثة القاهرة، ويقع هذا للملوك والعباقرة، وقادة الجيوش ورجال الأعمال والمال، ولأكثر الناس شدة وبأسًا!

وهذا معنى واضح، إذا لم نسمح لأنفسنا باستخدام الأقواس، واجتزاء الكلمات والعبارات، وعزلها عن سياقها اللُّغوي، وعن مناسبتها الواقعية.

* اختلف معه صديقه وابن عمه وجاره، حول قضية مالية وشراكة دنيوية؛ آلت إلى كساد وبوار، وضاع المال، وتبخَّرت الأحلام الوردية، واحتدم الألم، وحين جمعتهم مناسبة عائلية، وحان وقت الصلاة؛ تقدم، وكيف لا يتقدم وهو خِريج الشريعة، ليصلِّي بهم، ويقرأ في الركعة الأولى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

ويقرأ في الركعة الثانية: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [الفيل:١]، ولسان حاله يهدد ذلك المأموم، الذي داهمه الحزن والهم والغم في قضية منظورة عند المحكمة؛ تحولت إلى خصام ديني، يستقوي فيه أحد الخصوم على صاحبه القديم، بآيات تُتلى لم تنزل بخصوص هذه المسألة، ولا أحل الله لنا أن نوظِّفها في خصومة شخصية، أو وجهة نظر خاصة، ولا نزلت لتكون مدعاة للتنافر والتنائي؛ بل لتهدئة النفوس الثائرة، تخفف لوعة الحزن على ما فات، أو الخوف على ما هو آت.

وحين انفتل من صلاته كانت فرصة لوعيد أولئك الذين يصلُّون، ولا

تزيدهم صلاتهم إِلَّا بعدًا -وهذا المعنى لا يثبت عن النبي ﷺ[1]- وعن الذين يأخذون أموال الناس تحت ذرائع باطلة، وعن.. وعن..

إنه ليس من أمانة العلم أو الديانة أن أجعل ما رزقني الله من القرآن أو الحديث وسيلة لكسب معركة مع آخرين، وأن أتعزَّز به ضدهم، وأن أشيح[2] النظر عما يُحْدِثه هذا في نفوس كثير من الضعفاء وقليلي المعرفة بالنصوص أن ينكروا النص وهو صحيح، أو يسبوا، أو يبغضوا..

وقد قال لنا الحكيم العليم جل وتعالى في شأن المشركين وآلهتهم: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام:١٠٨].

إن القلب المشفق لا يغفل أبدًا عن المهمة الرسالية، والأمانة التبليغية، وضرورة تحبيب الناس بالدين وبالرسول ﷺ ورب العالمين جل وتعالى، ومن لوازم ذلك ومقتضياته، أَلَّا توظف المعاني المشتركة في خصومات شخصية أو خاصة، وأَلَّا يتمَّ تقديم الحقائق الإيمانية في جو الصخب والمجادلة واللجاج، وصدق الله القائل: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤].

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم في التفسير (٩/ ٣٠٦٦)، والطبراني في الكبير (١٠٨٦٢)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٤٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «مَن لم تنهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمنكر؛ لم يزددْ مِنَ اللّه إِلَّا بُعْدًا». وفي حديث آخر: «... فلا صلاةَ له». وينظر: السلسلة الضعيفة (٢، ٩٨٥).

(٢) أي: أُعرِض.

«أن تكون مخلصًا لإيمانك، يعني: ألَّا تحوِّل خصومَك الشخصيِّين إلى خصوم للإيمان ذاته».

التترس بالنص

التترس بالنص

طرحتُ ذات يوم فكرةً خَطَرَتْ، هي إلى الظن أقرب منها إلى اليقين، واقْتَرَح عليَّ أحد الفضلاء أن أعزِّز هذه الفكرة بالبحث عن نصٍّ شرعيٍّ يساندها؛ حتى يمكن مرورها وتقبّلها.

ودون شك فالنص المحكم (قرآنًا، أو سنة صحيحة) هو محل قناعة كلِّ مؤمن، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فالمؤمن إذا فهم النص فهمًا علميًّا صحيحًا؛ انقاد لهذا المفهوم وسلَّم له، وبنى عليه، فهو حقيقة علمية لا تحتاج إلى استدلال آخر، بعد ثبوتها بأقوى الأدلة (الوحي)، وإن كان الحق يقوى بتضافر الأدلة وتكاثرها.

وإن لم يفهم معناه، أو لم يجزم به، آمن به إيمانًا إجماليًّا على القاعدة التي كان يقولها الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «آمنْتُ بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنتُ برسولِ الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله»[١].

بيد أنني أشير إلى فارق كبير بيننا وبين سلفنا في تعظيم النَّص:

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥٤)، وذم التأويل (ص:٩، ٤٢)، ولمعة الاعتقاد (ص:٤)، ومعارج القبول (١/ ٣٦٥).

كان السلف يعظِّمون النص في قلوبهم، حتى إن أحدهم لا يتجرأ على أن ينسب اجتهاده لنص؛ خشية أن يكون الخلل في فهمه هو، فيبقى النص متعاليًا ساميًا، ما دام أن المسألة فيها أخذ وَردٌّ.

وأحيانًا يكونون أكثر صراحة؛ فيشيرون إلى أن رأيهم أو موقفهم هو رأي أو اجتهاد وليس أكثر.

وحتى حين يكونون بحاجة إلى «دعم النَّص» لهم، أو أن يتترَّسُوا بالنص في مواجهة خصوم أو أعداء فكريين أو مَيدانيين، كان إيمانهم العظيم، وأمانتهم التَّامة، وصدقهم الصارم، لا يُنسِيهم التفريقَ بين النص والرأي والاجتهاد.

حتى إن عليًّا ﷺ كان يصرِّح في مواجهة مَن يزكُّون اجتهاده وعلمه، وينسبونه إلى الوحي ويقول: «والذي فَلَقَ الحبةَ وَبرَأَ النَّسَمَةَ، ما عندنا إلا ما في القرآن، إلا فهمًا يُعْطَى رجلٌ في كتابه، وما في الصحيفة.. وفيها: العقلُ، وفكاكُ الأسير، وأن لا يُقتلَ مسلمٌ بكافر»[1].

وبشكل أوضح وأصرح وأدل على المعنى المقصود يقول قيس بن عُباد: قلتُ لعليٍّ ﷺ: أخبرنا عن مسيركَ هذا، أَعَهْدٌ عهدهُ إليك رسولُ الله ﷺ، أم رأيٌ رأيتَه؟ فقال: «ما عهد إليَّ رسولُ الله ﷺ بشيء، ولكنه رأي رأيتُه»[2].

كان علي ﷺ بأمسِّ الحاجة إلى التترس بنص أو مفهوم نص، أو شبهة نص، أو الاتِّكاء على فهم فهمه هو، وهو الذي أُعطي فهمًا في كتاب الله، ولن يعجزه أن يجد في عمومات النص ودلالاتها ما يعزز موقفه، وأن ينزِّل آيات

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٠٣).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٧١)، وأبو داود (٤٦٦٦) بإسناد صحيح.

السمع والطاعة لصالحه، وآيات النفاق والتردد والتراجع ضد خصومه، وآيات الجهاد؛ حتى لا تكون فتنة لتسويغ اجتهاده..

ولكن عظمته ﷺ، ومسؤوليته عن البلاغ، وكمال تجرُّدِه، وإخلاصه لربه، ووفائه لرسوله ﷺ، جعلتْهُ يعلِنُهَا صريحة، أن الأمر رأي واجتهاد، وليس يتكئ على نص صريح في المسألة.

وهذا بخلاف كلامه بشأن الخوارج، فقد قال: «وَاللهِ مَا كَذَبْتُ، وَلَا كُذِبْتُ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، وأشار إلى حديث ذي الثُّدَيَّة، وهو في «صحيح مسلم»[1].

حين يتكلم المرء في قضية أصلية عامة كمبادئ الأخلاق، أو أصول الإيمان، أو كليات الديانة، أو مواعظ التقوى؛ سيجد الكثير من النصوص التي تعضد ما يقول، وإيرادها تعزيز للمعاني الصادقة في نفوس المتلقين، وحين يتحدث في مسألة فقهية خلافية؛ سيجد أقوالًا ونصوصًا تؤيد هذا القول، وأخرى تؤيد القول المقابل، وهي مترددة بين ناسخ ومنسوخ، وخاصٍّ وعام، وصريح وغير صريح، وصحيح وضعيف، وهذا عمل الفقهاء في البحث والتحرِّي والاجتهاد، ودراسة مثل هذه المسائل تربي الإنسان على الهدوء والرويَّة، والنظر في أدلة المخالفين وأقوالهم، وتقوِّي لديه جانب المعذرة وحسن الظن بالآخرين، وعدم الاعتداء المفرِط بالقول أو الرأي، وكان الشيرازي يقول: (إن الفقيه كلما اتسع علمه كثر تردده).

بيد أننا حين نتحدث أو نكتب عن مسألة اجتهادية، أو نازلة واقعية، أو فكرة قابلة للأخذ والرد؛ علينا أَلَّا نغلق الأبواب دون مناقشتها، والحوار الموضوعي بشأنها بمحاولة تسويرها بنص يمنع ملامستها أو الاقتراب منها.

---

(١) صحيح مسلم (١٠٦٦).

إن أكثر الناس تعصبًا لآرائهم، هم أقل الناس تعقُّلًا وحكمة، والعصبية تحمل المرء أحيانًا على تحصين قوله بدَعْوى إجماع، أو بظاهر نص، أو بوعيد المخالفين، وقد يبدو له أنه مهموم بـ «تعظيم النصوص» ولو قرأ نفسه جيدًا؛ لأدرك أن المسألة فيها «تعظيم النفوس»، وهو وإن كان ممن يُرجى له الأجر بظاهر نيته، إلَّا أن هذا لا يمنع من تنبيهه ودعوته إلى التيقظ بشأن الدوافع الخفية، والتي من أعظمها التعصب.

التعصب الذي يجعلنا نتراشق بقوارع الألفاظ في منتديات الحوار، ولا نملك أنفسنا عند الغضب، ونجلد أحبابنا بسياط لاذعة من حَوادِّ الكلم وقوامعه.. لأننا لا نملك إلَّا الألفاظ والكلمات.

ويوم يكون بيدنا غيرها؛ فلن نتردد في استخدامها منطلقين من قناعتنا المطلقة، بأن كل ما نحن عليه فهو صواب، أي في إحساسنا الخفي بالكمال الموهوم، وتزكيتنا الفعلية لمقاصدنا ونوايانا، وسوء ظننا بغيرنا، ممن قد يكون أعلم أو أتقى أو أحكم.

نحن نتقاتل في الصومال وغير الصومال قتال المستميت، وكل طرف يرى أن معه الحق، ومعه النص ومعه الإجماع، وأنه المنصور، ومستعدون لأن نتقاتل ثلاثين سنة أخرى أو أكثر، ونهلِكَ الحَرْث والنَّسْل، وندمِّر الأمن، ونيتِّم الأطفال ونرمل النساء بأيدينا، لا بأيدي الشيوعيين ولا الصليبيين، نعم سنتأول أن كل طرف مدعوم من هؤلاء أو أولئك، بيد أن الحقيقة هي أن العصبية العمياء، والادِّعاء المفرط في الحق، وقلَّة الخبرة في الحياة، وضعف المعرفة بالسنن الإلهية والنواميس الكونية؛ تفضي إلى مثل هذا وأشد.

وما الصومال إلا حلقة جديدة في سلسلة طويلة من التطاحن اللفظي أو العسكري.. فاللهمَّ اهدِ قلوبنا، وسدِّد ألسنتَنا، واكفِنا شرَّ نفوسِنا الأمَّارةِ بالسوء، وشرِّ الشحِّ والهوى، والحمد لله على كلِّ حال، ونعوذ بالله من حال أهل الضلال.

●●●●

«الإلف الاجتماعي لا يجدر أن يكون سببًا في التشبُّع بفكرة، ولا يكون سببًا في رفضها».

سهو الفكر

سهو الفكر

صلَّى الوليدُ بنُ عقبةَ بالناس الفجرَ، فصلَّى أربعًا، وكان ثَمِلًا[١]، ثم التفت، وقال: أزيدكم؟ فقال له ابن مسعود ﷺ: «ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة»[٢]!

شَهِدَ الحُطَيئَةُ يَوْمَ يَلقى رَبَّهُ ... أَنَّ الوَليدَ أَحَقُّ بِالعُذرِ
نادى وَقَد كَمُلَت صَلاتُهُمُ ... أَأَزيدُكُم ثَمِلًا؟ وَما يَدْري
لِيَزيدَهُم خَيرًا وَلَو قَبِلوا ... لَقَرَنتَ بَينَ الشَّفعِ وَالوَترِ
فَأَبَوا أَبا وَهَبٍ وَلَو فَعَلوا ... زادَت صَلاتُهُمُ عَلى العَشرِ
كَفُّوا عِنانَكَ إِذْ جَرَيتَ وَلَو ... خَلَّوا عِنانَكَ لَم تَزَل تَجري[٣]

وصلَّى بنا المؤذنُ ذات يوم، فقام إلى خامسة، وقام الناسُ معه، حتى إذا قضى شطرًا من ركعته، تجرَّأ رجل فسبَّح، فضجَّ الناس بالتسبيح، فقعد

---

(١) أي: سَكِر وأخذ فيه الشَّراب.

(٢) أخرجه عمر بن شبة في تاريخ المدينة، كما في الاستيعاب (١/ ٤٩٢)، وتهذيب الكمال (٣١/ ٥٧).

وأخرج مسلم (١٧٠٧/ ٣٨) أنه صلَّى الصبح ركعتين، ثم قال: أزيدكم... دون قول ابن مسعود ﷺ.

(٣) ينظر: ديوان الحطيئة (ص٢٣٧).

وسجد للسهو، وسلَّم.

تساءلتُ: لماذا سكت الناس، ثم سبَّحوا جميعًا حين سمعوا الرجل يُسبِّح؟!

والسبب أنهم كانوا غير جازمين بالسهو.. بل هم يظنون أو يتردَّدون أو يتساءلون.. حتى إذا سبَّح رجل جاء على ما في نفوسهم، فشجعهم على التسبيح؛ لأنه كان جازمًا، وعزيمته تعززت بموافقتهم له.

وربما سبَّح رجل، فسكت الناس، ولم يسبِّحوا معه؛ لعدم ورود الظن عندهم، فسكت هو، ومضى الإمام في صلاته.

هذا في الصلاة وسهوها، ولعله يصح أن يقال في سهو الفكر والعمل نحو هذا؛ فإن الناس يكونون على رأي سائد، لا يجرؤون على مراجعته أو فحصه، يهرَمُ عليه الكبير، وينشَأُ عليه الصغير، فإذا تجرأ أحد ونقده، وكان لهذا النقد نصيب من النظر والصدق، وجدت مَن يقول له: سبحان الله، صدقني هذه الفكرة كانت عندي، ولكنني كنتُ متردِّدًا في عرضها، متخوفًا من رفضها، متهيبًا، خجولًا، فلما سمعتُها منك تعزز عندي صوابُها.

وقد يقول أحدٌ رأيًا أو اجتهادًا فيمحوه الزمان، ولا يلتفت إليه أحد؛ لعدم توفُّر الأدلة عند السامعين على صحته، إما لعدم وجود الأدلة أصلًا، أو لعدم إطلاعهم عليها.

وهذا يفسِّر انتشارَ قولٍ ما في زمان، وضُمورَه في زمان آخر، فالعبرة بقادة الرأي والفكر متى كانوا متصفين بصفتين:

أولاهما: الرِّيادة التي تقتضي عدم الركون إلى المألوف، وعدم الثورة على المألوف، بل الإلف ينبغي ألَّا يكون دافعًا إلى الرفض، ولا إلى

القبول بذاته في مجال الأفكار والآراء.

والتمرُّد على المألوف لكونه مألوفًا هو منبوذ، كقبول المألوف لكونه مألوفا، كلنا يتأثر بالإلف، لكن علينا التيقُّظ لهذا التأثر، وتقليل حدته سلبًا أو إيجابًا.

الثانية: الجرأة في العرض والتغيير التي لا يعني الانقلاب الفوري، ولا تعني الذوبان، حتى إن بعض أهل الرأي والفكر قد يضعف إيمانه بفكرته أو يموت؛ لأنها ليست فكرة حيوية مؤثرة، وصاحبها يائس، لا يزيد على همس في أذن قريبة.. يتبعها تحذير..

حتَّى صَدَى الهَمَسَاتِ غَشَّاهُ الوَهَنْ   لا تَنْطِقُوا؛ إنَّ الجدارَ له أُذنْ[1]

أنبياء الله ورسله جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير، ودَعَوْ ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، وصبروا وتلطَّفوا، ولم يحملهم عنف المخالف على تجاوز ما أُمِروا به، ولا استفزَّهم جَلَب الخصوم، وكان خاتمهم محمد ﷺ الأسوة في ذلك في تحرير العقول وكشف الظلمات عنها، ورسم الإطار المحدد لأدائها، وقد قال له ربه: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٥-٣٦]. صدق الله العظيم.

●●●●

---

(١) ينظر: ديوان هاشم الرفاعي (ص٣٨٧).

«خوض المعارك يمنح المقاتِل الرضا الوقتي، ولكنه يحرمه من النتيجة التي يتوخَّاها».

وإذا قلتم فاعدلوا

وإذا قلتم فاعدلوا

لقد وضع الإسلام قواعد أخلاقية مهمة للحكم على الناس والأشخاص، ولتحرِّي قول العدل فيهم، بدءًا من النفس، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [المائدة:١٠٦]، ثم المختلف والبعيد، حتى للمجافي المبغض، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ [المائدة: ٨]، بل أوجب الله العدل مع أولئك المشركين المخالفين الذين أخرجوا رسول الله ﷺ ومن معه من ديارهم، وصدُّوهم عن المسجد الحرام، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، وحتى الذين يقاتلون المسلمين أمر الله برد ظلمهم، وقتالهم، ونهى عن الإسراف والاعتداء فيه؛ لأن ذلك نقيض العدل: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

فقول العدل أساس محكم من قواعد الحكم على الناس في الإسلام، أوجبه الله مطلقًا، في كل الظروف والأحوال والأشخاص، للمتفق

والمختلف، والـ (أنا) والآخر، والمسلم والكافر، في كلِّية من الكليات، أو جزئية من الفرعيات، يقول ابن تيمية رحمه الله: «إن العدل واجب في كل أحد، على كل أحد، في كل ظرف، وكل مكان وحال، والظلم محرم من كل أحد، على كل أحد، في كل ظرف، وكل مكان وحال»[1].

ومن معالم العدل في الحكم على الناس: تجنب الإجمال والتعميم؛ فأحكام الجملة تُخْفِي في طياتها الكثير من الاختلافات والفروق الداخلية التي قد لا يعتبرها القائل، فالمسؤولية الفردية في الإسلام تجعل المسلم مسؤولًا بشكل مباشر عن قوله ورأيه وحكمه واعتقاده هو، وليس رأي جماعته أو قبيلته أو حزبه، أمام الناس وأمام الله، في الدنيا والآخرة، يقول الله جل وعلا: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء:١٣]، ويقول سبحانه: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور:٢١].

وأمر الله معاملة الناس بالحسنى؛ ليكون أقرب للعدل معهم، وفيهم، وشرع الموعظة الحسنة والكلمة الطيبة، يقول تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء:٥٣]، وجعل الدعوة بالحسنى، يقول تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥]، وأمر بالقول الحسن العدل في الناس كلهم جميعًا، يقول الله تعالى: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣]، وهذا المعنى يزرع في عقل المسلم وعلاقته مع الآخرين

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١٩/ ٤٤).

روح العدل والاعتدال والإنصاف، وجعل الله علة إرسال الرسول محمد ﷺ: الرحمة للعالمين كلهم، يقول سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فالرحمة خلق عظيم يتحلّى به الرسل وأتباعهم الذين ورثوا دعوتهم وأخلاقهم ورحمتهم، ولذلك كان من صفات أهل السنة والجماعة أنهم أرحم الخلق بالخلق، وكلما اقترب المسلم من نور الله وهديه وصراطه المستقيم، اتصف بجميل الصفات، ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾. [الفاتحة: ٣-٦].

وليس من الحق في شيء الاعتداء على الناس بالقول، ورجمهم بالظنون، والظن الآثم سبيل الظالمين في القول، يقول تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴾ [النجم:٢٨]، ويقول سبحانه: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٣]، ويقول الله عن المعاملة بالظن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ ﴾ [الحجرات:١٢]، وأكثر البغي باللسان مبعثه الظنون الواهية، والانطباعات العامة التي لا يملك الإنسان لها دليلًا، ولا يستطيع أن يقيم عليها حجة.

ذكر ابن تيمية رحمه الله أنه ينبغي أن يؤخذ المبتدع والمخالف بالرحمة والإحسان، لا بالتشفّي والانتقام[١].

والمخالف في الجزئيات أو الكليات، ينبغي أن يتعامل معه بالحسنى للعمومات السابقة، ولمحكمات الأخلاق الإسلامية، وثوابت الأوامر

(١) ينظر: منهاج السنة النبوية (٥/ ١٦١).

الربانية، فحتى العدوُّ، الأصل في معاملته الإحسان؛ لتسكين ثائرته، وتقريبه للحق، وتسهيل معرفته واقتناعه.. وهذا من أنبل الأخلاق، ومن أعلى سمات الشرف في الخصومة؛ فالمنافق هو الذي «**إِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**». كما أخبرنا نبينا محمد ﷺ[1].

يقول الله عن معاملة (العدوِّ): ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥].

أما صناعة العداوة «الاستعداء» بالبغي باللسان، وتصعيد الاعتداء بالتزام السب، واستغلال الأخطاء وتضخيمها، بل والأسوأ استغلال آيات الدين وأحكامه، وكلام أئمة المسلمين وتراثهم؛ لتبرير الاعتداء القولي، فذلك ظلم رخيص مهما تذرع بأشكال الحق، وأظهر التجرد والنصيحة في الخلاف، ولقد حذّرنا الله من انحرافات واختلافات أهل الكتاب، الذين اتخذوه هزوًا بالاختلاف حوله والبغي فيه والظلم للناس، وتشريع ذلك كله بهذا الكتاب وهذه البينات، في غفلةٍ عن الأدواء الداخلية الضاربة الجذور، والأهواء الخانسة كما تخنس الشياطين، يقول الله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

وكلما ابتعد الناس عن خلق الرحمة، اقتربوا من ضروب البغي

---

(١) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

والاعتداء بالقول، ونسوا قوانين الإسلام في التعامل مع الموافق والمخالف بالحسنى، وبدأوا يميلون إلى المبادرة بالظلم والبداءة بالاعتداء القولي، الذي نهى الله عز وجل عنه في محكم كتابه.

ولقد كانت من الوصايا العظام التي جاءت بها الشريعة، ومن المحكمات الثابتة التي قررها الإسلام: تلك الآيات الثلاث والوصايا العشر في سورة الأنعام، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢].

●●●●

«النقد تَبِعَةٌ ضرورية لكل مَن يعمل شيئًا يَهُمُّ الآخرين».

مقدمة في منهج النقد (١)

مقدمة في منهج النقد (١)

....

هذا حديث يستقرئ أصول منهج النقد والحوار الذي يجب أن نتمثله في التعامل مع الآخرين، حين ندرك أننا جميعًا نقف تحت سقف الطبيعة الآدمية، وهي طبيعة ذات تكوين مركب من نواميس مختلفة، فيها: العاطفة، والأَثَرَة، والطغيان، والهلع، وحب الذات... إلى غير ذلك، جملة من الكمالات، وجملة من النقائص، يدور بينها حركة صراع، وربما حوار -أحيانًا- في هذه الدائرة (النفس الآدمية) التي ألهمها خالقها فجورَها، وتقواها.

إن منهج النقد، والمراجعة يتمثل قَوامُه في تحقيق قاعدتين:

الأولى: الأخلاق.

الثانية: المعرفة، والعلم.

وربما كان من الأوليات احتياج النقد والحوار إلى العلم والمعرفة، فحين تتخلف هذه القاعدة، فلست تستطيع أن ترى قيمة للنقد، لكن ربما كان من غير الواضح -عند كثيرين- أن الأخلاق هي القاعدة الأولى في هذا المنهج.

صحيح أن فضيلة الأخلاق من أوَّليات الحقائق، ويشعر الجميع

بأهمية التعامل الأخلاقي، لكن قد يكون الإشكال ناتجًا عن فهم الأخلاق نفسها، كما أنه ينتج عن تقدير مرتبة الأخلاق، وعلاقتها بالنقد والحوار.

إن النقد والحوار حين يتجرَّد عن أنظمة الأخلاق والعدل؛ فإنه يتحول إلى معارك بشرية مفتوحة، تمارس قوى الشرِّ الكامنة في النفس البشرية حركتها الطاغية في هذه المعركة باسم العلم، أو الدين، أو الحقوق.

ومن انحراف أهل الكتاب: أنهم اتخذوا العلم بغيًا بينهم؛ ولهذا كان تكليف الشريعة لأهل الإسلام: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

إن مَن لا يعرف تحصيل الحق إلَّا بتحصيل التفريق فيه لأهل الإسلام، فليس فقيهًا في الشريعة، وكذا مَن لا يعرف تحصيل الاجتماع إلا بعدم تحقيق الحق والعلم الذي بعث به الرسول ﷺ، فليس فقيهًا أيضًا.

لئن كنا نتكلم كثيرًا عن حفظ الثوابت؛ فإن الأخلاق رائدة في هذه الثوابت، ولئن كنا نتحدث عن حفظ ثوابت علمية؛ فإننا يجب أن نتحدث عن حفظ ثوابت الأخلاق.

إن الأزمة التي تواجه الأمة اليوم، كما أنها تتمثل في غياب العلم والمعرفة؛ فهي تتمثل بصورة مماثلة -على أقل تقدير- في غياب الأخلاق بمفهومها الشامل.

فالأزمة اليوم تتمثل في الأخلاق، أكثر منها في العلم والمعرفة.

إن فقد الوعي بالقيم الخُلُقية من أكبر التحديات التي يجب أن تُسخَّر مشاريعُ دعوية وإصلاحية لمعالجته، بل من حسن الاستقراء والترتيب أن العلم والمعرفة هي المنتج الأول للأخلاق، ومع هذا كثيرًا ما تبدو

الأخلاق أكثر غائية مِن العلم الذي ينتجها.

حينما يعيش المجتمع فقدان الوعي بالنظام الأخلاقي، فهو يعيش في تخلف؛ يطيح بالكرامة الربانية لبني آدم إلى سقوط في أسفل سافلين.

إن تاريخ الأمم بأخلاقها، وزوال الأمم نتيجة زوال هذه الفضيلة (الأخلاق)، والأخلاق ليست هي الرغبات البشرية في مجتمع ما، بل هي رسالة إلهية، وبُعث محمد ﷺ ليتمِّمَ صالح الأخلاق، كما لَخَّص ﷺ مقاصد بعثته في الحديث الصحيح[١].

ثمة ثوابت خُلُقيَّة فطرية أولية؛ جاء الرسل ليحكموها، ويكملوا رسالة الأخلاق، وهنا ندرك أنها منهج رباني؛ أصوله فطرية، وتمامه نبوي رسالي، والحضارة الغربية المعاصرة تحكم قانون الأخلاق حكمًا بشريًّا.

ومن هنا عُرف في فلسفات الغرب: (الفيزياء الخُلقية)، أي: أن الأخلاق محكومة بنفس طريقة قوانين الحياة الفيزيائية.

إن الأخلاق منهج لا يؤَهِّل مجتمعٌ لصياغته صياغة عادلة، بل لا بد من كونه رسالة إلهية، وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها: «كَانَ خُلُقُ رَسُولِ الله القُرْآنَ»[٢].

الحديث عن الأخلاق رسالة راقية، ومنهج أصيل، وفي هذه المقدمة وقعت هذه الإشارة تحت حديث عن منهج النقد والحوار؛ لأن الأخلاق أخص قواعده، وهنا ننتقل إلى عتبات هذه المقدمة، ومدخلها.

---

(١) كما في قوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ». وفي رواية: «صَالِحَ الأَخْلَاقِ». أخرجه أحمد (٨٥٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦٧٠)، والبيهقي (١٠/ ١٩٢)، وفي شعب الإيمان (٧٩٧٨).

(٢) صحيح مسلم (٧٤٦).

من نعم الله على أهل الإسلام أن هيَّأ لهم في كل زمان من تاريخ هذه الأمة رجالًا صادقين، يشاركون في صياغة ورقة الأمة، وخطابها أمام المجتمعات والأمم، وهذا التواصل في تاريخ الأمة رائده هم العلماء والمصلحون القائمون في هذه الأمة مقام الأنبياء في بني إسرائيل، كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي «الصحيحين» مرفوعًا: «**كانَتْ بَنُو إِسْرَائيلَ تَسُوسُهُم الأنبياءُ**[١]**، كلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلفَه نبيٌّ، وإنَّه لا نبيَّ بَعدِي...**»[٢].

وهنا من الحقائق اللازمة أن يكون في الأمة علماء ودعاة ومصلحون، لهم قدر من المصداقية والقوامة؛ لضبط مسيرة العلم والأخلاق داخل الأمة، وليتحدثوا عن مشروع الأمة الحضاري مع الأمم والمجتمعات في هذا العصر الذي شهد تحديات كبرى، لم تصادف الأمة في تاريخها ما هو مثلها.

وفي «الصحيح» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، مرفوعًا: «**وإنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا في أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاءٌ، وأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا**»[٣].

وهنا تكون الحاجة إلى التناصح بين طبقات الأمة أشدَّ إلحاحًا، ويفترض أن يكون رجال الأمة الصادقون من العلماء والدعاة والمصلحين متمتعين بقدر من القيمة التي تؤهِّل رسالتهم للمصداقية والتقدم، ويجب أن تكون الرحمة والعفو من أساس أخلاقياتهم، وموازين تعاملهم، فليس الامتياز بأخذ الحقوق كاملة، وإنما بكرم الطباع وهدوء النفس، وتجاوز الشح:

---

(١) أي: يتولَّون أمورهم؛ كما تفعل الأمراء الولاة بالرعية.

(٢) صحيح البخاري (٣٤٥٥)، وصحيح مسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٤).

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

هناك رجال كثيرون في هذا العصر -الذي تواجه فيه الأمة ورقة التحدي الحضاري المتسلِّط- قائمون بالدعوة وحمل العلم.

ولئن كان الاستعمار أعلن تركه الديار لأهلها، فمن المؤكد -حتى عند الجماهير- أنه لم يكن صادقًا، هذا التحدي خلق شعورًا حادًّا عند ذوي المزاج الحاد طبعًا، ليس في دائرة العامة، بل حتى في دائرة الرموز العلمية والإصلاحية، وكان لهذا أثر في تناولهم لقضايا كثيرة في مشروع هذه الأمة العلمي والتربوي والاجتماعي والأخلاقي والسياسي والاقتصادي، فحينًا يصارعون هذا التحدي، وحينًا يصارعهم، وحينًا يفر منهم، وحينًا يفرون منه.

وهذا أوجد بعضَ الارتباك في الرؤية عند كثيرين، وربما تأثرت مناهجُ حضاريةٌ إسلاميةٌ بهذا التحدي، وقد شهد هذا العصر تأسيس جملة من الجماعات الإسلامية في ظروف لم تكن هادئة؛ مما سبَّب انعكاسًا داخل هذه الجماعات، بل كانت ظروفُ تأسيس الكثير منها معقدةً، كما أن مجموعة منها كانت حالات انشقاق عن جماعة (أم)، كما هو الشأن في حالات الانشقاق عن جماعة (الإخوان المسلمين).

لسنا نريد أن نقرأ التاريخ المعاصر، لكن من المهمِّ أن نتصور البيئة التي تشكَّل فيها العملُ الإسلامي الفكري والحركي؛ حتى نكون أكثر عدلًا في الوصف والنقد.

إن المراجعة والتصحيح، بل والرد على المخالف -حسب الأصول العلمية، والمقاصد الشرعية- أصلٌ خالدٌ في منهج هذه الأمة، وتاريخ

العلماء متواتر في تقعيد هذا الأصل واعتباره، ولقد كتب كبار المحدثين والفقهاء، وغيرهم في المراجعة والتصحيح، والناظر في كتب الرجال، أو كتب العلل، أو كتب الفقهاء، أو أهل الأصول، بل وحتى السير والتاريخ، يرى داخل هذه التصانيف المراجعة والنقد والتصحيح، تارةً يضاف القول إلى قائله، وتارة يجرد عنه، فضلًا عن كتب الرد التي صنَّفها علماء السنة والجماعة في الرد على أهل الانحراف والبدع والحوادث في أصول الدين، كالرد على الجهمية للدارمي، والبخاري، والإمام أحمد. وكتب الرد على المعتزلة والباطنية والفلاسفة، وأصناف أهل المقالات.

ومن هذه الحقيقة العلمية والتاريخية، بل المنهج الشرعي المتقرر في نصوص الكتاب والسنة، رسم الإمام مالك بن أنس -إمام المدينة النبوية- محصل هذا المنهج بقوله: «كلٌّ يُؤْخَذ من قوله ويُتْرَك، إلَّا صاحِبِ هذا القَبْرِ»[1].

إنه ليس هناك أحد يتعالى قوله عن النقد والمراجعة والتصحيح في كل ما يقول؛ إلا رسول الهُدَى عليه الصلاة والسلام.

فالحوار العلمي المستنِد إلى الحجة مطلب يتفق عليه الجميع، لكن يجب علينا أن نرسم منهجًا لهذا النقد الشرعي العلمي، حتى لا يتحول إلى ممارسات واجتهادات خاصة، قد لا يحصل منها تحقيق للمصالح الشرعية التي هي مبنى تقرير هذا النقد والمراجعة.

وإن من الإيمان بهذا الأصل الشرعي العلمي المتقرر، أن نعي أننا

---

(١) ينظر: تلبيس إبليس (١/ ١٠٨)، والمدخل لابن الحاج (١/ ١٧٥)، وزغل العلم (ص:٣٣)، والآداب الشرعية (٣/ ١٩٠)، والزواجر لابن حجر الهيتمي (١/ ٥٩)، والمقاصد الحسنة (١/ ٥١٣)، وكشف الخفاء (٢/ ١١٩).

داخلون في هذا الإمكان، من حيث عدم حصول ما نقوله على الصواب المطلق، ما دام قولًا لنا، وليس تقريرًا للضروريات الشرعية، والضرورياتُ الشرعية ليست محلَّ حوار، فهي القدر المتفق عليه، والذي ينطلق منه الجميع، وقد يقع أن يُفرِّط أمرؤٌ فيما يراه، فيلحّ على إلحاقه بالضروريات؛ ليجعله في مأمن من المراجعة، ولئن كان الإمام مالك راجع الليث بن سعد، ومحمدُ بن الحسن كتب (الحجة على أهل المدينة)، وتكلم أحمدُ في مسائل لإسحاق، وتكلم الشافعيُّ في مقالات لأبي حنيفة، مع الامتياز العلمي والمنهجي لكل هؤلاء؛ فمن اللازم أن نكون واضحين في قبول مقالاتنا واجتهاداتنا للمراجعة والنقد.

وهذا ليس حرفًا يقال وليس شعارًا يرفع لمناسبة، بل هو موقف داخل النفس.

إن الجماهير التي تسمع وتقرأ للعلماء والدعاة والمصلحين اليوم، يجب أن تتربَّى على الحقائق، وليس على القول المجرد الذي لا يكون له وضوح عند التراجع والاختلاف.

حين نتحدث عن إشكالية كثرة الاختلاف في واقع الأمة اليوم: العلمي، والدعوي، ويطالب البعض بالتوحُّد تحت رأي وعمل واحد، فهنا نكون أمام إشكالية أعمق، هي الظن بأننا لا يمكن أن نهدأ إلا عند الاتفاق، أما في الاختلاف فلا سبيل إلى حفظ مقام الإخاء والحقوق.

إن الخلاف في المسائل الخلافية والاجتهادية ليس مشكلة تحتاج إلى حل، بل هذه التعدُّدية هي المتنفس في أكثر الأحوال؛ لاستيعاب التنوع العقلي والنفسي والاجتماعي والبيئي، بل والمتطلبات التي تواجه الأمة، فنحن ممن

يؤمن بالتعدد والتنوع، مع المحافظة على الأصول والثوابت الشرعية.

وحين نطمح إلى أن نشكِّل رؤية هادئة تربوية في نفوس الجميع، كبارًا وصغارًا، علماء وعامة، دعاة وجمهورًا؛ فنحن أمام مشروع له علاقة بالطبيعة النفسية والاجتماعية.

نعم، إن الإيمان بهذه الرؤية لا يواجهُ إشكالًا علميًّا أو شرعيًّا؛ فهي من حيث الجانب النظري مسلَّمة من المسلَّمات، لكنها من حيث الجانب التطبيقي تحتاج إلى عمق في الإيمان بأن دينِ الله يتعالى عن سلطة أحد من الناس، وإيمان بحقيقةِ النفس البشرية الخطَّاءة، الحقيقة التي نطق بها رسول الإسلام، كما في «السنن»: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ»[1]. ومن المهم أن نقرأ قواعد الشريعة بتعالٍ عن حظ النفس؛ لتطبيق هذه الرؤية، وتطبيعها كقيمة تربوية داخل النفس، وهي قيمة يحتاجها كل فرد في الأمة بلا استثناء، حتى الطفل، فيفترض أن يُعلَّم هذه الحقيقة كما يُعلَّم أوائل الكلام، لكن يجب أن يُدرك أنها قيمة للعدل، وليست نظامًا للجور والتسلُّط.

والطفل حينما يواجه الضرب، أو التعنيف لمجرد أن قال: (لا). أمام طلب من الأكبر منه سنًّا؛ فهو هنا يفهم أن (لا). تعني أن الأكبر يجب ألَّا يراجَع قولُه، ولا يُردَّ! هذا خلل في نظام التربية، والحق الفردي.

فهذه القيمة التربوية ليس أثرُها وإلحاحُها مقصورًا على العلماء والدعاة، ومَن يدور داخل هذه الدائرة، بل هي قيمة اجتماعية، حتى في أحاديث الحياة العامة.

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن عمر رضي الله عنه -في

---

(١) تقدم تخريجه (ص١٠).

سياق طويل- قال فيه: «فبينا أنا في أمرٍ أأْتَمِرُه، إذ قالت لي امرأتي: لو فعلتَ كذا وكذا. فقلتُ: ما لكِ أنتِ ولما ها هنا، وما تكلُّفُكِ في أمرٍ أُريدُه. فقالت: عجبًا لك يا ابن الخطاب! ما تريدُ أن تُراجعَ أنت، وإنَّ ابنتَكَ لتُراجعُ رسولَ الله ﷺ؟!»[١].

لقد كان رسولُ الهدى ﷺ يُرَاجَع في مسائل كثيرة؛ ليست من أمره الشرعي الذي قال الله فيه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: أمرني رسولُ الله ﷺ أن أذهبَ لحاجة، فقلتُ: لا. وفي نفسي أن أَذْهَب لِـمَـا أمرني به رسولُ الله ﷺ، وكنتُ واعدتُ ولدانًا من أهل المدينة نَلْعَبُ. قال: فأتاني رسولُ الله ﷺ وأنا أَلْعَبُ مع الغِلْمان، فأَخَذَني مِنْ خَلْفي، وقال: «يا أُنَيْسُ، اذْهَبْ حَيْثُ أَمَرْتُكَ»[٢].

وإذا كان هذا الهدوء يجب أن يكون ضرورة في النفس، فمن العدل: أن نعي أنَّ النفس تعرضُ لها أحوالٌ ذكرها الله في القرآن، لوَّامة تارة، وأمارة بالسوء تارة، فيجب أن تراجع إلى طلب تحقيق درجة الخير (النَّفسُ المُطْمَئِنَّةُ).

●●●●

(١) صحيح البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣١٠)، وأبو داود (٤٧٧٣) واللفظ له.

«إن تحطيمَ شخص ما، وحشد هفواته المزعومة لإعلاء شأن ذاتك، لهو أحطُّ أنواع الأنانية».

مقدمة في منهج النقد (٢)

مقدمة في منهج النقد (٢)

من الامتياز والفضيلة أن نكون قادرين على مراجعة أحوالنا وأقوالنا، قبل أو مع مراجعة الآخرين لها.

كثيرون يواجهون أزمة في التصور لبعض الحقائق الشرعية والعلمية؛ فيكون من الصحيح لديه أن يقول أو يكتب في مراجعة غيره، لكن حينما يقول غيره أو يكتب في مراجعة قوله والتصحيح له، فهذا غير مفهوم، وكذا أن يقول هو أو يكتب في المراجعة والتصحيح لنفسه.

هذه معادلة غير مؤهلة لِأَنْ تصنع رحمة في عالم الخلاف والتعدد القائم في الأمة اليوم.

قضى عمر ﷺ قضاءً في مسألة في الميراث، ثم رجع إلى ضد قضائه الأول، فقيل له، فقال: «ذلك على ما قضينا، وهذا على ما نَقْضِي»[1].

وكم سجَّل التاريخ رجوع الكبار من المحدثين والفقهاء، وعظماء الأمة عن مقالات ومسائل، بل ومواقف في العلم والدعوة والجهاد، وقضايا الأمة كلِّها.

فلماذا لا نستطيع أن نستوعب التفكير في مراجعتنا لمسيرتنا،

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٩٠٠٥)، وابن أبي شيبة (٣١٧٤٤)، والدارمي (٦٧١)، والدارقطني (٤/ ٨٨)، والبيهقي (٦/ ٢٥٥).

واجتهاداتنا الخاصة! مع كوننا ملحِّين ومطالبين بمراجعتنا لغيرنا، تارة في مسائل هي مما يسع فيه الخلاف والاجتهاد، ونجد أن مطالبتنا بمراجعة غيرنا هو تصحيح للأمة، وحفظٌ للدين وقوامة في الحق!!

قد يكون الأمر كذلك، وربما كان أسهل من ذلك، وننظر إلى مراجعة أحوالنا العلمية، والدعوية على أنها نوع من الاضطراب، وأصبح البعض منا يتربى على تمجيد البقاء، والإصرار على ما كان، فهو لا يستطيع أن يلتفت إلى الماضي؛ حتى لا يصادِر تاريخه، أو يحكُم على نفسه بالجهل.

إن المراجعة والتصحيح والرد في مسائل الاجتهاد العلمية والدعوية وغيرها، لا يرتبط بحركة الزمان، ولا بالحصول أو عدم الحصول، ولا بكونه يتعلق بالشخص نفسه أو بغيره.

إن هذه المعطيات ليس لها أثر، لا في الشرع ولا في العقل، ومع ذلك فهي تساهم في تشكيل رؤيتنا التطبيقية لمنهج النقد والمراجعة، وإن كنا نستطيع تجاوزها نظريًا.

إنَّ الحقَّ حقٌّ، أيًا كان زمانه أو قائله، كان أو لم يكن، والخطأ خطأ، أيًا كان زمانه أو قائله، كان أو لم يكن، مع أن الكثير من المسائل لا تتحمل الحسم المطلق؛ ففيها حسن وأحسن، وراجح ومرجوح، وقوي وضعيف.

نتحدث أحيانًا عن ذم التعصب والتقليد، وننقل الآثار عن الأئمة في ذلك، لكن ربما لا يدرك بعضُنا أن مِنْ أَخفى صورِ التعصُّب وأشدِّها تعويقًا للتصحيح العلمي والدعوي: التعصب للنفس.

وهذا الشكل من التعصب يقع غالبًا في دائرة اللاشعور، وهذا هو محك الأزمة، بل ترى مَن ينظر إلى هذا التعصب لنفسه وشخصه -مع شدة رفضه وطعنه على التعصب- على أنه يمارس تحقيق الفضيلة والتجرد للحق، فليس هو تبعًا لأحد، ولم يدرك أنه تبع لنفسه.

ثمت أشياءُ كثيرةٌ نجيد قراءتها وتصويرها داخل عقول ونفوس الآخرين، لكننا لا نتمتع بنفس القدرة حينما نحاول ذلك في نفوسنا وعقولنا.

إنه من خلال مراجعة مسيرة علماء الإسلام، مع كثرة التصانيف وتنوعها، ومع كثرة الخلاف والمذهبيَّات، ومع تداخل مادة العلوم، ولا سيما في القرون المتأخرة بعد عصر التأليف، ومع هذه المعطيات وغيرها لا نجد في تاريخ العلماء منهج الملاحقة للأخطاء، بل إما أن يرد كتاب بكتاب، أو قضية بقضية، أما استقراء الخطأ فقط في مصنفات يكثر فيها الخير والحق، فهذا لم يسلكه علماء الأئمة الكبار فيما أعلم.

لقد كتب أهل العلم مراجعات وتصحيحات، من غير إصرارٍ على ربط المراجعة والتصحيح بالشخص الذي يراد نقده، لأن ربط التصحيح بالشخص غالبًا ما يكون أزمة أخلاقية أكثر من كونه إلحاحًا شرعيًّا أوعلميًّا.

من الممكن أن نشاركَ في النقد والمراجعة والتصحيح، دون أن نستدني نواصي الأشخاص ونوقفهم أمام قضاءاتنا، وكأننا فقط القائمون بأمر الله، والغيورون على الحق، وحفظة الدين!

وأكثر المراجعات والتصحيحات في تاريخ علماء الإسلام لم ترتبط

بالأشخاص، بل بالقضايا والمسائل نفسها، وربما عرض ذكر لأعيان القائلين بها أحيانًا.

وحين نكتب ردًّا أو مراجعة، فمن الواجب -هنا- أن نتخلَّص من الشعور بالسلطة والحاكمية؛ لنكون أكثر عدلًا و هدوءًا، وندرك أن كثيرًا من مراجعاتنا لغيرنا هي نفسها مؤهلة للمراجعة والنقد، وأن لدينا الكثير مما يستطيع الآخرون أن يراجعوه، ويصحِّحوه لنا.

وحين نكتب في الرد على مَن خالف الأصول الثابتة، فلنعِ أن هذا الرد صوابٌ غير مؤهلٍ للمراجعة، ليس لأنه من إنتاجنا، أو امتيازٌ نحمله نحن فقط، بل هذا بسبب من القضية نفسها، وموقعها من الدين.

وحينما نكتب مراجعة أو نقدًا، فنحن أمام تحدٍّ نفسي معقد التركيب، حتى إن من غير المناسب أن نقول: يجب أن نتجرد من نفوسنا عند هذه الكتابة.

هذه محاولة نظرية غير ممكنة التطبيق، ولابد أن تشارك النفس بقدر ما في صياغة هذه المراجعة أو تلك، لكن من الضروري أن نعي إيحاءات النفس، وأن نلتمس لها أسباب الرحمة الإلهية: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف:٥٣].

فحقائق الطبيعة البشرية يجب أن تكون واضحة، ومعترفًا بها دون تردد.

وحين يذكر الله سبحانه حقائق هذا الجنس الآدمي يقول: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم:٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ﴾ [الانبياء:٣٧]، ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾

[النساء:٢٨]، ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]، إلى غير ذلك من الحقائق، وكذا في القول النبوي عن آدم عليه السلام: «أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالَكُ»(١). و«كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ»(٢).

فالقراءة في نصوص الكتاب والسنة عن هذه الطبيعة تمثِّل أرقى فهم لحقيقة النفس البشرية التي اضطرب الفلاسفة -من أحقاب تاريخية- في وصفها، وجاء فلاسفة العصر الحديث، وظلوا يمارسون قوانين التجربة على النفس البشرية، فصارت عندهم تحكم بقوانين حسب منطق الفيزياء، ويبقى ذكر الله ورسوله لهذه النفس، وطبيعة الإنسان هو الأنموذج الأول المتعالي على قوانين التطور العلمي، لكن لنعترف أن الإسلاميين لم يسجِّلوا إلى اليوم قراءة واعية لها واقع في مناهج التربية، مع أنهم يمتلكون هذه القواعد التي قررها القرآن والنبي الأمين ﷺ.

فالأمانة التي هي قوام العدل في منهج الرد والنقد والمراجعة تواجه إشكالية الطبيعة البشرية الإنسانية التي تخوض معها -أحيانًا- معركة صامتة، تقع غالبًا في دائرة اللاشعور: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢].

وكل تجاوز لقواعد الأمانة والعدل والصواب، فإنه نتيجة عن طبيعة الظلم أو الجهل، كما قرر هذا المعنى الإمام ابن تيمية عند هذه الآية(٣).

لذا؛ فإن تجاوز هذه الطبيعة يحتاج إلى قوام عدلي شرعي؛ ولهذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦١١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه (ص١٠).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٤)، ومنهاج السنة النبوية (٨/ ٢٠٦).

كان العلم الذي بُعث به المرسلون مقرونًا بالرحمة؛ حتى لا يقع الظلم، وفي قول الله عز وجل عن الخَضِر صاحب موسى -وهو نبي على قول الجمهور، وهو الصحيح[1]-: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥].

لقد أوتى فضيلة العلم، وأيضًا فضيلة الرحمة، وهاتان الفضيلتان يمكن بهما تجاوز هذه الطبيعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢].

إن العلم بلا رحمة ليس هديًا إلهيًّا، وإن رحمة بلا علم ليست شريعة ربانية.

والناس لا يصلحهم عالم لا رحمة فيه، أو رحيم لا علم معه، فالأول يطغيهم، والآخر يرديهم في انحطاط الجهل وفوضى التفكير وسذاجة الرأي.

ولذا قرر أئمة السلف أن منازعة المخالِف لها شرطان:

أحدهما: العلم.

والثاني: الصدق.

فلا تكون منازعة المخالف جهلًا وتعديًا، ولا يقصد بها العلو في الأرض.

ولقد ذكر الله العلو في الأرض شأنًا لفرعون: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص:٤]، وذكر الله العلو وصفًا للمؤمنين: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٩].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٧/ ٣٧٧)، وتفسير القرطبي (١١/ ١٦)، والبحر المحيط لأبي حيان (٦/ ١٣٩)، وتفسير النسفي (٣/ ٢٧)، وفتح الباري (١/ ٢٢١)، (٦/ ٤٣٤).

فالعلو يوم يكون هدفًا ذاتيًا تُحَصِّل به النفس امتيازها وتسلُّطَها، ويعي الإنسان به وجوده الطاغي على من حوله، فهذا تطلع فرعوني.

ويوم يكون استجابة لطبيعة الدين والإيمان الصادق في التعالي، ليس من أجل مزاج الذات البشرية الحاد، وإنما من أجل حقائق الإيمان، فمن أعلى ممن يعبد الله، ويؤمن به في هذه الأرض- فهنا يكون علوًّا فاضلًا متَّصلًا بالله سبحانه.

ويوم نلاحق هوى النفس ونوقفه أمام عدل الشريعة ندرك تحقيقنا لقيمة مبدئية من أعظم حقائق أهل الإسلام وامتيازهم عن أهل الكفر الذين قال الله فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣].

إن الأمة في كل تاريخها، وفي هذا العصر خاصة بحاجة إلى أن تتصالح بما تقتضيه قواعد الشريعة وأصولها مع روادها الذين يحملون خطاب الأمة، ويعالجون واقعها، ويحاولون تجاوز التحدي القائم، وخوض معركة الأمة في العلم والمعرفة والدعوة، ضد الاتجاهات الوضعية التي تتحرك وسط ساحة أهل الإسلام، وحين تفتقد الأمة هذا التصالح مع رموزها؛ فإنها تنتقل إلى عقل الثأر، وحب الانتصار الفردي.

إن هذا التصالح لا يؤهل شخصًا أو مجموعة أو كتابًا إلى أن يكون متعاليًا على النقد والمراجعة، لكنه يصنع الاعتدال في منهج النقد والحوار، كما أن هذا التصالح لا يمكن أن يفهم منه تجاوز الأصول الثابتة وتحقيقها علمًا وعملًا، وإنكار المخالف من المقالات والأعمال لأصول السنة والجماعة؛ فهذا أصل ثابت لا بد من تحقيقه، ولتقريره موضع آخر.

إن الإسقاط للآخرين قد يكون محاولة مغرية للذين لا يقرؤون الأمور بوضوح وعدل.

لكن السؤال الذي يلح: مَن المستفيد من هذا الإسقاط ومَن البديل؟

نتوهم كثيرًا حينما نفترض أن هذا الإسقاط سيكون فضيلة وقوامة؛ لأن فلانًا له سقطات في مسيرته العلمية والدعوية، بينما الواقع أننا نتحرك عكس قانون الفضيلة والمصلحة، لكننا لا نحسن حساب الخُطَى.

●●●●

«قد تجد متعة في إحباط الآخرين، بإشهار أخطائهم، والتذكير بعثراتهم، ولكنك ستجد متعة أكثر وأطول لو اعتنيت بجوانب قوتهم وإمكاناتهم وصواباتهم!».

مقدمة في منهج النقد (٣)

مقدمة في منهج النقد (٣)

ومن قواعد النقد والمراجعة، حسب اقتضاء قواعد الشريعة ونواميس العدل، أن يتمتع الناقد بقدرة في التحكم بنفسه ومزاجه.

حينما نكتب أو نتحدث في موضوع ما -دون أن يكون هذا الموضوع ردًّا أو مراجعة لشخص- نتمتع غالبًا بهدوء، وقدرة على التصرف المسؤول، لكن حينما نكتب ردًّا أو نقدًا أو مراجعة لشخص ما- ولا سيما إن كان حيًّا- فإننا نكون أمام تحدي النفس، التي تمارس مطالبة للتدخل في صياغة هذه الورقة الناقدة أو المراجعة، ويتم تخصيب إيحاءات النفس، وترددات المِزَاج، وإملاءات الطِّباع البشرية؛ لتكون أكثر حضورية في هذه المناسبات.

ليس المراد من هذا التصور رفض منهج الرد والنقد والمراجعة، فهذا عَجْز عن تجاوز المشكلة، لكننا نقصد إلى ضرورة الإدراك لهذه المعاني، والتعامل معها بوعي.

حسب التقدير الاجتهادي -الذي هو استقراء في سير العلماء- ليس من النقد العادل أن ننبري لجمع وتصنيف السقطات لعالم، أو داعية له قدم صدق في الأمة.

إن هذا ينتج إفساد الرؤية، وتسامي النفس، والشعور بالتعالي النفسي، والاختصاص عند الناقد ومستمعيه.

ليس من منهج النقد الصحيح تتبع الشاذة والفاذة[1] في حق عامة الناس، فضلًا عمَّن له قدم في العلم والجهاد، فهذا من تتبُّع العورات، وهو يقود إلى نتيجة في ذهن الكثير، هي أن فلانًا جملة من الغلَط والسقط.

وقد قيل لعثمان ﵁: إن قومًا اجتمعوا على سُكْرٍ ولهو وقصف[2]، فجاء إليهم، فوجدهم قد تفرقوا، فحمد الله وأعتق رقبة.

وفي «سنن أبي داود» من حديث معاوية ﵁ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: **«لا تَتَّبِعْ عَوْرَاتِ المُسْلِمينَ؛ فإنَّكَ إنْ فَعَلْتَ أَفْسَدْتَهُم، أو كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُم»**. قال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها[3].

فهذا الحديث النبوي يشير إلى حكمين:

أحدهما: أن تقرير منهج التتبع والملاحقة، وتربية الناس على سلوكه يوجِب تسليط الأمة بعضها على بعض، فيتكلَّم مَن يعرف ومَن لا يعرف، ومَن يعدل ومَن لا يعدل.

الثاني: أن تتبع العورات والسقطات يفسد الحال؛ فإن بني آدم خطَّاء؛ فتكون نتيجة التتبع الحكم بفساد صاحب هذا السقط والغلط، وتتربَّى

---

(١) أي: المنفردة.

(٢) القصف: الجَلَبة -وهي اختلاط الأصوات- والإعلان باللهو، والافتتان في الطعام والشراب.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٤٨)، وأبو داود (٤٨٨٨)، وابن حبان (٥٧٦٠).

النفوس على البحث العفوي عن العثرات وحشدها وتصنيفها.

ومن هذا الإرشاد النبوي ينبغي في القراءة النقدية ومراجعة التصحيح، أن تُقْرَأ الأخطاءُ دون إلحاح ونَهَم في الجمع والتتبع، والمعتبر في التصحيح والرد ما انضبط وخالف أصلًا، دون ما كان اجتهادًا ونظرًا يقبل الأخذ والرد.

ومن هذا الإملاء النبوي، نصل -أيضًا- إلى الإشارة إلى قاعدة من قواعد النقد المعتدل، محصلُها أن الأخطاء يجب أن تُقْرَأَ كما هي، وكما جاءت في سياقاتها.

إن نزع الخطأ من سياقه الذي كان يَمْلِكُ تخفيفًا له، ووضعه داخل دوائرَ وأقواسٍ وعلامات تعجُّبٍ واستفهام، وتسليط الإضاءة الإضافية على بؤرة ما نظنها خطأ؛ إن هذا يعد تجاوزًا لضوابط النقد العادل، فالتجريد للأخطاء من سياقها يجعلها مؤهلة لرسم صورة تمثل منهجًا تبرز فيه درجة الخطأ إلى حد الانحراف المنهجي؛ ليصبح المنقود حزمة من الأخطاء المحضة، وإذا كان مقصد الناقد حسنًا في حماية الصواب الذي يراه، فهو يفرز عند القراء والمتلقين روحًا مختلفة، لا تحتفظ بأخلاقية هذا العالم الأصلية، وقد يأخذ من العلماء ردودهم وما فيها من الإغلاظ، دون جوانب خيرهم الأخرى.

من الحقائق الشرعية في هذا المنهج: أن الخطأ الذي يقع اجتهادًا لا يؤاخذ صاحبه؛ إن كان مقصوده ومراده اتباع ما جاء به الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا، لكنه أخطأه.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: «المتأوِّل الذي قصدُه متابعة الرسول

ﷺ لا يكفَّر، ولا يُفسَّق إذا اجتهد فأخطأ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية، وأما مسائل الاعتقاد، فكثير من الناس كفَّروا المخطئين فيها، وهذا القول لا يُعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا يُعرف عن أحد من أئمة المسلمين، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع»[١]. وقد قرر هذا المعنى وشرحه في مواضع من كتبه[٢].

وهذا وإن كان حكمًا عند الله، ولا يعني أن مَن كان معذورًا، فإنه لا يكون مؤهَّلًا للرد والمراجعة، لكنه يكسر حدة الاندفاع في تتبع السقطات، والإلحاح في استجواب الأخطاء، حتى تبدو أكبر من ماهيتها وحقيقتها، أو يكوِّن من الأخطاء المتفرقة تركيبًا منهجيًا، فيكون الخطأ يتمثل بخلل في أصل المنهج، وهو لا يعدو أن يكون مثالات غير ضرورية الترابط إلى هذا الحد.

وأنت حين تقرأ التاريخ العلمي الإسلامي، وما كُتب فيه من مصنفات في علوم الشريعة ومقدماتها، لا ترى سنة ماضية عند أحد من أهل العلم الكبار من الأئمة والمحققين، أنهم نبشوا مصنفات ومقالات أحد من أرباب العلم القاصدين نصر السنة والإسلام، وجمعوا سقطاته وأشهروها، بل على هذا جماهير العلماء وعامتهم، مع أنه من المتحقَّق أن ثمة مصنِّفين لهم أخطاء مُؤَهَّلة للذكر والرد والمراجعة، وترى أن التصحيح لم يفقد في هذه المسيرة التاريخية، لكنه تحت منهج معتدل، دون حاجة إلى حركة رصد، وكأن هذا الذي تُتُبِّع قولُه ليس إلا إمامًا في الأخطاء.

---

(١) ينظر: منهاج السنة النبوية (٥/ ١٦١-١٦٢).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٦١٩).

وحين تقرأ مصنفات أبي محمد بن حزم -مثلًا- ترى فيها الصواب الذي يعجب من امتياز ابن حزم بتحصيله، وقد أشار الذهبي في «سير أعلام النبلاء» إلى جوانب من هذا الذكاء والتميز(١)، وترى الخطأ الذي يعجب من وقوعه فيه.

فلو قصد قاصد ذكر فضائل ابن حزم، لجمع أمثلة نادرة، وامتيازًا علميًّا متعاليًا، ولو قصد آخر جمع سقطات ابن حزم، لجمع من هذا رسمًا يفيد أنَّ ابن حزم مجرد راكض في ظاهريته.

وقُلْ مثلَ ذلك في أبي حامد الغزالي مثلًا، وكثيرين.

وفي الحديث: «**أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِم**»(٢).

إن الإنصاف ضرورة في منهج النقد، وهو تعامل مع الخَلق يجب تحقيقه تحت نظر الشريعة وقواعدها، وليس تحت رؤية ذوقية، أو مزاج بارد أو صعب، فلا تضيع الحقائق، ولا يُبغى على أحد من خلق الله.

وإن مَن مضى منه سيرة حسنة، وصدق في الإسلام، يجب أن يحسن إليهم، ويتلطف في معاملتهم، ويعرف لهم قدرهم.

ولئن كانت الأمة اليوم بحاجة خاصة إلى التصحيح والمراجعة، فيجب أن يكون هذا تحت قاعدة العدل والرحمة، وصدق الحديث وعدم التكلُّف، وترك الانتزاع للأخطاء، مع تحقيق لزوم الأخذ بالأصول ومعاقد إجماع الأئمة والإنكار على مخالفيها.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٤-٢٣١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٤٧٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٦٥)، وأبو داود (٤٣٧٥)، والنسائي في الكبرى (٧٢٩٤)، وابن حبان (٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قد يكون من العَجَب أن يقرأ الكثيرون لعالِـم أو داعية، فلا يكون عندهم إلحاح، أو قصد في انتزاع الفوائد والصوابات، لكن حينما يراجع قوله للرد عليه، فترى ثمة استجوابًا للأحرف والسياقات؛ ليولِّد منها سلسلة من التجاوزات والأخطاء.

وثمة قوم يستعملون قانون الربط المنهجي؛ أي: محاولة تأصيل الأخطاء وردِّها إلى مناهج الانحراف التاريخية أو المعاصرة، وهذا إن كان حقيقة استقرائية عادلة ليس مذمومًا، بل قد يكون قصدًا وفضيلة، لكن يكون الأمر مشكلًا حينما يحمِّلُ عالم أو داعية أو مصلِح مسؤولية علاقات منهجية، ربما قامت دعوته وعلمه لمحاربتها، ثم يأتي مستقرئ فيحمِّله أوزارًا من منهج القوم، تحت شعار أو عفوية القوامة وحفظ الدين ودفع صَول المخالفين؛ فهذا تحويل لمقصد التصحيح وقواعده، وربما قرأه الساذج من الجماهير عمقًا في التناول والبحث، وصار ملتفًّا حول هذه النظرة التي تُـمَنْهِجُ الأخطاء وترسمُها، ضمن خارطة شمولية، لا مخلَص للمتَّهَم منها!

ومن ضرورة المعالجة والإصلاح، أن يتمتع العالم بالرفق، وفي «الصحيح»: **«إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ في شَيءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إِلَّا شَانَهُ»**[1].

وفي «الصحيح» أيضًا: **«مَنْ يُحْرَمُ الرِّفْقَ يُحْرَم الخَيْرَ»**[2]. وفيه أيضًا: **«إِنَّ اللَّـهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي على العُنْفِ،**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٢) من حديث جرير رضي الله عنه.

وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»[1].

وفي الإطار العام يأتي قوله سبحانه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل:١٢٥]، وهذا بيان بأن المجادلة تكون بالأفضل والأحسن، بينما الموعظة وصفت بالحسن، ربما لأن المجادلة مظنة استثارة نوازع النفس الغضبية عند المتخاصمين، فسبحان العليم بسرائر النفوس!!

إن الحق الذي أعطاكَه الشارعُ، هو أمانة حملتَها؛ يستدعي تقرير الحق، وتصحيح الخطأ والغَلَطِ، ويتفرع عنه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والرد والمراجعة والحوار، كل هذا نوع من التكليف الشرعي الذي يجب أن يقَّدرَ بقدره، وأن يُعْلَمَ أن هذا الإذنَ الشرعيَّ ليس معناه أنك مؤهَّل لمعاقبة العباد.

من الخطأ الشديد أن يتحول التصحيح والنقد إلى لغة معاقبة، واستفزاز لمشاعر الناس وطبيعتهم، وتريد في الأخير أن تُذعِن ناصيتَهُ لرأيك ومراجعتك، وإلا كان ممن عاند وكابر الحق، وشابَهَ فرعون وقارون!

هذه معادلات من الظلم أن يحمل الإسلام والمنهج الشرعي تبعتها، أو المسؤولية عنها.

إنها نزعات نفسية في طبائع كثيرين، يتلذَّذ أصحابُها باستذلال الناس وجرِّهم خلفَهم.

والمتأمل في سيرة رسول الإسلام ﷺ يجد أن هذا التعامل الجافي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ليس له حظ في هذه السيرة ألبتة، بل لقد كان «رَحِيمًا رَقِيقًا» كما في حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه[1]، وكان «رَفِيقًا» كما في حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه[2].

وكان «لا يُضْرَبُ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ» كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما[3]، وكلها في «الصحيح».

ثمت حقيقة خُلُقِيَّة في الطبيعة البشرية، وهي: رفض الإنسان علوَّ الآخرين عليه، ورفض استعمال الفضيلة سلطة تقرع بها رؤوس المؤدبين.

في قول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وفي تدبير الله لموسى في مسيرة دعوته: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٤]. تأكيد على أن الخلق تجمعهم الرحمة واللين، وتفرقهم الغِلْظة والفَظَاظة.

فالإسلام يُقرر ثوابت الشريعة وحدودها، لكنه أيضًا يُقرر ثوابت الإنسانية وحدودها؛ إذ هو رسالة للإنسان الذي خلقه الله على طبيعة غير قابلة للمعاندة، فهي تعاند مَن عاندها، حتى ولو كان محقًّا، فإن النفس لا تتمالك، فإما أن تدَعَ الحق، أو تدَعَ بعضَه، أو تشوبَهُ بباطل، فلماذا يتحول النقد والمراجعة إلى خَلْقِ معركة بين الحق أو الرأي المجتهد فيه وبين

(١) أخرجه مسلم (١٦٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٨)، وعند مسلم (٦٧٤): «رقيقًا». بقافين.

(٣) أخرجه مسلم (١٢٦٤).

الطبيعة البشرية؟! هذا سؤال بالغ الأهمية.

إن رب العالمين المألُوه المعبود، أمر عباده بأصول التكليف والحق ولم يُهِن عبده، بل أكرمه ونعَّمه، وكذا رسول الله ﷺ المبلِّغ عنه، وفي نصوص التنزيل الكثير من التكليفات التي جاءت بصيغة غير مباشرة، بالثناء على أهلها ووعدهم بالثواب، وذم الذين تركوا، والترغيب والترهيب، مما يطول سرْدُه واستقصاؤه.

وثمة حدود في الإنسانية هي حدود الحياة العادلة، وهي سنن الله في خلقه؛ فالإسلام يقرر أصول الأخلاق، وينشئ النفس عليها، وهي حق اجتماعي عام لا يجوز لأحد أن يخرق نظام الأخلاق تحت أي مبرر.

الأخلاق هي: مِزاج النقد؛ فإذا فسدت فسد قوامه.

ربما تكون مراجعة البعض لغيرهم من أقوى أدوات ترسيم الأخطاء وتثبيتها، وأنت حين تغلط ضمن مسيرة قاصدة في الإصلاح والخير والبر، فترى مَن يأتي ليصادر كل حركاتك وخطواتك في الصراط المستقيم، ويلاحق الأخطاء كما يلاحق الخُطَى، فيرى في كل عثرة آية وإشارة، ثم يحشرك في معركة يكون هو فيها (الحق) وأنت (الباطل)، فهنا أيُّ نفس بشرية تدَّعي أنها تقدر على التمالك والانضباط، فضلاً عن القبول؟!

قد يكون من الصعب على كثيرين تجاوز ما ألفَوْه من الطبائع التي تتحكم كثيرًا في منطقهم وتعاملهم، أكثر من تحكم الحقيقة نفسها.

وقد يكون من المشكلات هنا محاولة البعض تصحيح الإلِف الذي ألفه، فيكون الصواب مألوفه ومتى تحول عنه؛ فربما هو يتحول إلى

الانتكاس، وكأنه يتحول عن ثوابته الحقة الخالدة، ولعل المتنبِّي كان قارئًا نفسيًّا حين يقول:

خُلِقْتُ أَلُوفًا لوْ رَجَعْتُ إِلَى الصِّبَا
لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ القَلْبِ بَاكِيَا[1]

نسأل الله أن يَرزُقَنا قصد وجهه، وأن يسدد نفوسنا في ابتغاء فضله ورحمته.

●●●●

(١) ينظر: ديوان المتنبي (ص٤٤٢)، وشرح ديوان المتنبي لأبي البقاء العكبري (ص٢٨٤).

«مجالسة الحكماء تُقَلِّلُ من تأثير النقد السيِّئ عليك، وتثنيك عن كثرة النقد للآخرين».

استعادة الذّكريات

استعادة الذِّكريات

حدث لي ذات ليلة موقف لا يخلو من حرج!

وجدت نفسي أمام عسكري مدجَّج بالسلاح، يطالبني ببطاقتي الشخصية، وحين أخذها أمرني بالوقوف، وهدَّدني حين هممت بغير ذلك بما لا تُحمد عقباه!

حين أقوم برواية هذه القصة؛ سأرويها من زاويتي الخاصة، بما لا يتفق في بعض جزئياته مع رواية الطرف الآخر..

هذا نوع من التذكر والرواية والحكي..

مرَّ الموقف بسلام..

وخلال الليل تمَّ استذكار الموقف لعشرات المرات بصورة سريعة.

مرَّة تستعيد الذاكرة الحدث كما هو بتفصيلاته المثيرة عندي، والمملَّة عند الآخرين ممن لا يعنيهم الأمر.

ومرة تستعيده الذاكرة مصعدًا ومطولًا.. فتتخيل أنَّ الرجل اضطرك إلى الرحيل معه إلى جهة ما، وتعرَّف عليك مديره، وعاتبك، أو قدَّم لك رقيق الاعتذار..

أو تتخيل أن الأمر تطوَّر إلى مضاربة واشتباك بالأيدي..

أو تتخيل أن الأمور سارت بطريقة مختلفة، كأن تكون استجمعت

حلمك وصبرك، وابتسمت وجاريتَه في اندفاعه.. ماذا كان سيحدث؟

قد يسامحك.. ويقول: «هَالـمَرَّة لك!». أو يفتح محضرًا للسؤال والجواب، ويعطيك الأوامر أَلَّا تمرَّ من هذا المكان مرة أخرى، أو أن تتعلم كيف تحترم رجل الأمن، وكيف تتحدث معه؟!

الذي حَدَثَ هو شيء واحد.. لكن كل جزئية منه قابلة لأن تسير بشكل مختلف عما حدث فعلًا، وهنا يعمل الخيال عمله، باتجاهات شتى..

مراقبة تفكيري وأنا أستعيد الحدث مفيدة جدًّا؛ لجهة إصلاح نفسي، واكتساب عادات جديدة في الفكر، أو عادات جديدة في السلوك، وهذا ما نحتاج أن نتدرب عليه مرة ومائة وألفًا!

واحدة من التخيلات: كيف سيتجهُ الحدث، مرت بي وأنا في صلاتي، ووجدت أني ركعت ورفعت وسجدت شاردًا أتخيَّل الموقف، كيف جرى، وبهذه السرعة، وماذا لو..؟

ماذا لو تجمَّع الناس حولك، ولاحظوا كيف غضبت؟

أو كيف تعامل معك الجندي معاملة مَن يشعر أن ذاته تعرضت للاهتزاز، وليس وطنه وأمنه؟!

وثانية من التخيلات: هاجمتني وأنا أتهيأ للنوم، وعرَّضتني لأرق امتدَّ لأكثر من خمس دقائق!

ثالثة: صورت لي نمطًا مثاليًا من التعامل، تمثَّل في ابتسامة هادئة، وتعامل راقٍ، واستجابة فورية، وصبر، وكبت لمشاعر الغيظ والغضب، حتى ينتهي الأمر بسلاسة، وهو حتمًا سينتهي حينئذٍ بسلاسة، حتى لو كنت شخصًا غريبًا لا يعرفك الرجل، ولا علاقة بينك وبينه، حتى لو كنت

«أجنبيًا» -كما سيعبِّر بعضهم، وهو تعبير يحمل دلالة عنصرية- سينتهي بهدوء؛ لأن الصبر وضبط الانفعالات والردود اللفظية والجسدية يحرج الطرف الآخر، ويضطره إلى التراجع.

واحدة من الاستعادات؛ ذكَّرتني بكلمة قلتها ضمن الحدث، حين قدَّم لي رئيسه الاعتذار..: «لم يكن من حقه أن يتصرف بهذه الطريقة، بغض النظر عن كوني مواطنًا أو أكبر منه سنًّا، حتى لو كان يتعامل مع «بنغالي»!

هذه كلمة تقول لصاحبها: دعني، ليس ثمة داع أن يكون هذا الشعب مَضرِب المثل في التحقير، هذه عنصرية لم تكن خليقًا أن تتمثَّلها أو تعبِّر بها، وقد كتب أحد الفضلاء مقالًا عن سير عدد من المبدعين والمخترعين من بنغلاديش، كان محمد يونس مؤسس بنك (جرامين) للفقراء، والحائز على جائزة نوبل هو أحدهم، ولا غرابة أن يُقيَّض لهذا الشعب قادة مصلحون، يرتقون به إلى مستويات اقتصادية واجتماعية أفضل، وما قصة ماليزيا عنا ببعيد!

واحدة من هذه الاستعادات، كانت حكاية القصة لأصدقائي ومن حولي، وهنا تظهر البطولة، وتتحفز الـ «أنا» لتعبِّر عن ذاتها، وتؤثِّر في الصياغة، وتُظْهِر الآخر بموقِف النَّزِق[1] الطائش الذي لا يفهم شيئًا، بينما تختص ذاتها بالشجاعة أو بالصبر وضبط الأعصاب، أو بسرعة البديهة والرد..

يا الله..

---

(١) أي: المتعجِّل.

كم يستنفذ تكرار الذكريات التي مرت بنا من أوقاتنا وأعمارنا؟

وكيف نستفيد منه في ضبط ألسنتنا، لتنضبط أفكارُنا وتصرفاتنا؟

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨]. حتى القول مع النفس «حديث النفس» هو محفوظ، وإن كان عفوًا، ما لم يتكلم أو يعمل! كما في الحديث الصحيح المرفوع: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[١].

وفي حديث أبي سعيد الخدريِّ ﷺ رفعه: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ؛ فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»[٢].

يبدو أن الإنسان مدرسة لنفسه، لو أنه كاشفها وصارحها، وخلا بها، بعيدًا عن عيون الناس، وصبر عليها، لفجّر من منابع الخير فيها، وجفّف من منابع الشر والعدوان ما لا تصل إليه عيون الرقباء.

●●●●

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٣٢٣)، وأحمد (١١٩٠٨)، وعبد بن حميد (٩٧٩)، والترمذي (٢٤٠٧)، وأبو يعلى (١١٨٥).

«إني أقبل عليك بكامل الإخلاص إن أردتَ، وأعرض عنك بكامل العذر إن أردتَ».

فرص هاربة

فرص هاربة

....

قال لي حين لقيته: إنه يعتبرني هدية من الله! وإنه سيفعل ويفعل، وصدَّقته فيما يقول، ومضيت معه إلى آخر الشوط بعفوية، دون أن أسمح لنفسي بالشكِّ أو التردد؛ ما الذي يدعوه لأن يقول غير الحقيقة؟ إنها الفرصة التي كنت أنتظرها وطالما حُجبت عني، فهذا أوانها، وكل شيء بأجل، و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨].

ازدريت أعمالي الصغيرة التي كنت أحاولها، وأبذل فيها مزيد جهدي، وأمدُّ فيها رجلي على قَدْر لحافي.. لم يعد ثمة معنى لأن أعملها بعد اليوم، وقد فتح لي هذا الفتح.

يوم فيوم فثالث، تأخَّرت الفرصة قليلًا، لكن لا بأس، فضخامتها تعوِّض عن تأخيرها، موعد يتأجل، ثم يحدث القلق، ثم بدا كأن الفرصة تهرب، وأخيرًا هربت حتى لا أراها!

عدْ إلى أعمالك الصغيرة الوفيَّة، تحقق عبرها إنجازك، وتكسب الرزق اليومي لمشروعك الدعوي، أو الفكري، أو الإصلاحي، أو لدنياك، أو أسرتك، أو حاجاتك المعاشية؛ فالسيل من نقط.. أين هي الفرصة الكبيرة الهاربة؟

أَتُراها كانت برقًا خُلَّبًا، لا مطر ولا أثر[1]؟ ربما:

وما كُــلُّ بَرقٍ لَاحَ لِي يَسْـتَـفِــزُّنِي
وَلَا كُلُّ مَن لَاقَيتَ تَرْضَاهُ مُنْعِمَا

إذَا قِيلَ: هَذَا مَنْهلٌ؛ قُلْتُ: قَدْ أَرَى
وَلَـكِنَّ نَفْسَ الحرِّ تَحْتَمِلُ الظَّـمَا![2]

ربما كانت وهمًا، أو خَطْرة عابرة في نفس صاحبها، ما تلبث أن تزول، أو لعل الحسابات اختلفت باختلاف ظروفه؛ فقد جدَّ لديه جديد في مسائل متعسرة، أو متعثرة، فانفتحت أبواب، وتيسرت أسباب، وتغيَّرت تبعًا لذلك وجهة التفكير.

أو لعله وجد سبيلًا أقوَم وأفضل لتحقيق ما يريد، ولقي غيرك ممن هو خير منك له، أو لعل همسًا خفيًّا أثار عنده المزيد والمزيد من الحسابات والأسئلة والاحتمالات، فتوصَّل إلى إغلاق الباب، ثم النوافذ أيضًا!

أو... أو...

هذه فرصة هاربة.. قد يكون مهمًّا أن تعرف لماذا هربت، وأين ذهبت، لكن الأهم ألَّا تخدعك مرة أخرى!!

الحياة ترشد إلى أن (٨٠٪) من الفرص التي تعرض لك؛ هي فرص هاربة، وإن كان هذا يتفاوت من إنسان لآخر، فالنسبة هي حسب تقديري

---

(١) البرق الخُلَّب: الذي لا غيث معه، يُضرب مثلًا لَمن يخلف كما يخلف ذلك البرق، فهو يومض ويطمع في المطر، ثم يعد ويخلف، والخلب، من الخلابة، وهي الخداع.

(٢) ينظر: طبقات الشافعية (٣/ ٤٦٠)، والبلدانيات للسخاوي (ص٢٢٦)، ونفحة الريحانة للمحبي (٣/ ٢٨١) منسوبًا إلى القاضي أبي الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني.

الشخصي المحض.

يكفي أن تظفر بـ(٢٠٪) من الفرص، وتقبض عليها، وتطوِّرَها، وتهتم بها، فهي مادة نجاحك، وخريطة إنجازك، لا تستهن بها وإن كانت صغيرة، فميزتها أنها متاحة، ولا حاجة للبكاء على فائت، وميزتها أنها مستسلمة لك، قابلة للعمل لديك حتى تهجرها أنت، وتذهب إلى أخرى أكثر شبابًا وجمالًا ودلالًا، لتذهب هي إلى المعاش راضية قانعة، وعيبها أنها صغيرة!

وميزتها أنها فرص تصنعها أنت، وليس تنتظر الآخرين أن يصنعوها، أو يقدموها لك، أو حتى يساعدوك عليها.

تاريخ الإنسان تصنعه الفرص الصغيرة المتاحة التي يعمل عليها، وليس من الحكمة أن يحتقر المرء هذه الفرص أو يزدريها، ويمدُّ عينه إلى ما عند الآخرين، فـ«كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِـمَا خُلِقَ لَهُ»[1]. والصواب أن تقبض على فرصتك الصغيرة، وتعتبرها حظك من الفرص، فتستمتع بها، وتسعى في تطويرها، وضبطها وإتقانها، وحين يعرض لك ما هو أفضل وأجدى فحاوله؛ فإن الطموح سرُّ النجاح، لكن دون أن تترك ما في يدك من الأعمال المحققة، والفرص القائمة المنتجة؛ لأنك ستكتشف أن (٨٠٪) من هذه الفرص التي عَرَضَت لك، أو عُرِضت عليك هي «برقٌ خُلَّب»!

كان عمر ﷺ يقول: «مَن بُورك له في شيء فليلزمه».

وحين اشتغل النبي ﷺ بدعوة الملأ من قريش، وانشغل عن ضَعَفة الصحابة؛ عاتبه ربه فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ

---

(١) كما في حديث علي ﷺ: أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس:١-١٠]، ونهاه عن ذلك فقال: ﴿كَلَّآ﴾!

وفي سياق مشابه، أدَّبه ربه؛ فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه:١٣١]، وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢].

الوصول إلى نقطة التوازن بين الفرص الممكنة الصغيرة، وبين الفرص الهاربة الكبيرة معنى لا يتحصل إلَّا بقدر من المران والخبرة، تحدث للإنسان صدمات أو أزمات، ولكنها تصنع له عقلًا وفهمًا، وتجعله أقل اندفاعًا، وتحميه من المفاجآت.

قلت يومًا لصاحبي: أُقبل عليك بكامل الإخلاص ما أردت، وأتركك بكامل العذر ما أردت!

●●●●

«مدحتني مدحًا لا تحلُم به النجومُ، وذممتني ذمًّا لا تربضُ عليه الكلاب، وأُراني فوق هذا، ودون ذاك، وهي أباطيل تتكاذب..».

الوقوف على الحياد

الوقوف على الحياد

الحياد قيمة جميلة، تنمُّ عن توازن وتنوُّع، وروح علمية أو واقعية، لا تريد أن تنحاز لأي طرف؛ لعدم توفر الأدلة.

سلفنا كانوا يعبرون عن الحياد العلمي بـ «لا أعلم»، «لا أدري»، ويقولون: «نصف العلم: لا أدري»[1].

فقلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي العِلمِ فَلْسَفَةً
حَفِظْتَ شَيئًا وَغابَتْ عَنكَ أَشياءُ[2]

ومَن ترك «لا أدري» أصيبت مقاتله[3].

وقد يعبِّرون بـ «الله أعلم» ردًّا للعلم إلى مَن لا يخفى عليه خافية.

وربما عبَّر الأصوليون بـ «التوقُّف».

وهو موقف فقهي علمي، مبني على تكافؤ الأدلة أو تساويها، أو التردد

---

(١) ينظر: سنن الدارمي (١٨٦)، والفقيه والمتفقه (٢/ ٥٧)، وذم الكلام للهروي (٥٠٥)، وجامع بيان العلم وفضله (١٥٨٦)، وأخلاق العلماء للآجري (ص١١٤).

(٢) ينظر: ديوان أبي نواس (ص٢).

(٣) ينظر: الأمالي في آثار الصحابة لعبدالرزاق (١٦٢)، وتاريخ ابن معين (٣/ ٢٥٢)، وأخلاق العلماء للآجري (ص١١٥)، والمدخل إلى السنن الكبرى (٢/ ١٨٦)، والفقيه والمتفقه (٢/ ٥٦)، وجامع بيان العلم وفضله (١٥٨٠-١٥٨٤)، وحلية الأولياء (٧/ ٢٧٤).

لدى المجتهد، أو مزيد الاحتياط، وهو تعبير عن النُّبل والقوة في مواجهة نوازع النفس، أو مطالب المحيط(١).

والتوقف هنا ليس قولًا علميًّا؛ بل هو موقف يتحول عنه صاحبه إلى غيره، وقد تردد الفاروق عمر رضي الله عنه -وهو على المنبر- في تفسير كلمة «الأَبِّ» في قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس:٣١](٢)، ونُقل نحو هذا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه(٣).

وَقَلَّ عالم إلا وحُفِظ له مسائل توقف عنها، أو أَبَى أن يقول فيها برأي.

بل جاء في الحديث أن رجلًا قال: يا رسولَ الله، أيُّ البُلدانِ أحبُّ إلى الله، وأيُّ البُلدانِ أبغَضُ إلى الله؟ قال: «**لا أَدْري حَتَّى أَسْأَلَ جِبْرِيلَ عليه السَّلام**». فأتاه، فأخبرَهُ جبريلُ؛ أنَّ أَحَبَّ البقاعِ إلى الله: المساجدُ، وأَبغضُ البقاعِ إلى الله: الأسواقُ(٤).

في مقابلِ هذا؛ تجد هذَرَ العامة وهجومهم على كل مسألة، بعلم وبغير

---

(١) ينظر: الضروري في أصول الفقه لابن رشد (١/ ٩٣)، والكوكب المنير (١/ ١٩)، والمستصفى (١/ ٣٦٤).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٣٤٩)، وأبو عبيد في الفضائل (٦٨٨)، وسعيد بن منصور (٤٣ - تفسير)، وابن أبي شيبة (٣٠٧٢٩)، وابن جرير (٢٤/ ٢٢٩)، والثعلبي في تفسيره (١٠/ ١٣٣)، والحاكم (٢/ ٥١٤)، والبيهقي في الشعب (٢٠٨٤).

(٣) أخرجه أبو عبيد في الفضائل (٦٨٧)، وابن أبي شيبة (٣٠٧٣١)، والثعلبي في تفسيره (١٠/ ١٣٤).

(٤) أخرجه أحمد (١٦٧٤٤)، والبزار (٣٤٣٠)، وأبو يعلى (٧٤٠٣)، والحاكم (١/ ٨٩) (٢/ ٧) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

وأخرجه مسلم (٦٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «**أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ: مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ: أَسْوَاقُهَا**».

علم؛ لأن كلامهم ليس بذي وزن ولا قيمة؛ فهم يتهارجون ويتنازعون القول، وقد يؤسس أحدهم رأيًا على أنقاض قول صاحبه، فإن شرَّق غرَّب، وإن غرَّب شرَّق، وقد يتكلم في المسألة وهو لا يفقهها ولا يدريها، ولو حققت ودققت لوجدته يعني شيئًا آخر؛ لأن عقله لم يتهيأ للمسائل الدقيقة، ولم يتدرب على التفكيك والتحليل والتأمُّل والنظر في الأدلة والجوابات والحجج.

على أن فتنة الإعلام زادت العوامَّ ولوغًا في سائر المسائل، حتى بدا لكثيرين أن الصمت أو الإعراض حيال مسألة ما يُعَدُّ ضعفًا في الشخصية ونقصًا في القيمة؛ إذًا فلْيُلقِ دلوَه في الدِّلاء، وليخُضْ مع الخائضين، كانت المسألة فقهية أو عقدية، سياسية أو اقتصادية، قديمة أو حديثة، تخصصية أو عامة، وماذا يضيره أن أيَّد هذا ثم انتقل إلى ذاك؛ فمواقفه غير مُسجلة، ولن يعاتبه أحد، ولن يلحظ أحد تذبذب موقفه، أو تمايله كما الشارب الثَّمِل.

وتطور الأمر أن تتحول كل مسألة مطروحة أو مطروقة إلى استقطاب وتصنيف؛ فلا يكاد الناس يخرجون فيها عن: قولين، وصَفَّين، وحزبين، وفسطاطين، هذا مع وهذا ضد!!

ثم يبدأ الحشد والتجييش و«الفزعات»، وتوظيف الطاقات والإمكانات المادية والأسلوبية والإعلامية والعلاقاتية في نصرة الفريق وتأييده، والازدراء بالآخر وتوهين جانبه.

نهود[1] عجيب إلى معارك لا يحسنونها، ولا يفقهون ما وراءها، ولا

---

(١) أي: نهوض.

يعتبرون بعواقبها، ولا يلتمسون عنها حولًا، ولا يبغون بها بدلًا، وكأنهم رضوا من دنياهم بها، وربما أَلْهَتْهم عن حقائق دينهم، وشغلتهم في سجودهم وتعبُّدهم، وملأت قلوبهم غيرة ووجدًا وعتبًا وحقدًا على فلان وفلان.. لماذا تخلَّى وتولَّى ما تولَّى؟ وأين يدُه ولسانه معنا؟!

أصبحت عين الناظر لا تخطئ هذا المشهد.. ترى الناس هجودًا مقبلين على دنياهم، فتحمد ذاك، وتقول: إن فيما هم فيه لشغلًا، فإذا بمسألة صغيرة تُطلُّ، فتظنها سحابة عابرة، ثم تتوسط السماء؛ فتمطر شتمًا وخلافًا، وتنازعًا وانشقاقًا، وحماسًا وتهمًا.. ثم تذوب وتتلاشى؛ فلا يُسأل أولئك الذين فُتِنوا بها: ماذا جَنَوْا وأفادوا من حرب أكلت أوقاتهم وحسناتهم؟ لأن العقل التبريري يقنع دائمًا بأن ما حصل كان خيرًا، ولو لم يكن من نتائجه إلا كفُّ شرٍّ كان متوقَّعًا، أو وقع فتنة أعظم؛ لكفى بذلك أثرًا.

وهكذا تتحايل تلك النفوس، أنها باندفاعها الاعتيادي الساذج كانت دائمًا على صواب، وتوهِمُ نفسها أنها في رباط.

وشر ما تُبْلَى به فئة؛ أن تجد لأنماط سلوكها وفكرها الذي اعتادت عليه وألفت نصًّا شرعيًّا تحتمي به، وتعتقد أنه يعزِّز مسلكَها ومذهبَها، ويمنحها حق البقاء على ما هي عليه على اعتقاد أنه الصواب الذي لا يحتمل الخطأ، وكأنها ارتقت بفعلها البشري، وبفهمها المحدود إلى رتبة النص الإلهي المعصوم، الذي لا يدافع ولا يراجع.

قلت يومًا: إن بعض متطرفي الغرب يقولون: (مَن لم يكن معي، فهو ضدي). وبعض متطرفينا يقول: (مَن لم يكن معي، فهو ضد الله)!

متى نعوِّد أنفسَنا احترامَ أنفسِنا؟! واحترامَ الآخرين؟! واحترامَ القيم التي نؤمن بها؛ فلا نوظفها في خصومات أو صراعات، قد تكون مفهومة، ولكن ليس من الضروري أن تكون صراع حق وباطل، أو إيمانًا وكفرًا، فقد يتلبس المرء الهوى أو الاجتهاد المرجوح أو الضعيف، ولقد كان النبي ﷺ يوصي أصحابه فيقول: «وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَوْ: خِلَالٍ- فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ...». إلى أن قال لهم: «وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ نَبِيِّه، فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ الله وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّه، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ، أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ الله وَذِمَّةَ رَسُوله. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ الله؛ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ الله، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ؛ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ الله فِيهِمْ أَمْ لاَ»(١).

متى تنتهي «الفزعات» التي نتناصر فيها بالميل والتحزُّب، مُستشعرين أننا نمارس عبادة وتقوى؟!!

●●●●

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١) من حديث بُريدة بن الحُصيب ﷺ.

«النقد البناء حين
أنتقدك، أما النقد الهدام
فهو حين تنتقدني».

نموذجان للحركة

نموذجان للحركة

الذين يتحركون في مِضمار الحياة وبنائها يحتاجون إلى الوعي بما يفعلونه وما يواجهونه، ومعرفة كيف يتصرفون في منعطفات الحياة وصعابها وتحدياتها.

الكثير يبدؤون، ويبدؤون بهمة عالية، وطموح رائع، لكن سَرعان ما تنكسر سهامهم على صخرة المشكلات العارضة، والتحديات الطبعية، واعتراضات الآخرين، وتكدير البيت والأسرة والعمل.. بل والنفس التي لا تُطاوِع في خير، ولا ينكَفُّ عن شرها إلَّا بالمجاهدة والإصرار، وكأنها طفل مراوغ، ما إن يشعر بغفلة أهله حتى يهرب ليلعب، ويعبث بكل ثمين وغالٍ!

وثمة فكرة جوهرية ترسَّخت مع العديد من التجارب الإنسانية الحاضرة والغابرة؛ هي أن الإنسان المتحرك الفعَّال يحفُّ به طريقان واضحان لا تشابك بينهما، وبحسب اختيار أحدهما يحقِّق المزيد من النجاح والاستمرار، أو الإخفاق والانقطاع:

١- الطريق الأول الذي أعبر عنه بـ «أمسك الشمس»:

وهو الطريق المستقيم، ويعني أن يكون إنسانًا منتجًا مبادرًا فعَّالًا، لا يكثر التلفُّت للوراء والتشاغل مع الآخرين بما قال وما فعل، وهو قد

يكون أخطأ فعلًا، لكنه لا يريد أن يتوقف عند أخطائه، بل يعالج ذلك بأعمال إضافية جديدة، ولا يسمح بالجدل والحوار حول أطروحته أن يعوقه أو يوقف مسيرته.

يُروى عن بعض السلف أن رجلًا فارغًا أراد أن يوقفه ليحادثه، فقال له: أمسك الشمس(١)!

ومن هنا جاء عنوان هذا الطريق.

الحياة قصيرة؛ ولذا فأثمنُ استثمار أيامها، هو المزيد من الأطروحات والإنتاج والعمل، هذا ليس استكبارًا ولا تعاليًا، وليس ادِّعاءً لعصمة ما يقول ويفعل، بل من حق الآخرين أن ينتقدوا ويسدِّدوا، وليس يلزم أن يكون هو حاضرًا، أو أن يعقِّب على كل كلمة، وكل مشاركة، وكأنها لا تأخذ الأهمية والاعتبار والصحة إلا بموافقته وإمضائه.

قلت كلمتَك، ودعِ الناس يقولوا كلماتهم!

وهنا يأتي دور الزَمن الكفيل بإنضاج الأفكار، وبيان مدى أهمية الموضوع المطروح أصلًا، فضلًا عن أهمية الفكرة الخاصة.

وكثير من الموضوعات يتبين مع الوقت أنها غير ذات جدوى، وأن الحديث حولها كان ضربًا من التشاغل بالتوافه والصغائر، وتعبيرًا عن الفراغ الفكري والنفسي.

وقد يكتسب بعض الموضوعات أهميته من ظرف خاص، تزول الأهمية بزواله، وتصبح قضية تاريخية لا وزن لها، وإن ملأت عقول الناس

---

(١) ينظر: التبصرة لابن الجوزي (٢/ ٣١٥)، صيد الخاطر (١/ ٤)، الآداب الشرعية (٤/ ١٧٠) منسوبًا إلى عامر بن عبد قيس.

وأفواههم حينًا من الزمن، ولعل معظم ما نتحدث عنه هو من هذا القبيل!

فخطة «أمسك الشمس» تعني: أن الإنسان الفعَّال ينظر إلى الأمام، ويفكر دائمًا بالمزيد، ويبحث عن المبادرة، ويخفف إلى أبعد حدٍ ممكن من الحديث المعاد، والإيضاح وإيضاح الإيضاح، والتردُّد، ويترك للزمن قدرًا من الأثر في إحداث التصحيح للأفكار والآراء والنظريات.

٢- الطريق الثاني: «الدائرة المفرغة»؛ وأعني به: دوران الإنسان - مفكِّرًا أو داعية أو أديبًا أو كاتبًا- حول إنتاج أو عطاء معين، يبدئ فيه ويعيد ويردِّد، ويردُّ على الخصوم والمعارضين، ويدافع ويصحح ويؤكِّد حسن نيته وقصده، ويفنِّد ما يقوله الآخرون، ويفرزهم حسب تصنيف خاص؛ فمنهم مَن يُتهم في نيته، ومنهم الحسود، ومنهم الصادقُ، ويخوض معركة شرسة مع الناس من حوله، ويبدأ الاصطفاف، فهذا عدو، وهذا صديق، وهذا محبٌّ، وهذا مبغض، وهذا موافق، وهذا مخالف.

وتبدأ الأحاديث والأقوال والردود والمجاهدات؛ لحشد هذا أو صدِّ ذاك، وتسيطر على نفسيَّته هذه المواقف، ما بين اغتباط وانزعاج وحب ومقت، حتى تكون هذه المواقف كالوَسْم(١) في قلبه وعقله وحياته؛ فكأنه تورَّط في شبكة أو أُحبولَة(٢) لا مخلصَ له منها؛ فصار يدور حول نفسه، وحول مشروع واحد بدأه ولم يستطع إكماله، وانشغل بالمحاماة عنه، ومدافعة الآخرين؛ لئلَّا يجتاحوه، وصار جهده دورانًا حول عمل قد يكون صغيرًا أو تافهًا أو وسطًا أو حتى جيِّدًا، لكنه لا يستحق أكثر من

---

(١) أي: علامة.

(٢) أي: مصيدة.

الوقت الذي صُرف فيه أصلًا، فلا معنى لأن يضيِّعَ فيه المزيد من الأوقات في الدفاع والحماية والتشييد والنصرة وذبِّ الخصوم.

إنها مِجزَرة الوقت، ومِقصَلة[1] العمر، ونزيف الحياة؛ نمارس ذلك باختيارنا وإرادتنا، بل بحماسنا، مسكونين بروح الجهاد والمقاومة والنصرة، واعتقاد امتلاك الصواب.

وحين تدركُ أن فترة العمل والنشاط للإنسان محدودة، ربما ما بين العشرين والخمسين غالبًا، تدري أنها لا تسمح بهذه الانشغالات الفرعية التي تعوق عن السير إلى الأمام وعن الإبداع والتجديد، وتعتقل فكر المرء ولسانه وجهده في جزئية، كان خليقًا به أن يتجاوزها إلى غيرها، وألَّا يَقْلَقَ مِمَّن يعارضها أو ينتقدها، أو حتى يتهم صاحبها، فالله حكم عدل، وفي النهاية: لا يصح إلا الصحيح، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

وليس النقدُ مدمِّرًا للأفكار الصحيحة، بل هو معزِّز لها، ومؤكِّد لمصداقيتها، وسبب لتكميلها وإبعاد جوانب الخلل والنقص فيها.

وإن كنا أمام فكرة لا يمكن الجزم بصوابيَّتها؛ فالنقد يمكن أن يؤكد درجتها وقدرها، ويصنِّفها ضمن دائرة الخطأ أو الصواب.

ربما كانت «الأنانية»، والاعتقاد المفرط بصوابية الذات، سببًا في نشوب[2] كثير من الإقدام ضمن شبكة الدائرة المغلقة، على أنها كانت جديرة بأن تبدع وتنجح وتتفوق، لكن صدمة المعارضة لفكرة ما، والجدل حولها؛ جذبت اهتمام صاحبها، فخاض الحلبة، واستغرق فيها،

---

(١) المِقصَلة: آلة الإعدام، والمراد: إضاعة العمر وهلاكه.

(٢) أي: وقوع.

واستَنْفَدت كل اهتمامه، حتى لم يعد لديه المزيد للجديد.

إنهما طريقان، ومن السذاجة أن يقول قائل: يمكن هذا ويمكن هذا!

إنه ليس لك إلا بطن واحد، فإذا أكلَت حتى شبعت من الأطعمة السريعة غير ذات الجدوى، وشربت عليها المشروبات الغازية، لم يعد لديك مكان للأطعمة الجيدة والمفيدة، وإذا استغرقت وقتك قراءة وسماعًا ومتابعة وكتابة وردًّا وبحثًا حول قضية؛ لم يعد لديك مزيد اهتمام بغيرها، ويفوت عليك العمر، ويُقال: رحمه الله، أشغلته تلك القضية، وكان فيها مجتهدًا، ولكنها لا تستحق!

على أن المسارعة بالردِّ والجواب ليست حكمة؛ لأنها تكون غالبًا تسويغًا ودفاعًا، أكثر منها استفادةً لما يقوله الآخرون، وتأصيلًا للفكرة، وتهذيبًا بجوانبها وحذفًا لدخيلها.

فاصبر حتى تذهب فورة الحماس[1] والانفعال والحرارة، وتصبح القضية هادئة، وحينئذ يصح أن تَصرِف النظر بالكلية قناعة، أو تنظر بتوازن وحياد؛ لتستفيد، لا لتردَّ.

يقول المولى جل وعلا: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ:٤٦].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة:٩٣].

---

(١) أي: شدته وحموته.

ويقول تبارك اسمه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٣٦].

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على النبي الأمين.

●●●●

«الأذنُ الصَّماءُ هي أكبر دليل على العقل المغلق، وإذا لم تعوِّد نفسك على الاستماع بعناية وذكاء، فلن تحصل على الحقائق التي تحتاجها».

الفِكرُ المَأزُوم

الفكـر المـأزوم

....

ليس بإمكان المرء أن يعتزل المشاكل العامة والخاصة، وخاصة حين يعيش في العالم الإسلامي؛ فـ(٢٨) من (٣٠) صراعًا في الكرة الأرضية هي في العالم الإسلامي، وحين نتحدث عن العالم الإسلامي، فلسنا نتجاهل أزمات العالم كله، ولكن الفرق الرئيس العجيب أن أزماتهم ناتجة عن فائض القوة والتقنية، وأزماتنا ناتجة عن فائض العجز والتخلف!

هذا واقع مرٌّ مأزوم؛ بيد أنه من الخطأ أن نتحول إلى أناس مأزومين نفسيًّا وعقليًّا؛ فتؤثر الأزمة في تفكيرنا، وفي حياتنا العامة، وعلاقاتنا مع الآخرين، وحياتنا الزوجية الخاصة، وفي طريقة تناولنا للأشياء.

إن الاستغراق في المشكلات والأزمات وإخراجها من سياقها، ونسيان تيار الحياة اللَّجِب[1] المتدفق بانسياب وإيجابية، واختصار الأمة في أزمة يحوِّلها إلى أزمة شعورية وداخلية ونفسية، وينسيك هذا كله أن الحياة مكتظة بالفرص والإيجابيات، وأن الحكمة والذكاء تحويل الأزمة إلى فرصة.

إن التعامل السلبي مع أي أزمة هو تجاهل للواقع العام، واحتكار له في أحداث أو جوانب معينة.. وكل ذلك أو بعضه يكفي بجدارة لصناعة

---

(١) اللجب: الصَّاخب.

عقلية مأزومة، وفكر مشوَّه مريض.

وهناك فرقٌ بين مَن يَذْكُرُ أيَّ مشكلة أو أزمة في سياقها، وبين مَن تسيطر عليه وتصنعه، ويُلِحُّ عليها إلحاحًا كبيرًا، وقد تصنع عنده موقفًا فكريًّا وعاطفيًّا ونفسيًّا، وتصنع شخصيَّته، وينجم عن ذلك تضخيم للمشكلة، وتأزيم للفكر، وكأنها نهاية التاريخ و(هرمجدون) آخر الزمان، ومؤذن المهدوية.

إن عنصر الزمن يعطِي المشكلة حجمها الحقيقي، ويكشف الفرق بين تخيُّلِنا وبين واقِع الحال؛ ولهذا يقول بعض العلماء: إن الفتن إذا أقبلت عَرَفها العلماء، وإذا أدبرت عرفها كل الناس.

والغالب في الأزمات أن نتائجها وآثارها السلبية أقلُّ مما نظن، وأن التحليلات الإعلامية تعطِي بعدًا إضافيًّا للأزمة، وأن الخيال يجنح ويجمح في تطوراته المستقبلية، وقد قال المتنبِّي:

كُلُّ ما لَم يَكُن مِنَ الصَّعبِ في الأَنْـ ـفُسِ سَهلٌ فيها إِذا هُوَ كانا[1]

وقال آخر:

وَكُـلُّ الحـادِثـاتِ وإن تَنـاهَـتْ فَمَوصولٌ بِها فَرَجٌ قَريـبُ[2]

إن المعاناة في فلسطين أو العراق -مثلًا- هي مجرد انفجار موضعي للأزمة، لا يجوز أن ينسينا الأزمة القابعة في عقل ونفس كل فرد فينا.

---

(١) ينظر: ديوان المتنبي (ص٤٧٤).

(٢) نسب إلى علي بن أبي طالب ﷺ، ينظر: ديوانه (ص١٦)، ونسب إلى غيره أيضًا، ينظر: لباب الآداب (ص٣٦١)، وأمالي القالي (٢/ ٣٠٧)، والكشكول (٢/ ٥٢).

دعونا نعترف بمشاكل تفكيرنا وأزماتنا الشرقية؛ من التخلف والضعف والمهانة:

أَزَماتُنا في الشَّرقِ تَخطُف حولَنا ... كُتَلٌ تَبَدَّت حَولَها أَشْلاءُ
فَتَطَـرُّفٌ وتَخَلُّـفٌ وتَـعَـصُّـبٌ ... وهشاشةٌ وتعاسةٌ وخَـوَاءُ
بؤساءُ لا يَبْـغُونَ عـن عَادَاتـهـم ... حِولًا وما لفهُومِهم أَخْطَاءُ
رُزِئوا بتقـديـس الذَّواتِ كَأَنَّـهُم ... رُسُلٌ يُعَزِّزُ قـولَهم إيحـاءُ

دعونا نعترف بأننا نمارس تسلُّطًا واستبدادًا في الرأي، بحسب وسعنا وطاقتنا.. آخذين بقول العربي عمرَ بن أبي رَبِيعة:

إِنَّما العاجِزُ مَن لا يَستَبِد[1].

ونمارس ترفعًا على النقد والمراجعة والتصحيح والاعتراف بالخطأ، وإعجابًا بالرأي، وأحادية في الفكر، ومصادرة لآراء الآخرين، وانشقاقًا ذاتيًا أصبح معه شبه مستحيل أن نتعايش أو نتفاهم أو نتفق على عمل مشترك أو برنامج مشترك؛ حتى عجزنا عن رد الظواهر لأسبابها، والمشاكل لعللها في كسل عن التفكير المنطقي الطبيعي، وتباطؤ عن العمل البحثي أو العلمي أو الدعوي أو الفكري النافع.

وأصبحنا لا نرى الألوان الرمادية؛ فإما: (معنا) أو (ضدنا)؛ (أبيض) أو (أسود)، لا نرى مناطق الوسط والحلول الوسطية، إما: (حكم بالبراءة) أو (الإعدام)، و(مجتمع الملائكة) أو (الشياطين)، (قعر الجحيم)، أو

---

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص: ١٢٤).

(قمة الفردوس).

فَإِمَّا حَياةٌ تَبعَثُ المَيتَ في البِلَى وَتُنبتُ في تِلكَ الرُّموسِ رُفاتِي
وَإِمَّا مَمـــاتٌ لا قِيامَــةَ بَعــدَهُ مَماتٌ لَعَمري لَم يُقَسْ بِمَماتِ[1]

بيد أن منهج الشريعة في البحث والتقصي يعتمد على الفرز والتفصيل والتحرير، وعدم الجزاف.

والفكر المأزومُ مشوَّش بفعل التعصُّب، مما يعْني صعوبة الإصلاح؛ بسبب تترُّس أخطائنا بالدين، واختلاط الأمر لدينا بين الثبات على الحق، وبين الجمود على الرأي المجرد، ومن مظاهر هذا الفكر تدافع وتبادل التهم، وانتقائية أو جزئية في الطرح والتقييم والتفكير، وقطعية في غير موضعها.

وفي هذا العالم الإسلامي الكبير أزمة واحدة -أحيانًا- كافية لبثِّ الانشقاق والاحتقان للتراشق، والانشغال بالغير، مما يبرز سوءات النفس البشرية من التعصب والهوى، والتوسع في التأويل للكذب والعدوان، والبغي والقتل بأوهى الحجج وأضعف التأويلات، والسعي الجاد في إسقاط الآخرين، وكأنهم هم العائق في وجه النجاح!

ومأزوم الفكر، يغيب عنه في لحظة الحدث -بل في حياته العامة- التفكيرُ المنطقي السليم، ويتهرب من الاعتراف بقانون السببية؛ يفعل ذلك لرَدْم أخطائه ومشاكله ومظاهر الخلل والتخبط والظلم في منطقه وتفكيره. هذا من الناحية العلمية والفكرية.

---

(١) ينظر: ديوان حافظ إبراهيم (ص ٥٨).

وَتَغلُّبُ الأَثَرةُ، والإطاحة بالمخالف والتشنيع عليه، والكيل بالمكيالين في الناحية التربوية السلوكية، وتُحيلُه المشاكلُ إلى عاملٍ من عوامل ضياع ثروات الأمة البشرية والمادية والاقتصادية، والإخفاق في إدارة الأزمات الشخصية، فضلًا عن المجتمعية من الناحية الإدارية، وهي تجعل الفردَ فاشلًا على مستواه الشخصي والعملي والوظيفي، وربما تجده مع هذا كله متحدِّثًا جيدًا عن مشكلات العالم الإسلامي، وربما العالم كله، من غير أن يطرُفَ له جفن أو تهدأ له عين.

وبعد: فإن هذه الأزمات كلها شيء، وأن تكون في الفكر المأزوم قناعة الرِّضا بالذات، واعتقاد عدم وجود الخطأ أزمة أخرى؛ لأن معنى هذا الأخير هو عدم وجود القابلية للتصحيح والمراجعة، ومعناه باختصار: فقدان الخطوة الأولى في طريق التصحيح، وهو الجهل المركب، كما يسميه فقهاؤنا.

الذي لا يعرف ولا يعلم أنه لا يعرف؛ فحين لا يحس المرء بمشكلة في تفكيره وحين يشعر بالرضا عن الذات، والكمال المطلق، فهذه أم المشاكل.

يُقضَى عَلَى المرْءِ في أيَّامِ (أَزْمَتِهِ)
حتَّى يَرَى حَسَنًا ما ليْسَ بالحَسَنِ[1]

إن طلب الهداية من الله في سورة الفاتحة في كل صلاة، تشير إلى ضعف الإنسان المستمر، وحاجته للتصحيح في كل وقت، ونزع خصلة

---

(١) ينظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي (ص٤٧٦)، ونسبه إلى يحيى بن علي باشا الأحسائي المدني الحنفي.

الرضا المطلق السلبي عن الذات؛ لأن معنى هذا الشعور هو التوقف والجمود، نعوذ بالله من ذلك.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ آمين.

●●●●

«أنت لا تصنع شيئًا بنقل الأزمة من ميدان الحياة إلى ميدان النفس!».

مأزوم

مأزوم

....

أن تكون مأزومًا نفسيًّا؛ فليس بالغريب ولا المستنكَر في ظل أوضاع صعبة، تعيشها في دائرتك الفردية والزوجية والأسرية، أو يعيشها آخر في دائرة عمله ووظيفته وحقوقه، وثالث في دائرة همومه الواسعة للوطن والأمة...

لكن أن تغفل عن فعل التأزُّم في مخرجاتك وآرائك ومواقفك وكتاباتك وأحاديثك، فهو أمر مشكِل حقًّا؛ لأنه سيصلبُك على خشبة لا تملك التحرر منها!

جلستُ إليه، فوجدتُه ينتقد الحكومات بحرارة ومرارة واندفاع، وورد هنا خاطران: ليس هو أول مَن فعل هذا، والنقد لا يضير، ولعل من أقل حقوق المواطن أن يصرخ!

ثم انتقل إلى معارضيها؛ فأمطرهم بسيل من الذم الذي لا أفضِّل أن أسميه «شتيمة»، مضى الخاطر يقول: وجهان لعملة واحدة!

انتقل إلى العلماء فألغاهم بجرَّة قلم..

عرض مثالًا عمليًّا، فانتقد صاحب المؤسسة، ثم انتقد منتقديه بضراوة، ثم انتقد منتقدي المنتقدين..

وأنهم انقسموا أقسامًا..

فقسم: جامل ولم يصرِّح..

وقسم: تجاوز وغلا..

وقسم: آثر الهدوء..

ورابع: آثر الانسحاب..

وخامس: فاتني ماذا بشأنه.. أحكم الصورة السلبية على المشهد كله، فليس ثَمَّ موقف يُوصَف بأنه معتدل أو سليم أو عقلاني.. ولا التفات لجانب الحكمة والقدر!

ثم أحاط ذلك كله بإطار شرعي، فساق مُحْكَمات من النصوص، وقصصًا من السيرة النبوية؛ تجعل ما يقوله متعيِّن الصوابية، تامَّ المصداقية، وأن مَن يشغَب عليه، فهو مريض القلب، أو طامع بمكسب مادي، أو جاهل لا يعرف ما خرج من فمه..

وتحدَّث عمن يظن به تأزمًا؛ فشبَّهه بمن كانوا يرمون الأنبياء بالجنون!

يا أخي أنت لست نبيًّا معصومًا، والأنبياء اختارهم الله وصنعهم على عينه، وتعبَّد الناس بالإيمان بشخوصهم، وبما جاؤوا به، وأنت لست كذلك.

والأزمة النفسية ليست جنونًا ولا تقترب منه، وقد تَعْرِض للكبار فتطول معهم أو تقصر، والشأن في الوعي بالذات وعدم الاسترسال مع دواعي التأزُّم، وتحويلها إلى موقِف أو عقيدة أو مفاصلة مع الآخرين!

لا والله يا بني لستُ هازئًا ولا معيِّرًا..

وكيف يحقُّ لي ذلك، وأنا أدري أنك شاب فائق الأهمية عظيم النفع، وأن مستقبل الوطن الذي أنتمي إليه، والأمَّة التي أعتزُّ بها، منوط بك

وبأمثالك، ومرهون بصفاء نفسك واعتدالها الداخلي وهدوئها الراسخ، مهما ادْلهمَّ حولها الظلام، ودمرت الأعاصير، واشتدت عليها الخطوب !

لا والله يا بني، لست أعيبك بشيء لا أبرئ نفسي منه، وإن تفاوتت بيني وبينك المقادير!

تساءلت في نفسي: أَلَا يوجد في هذه اللوحة القاتمة بصيص من ضوء، يصلح أن يداوى به معلول التشاؤم والاكتئاب؟!

أَلَا يتوفر في نصوص الشريعة ما يكذِّب هذا التوهُّم المغرق في الانغلاق والتأزُّم؟!

هل يمكن لنفس أحاطت ذاتها بأسوار البؤس أن تعيش داخل بيتها الصغير مع زوجها وصبيتها عيشة الهدوء والرضا والاطمئنان؟!

أو أن تقيم علاقات وِدِّية طبيعية مع الآخرين من حولها ممن لا تشتمل نفوسهم على القدر ذاته من الاحتقان؟

هل يمكن لها أن تؤدِّي دورًا إيجابيًّا غير الهجاء والذمِّ والعتب والقصف المتواصل؟

التأزُم النَفسي هو انتحار مؤقت -إن صح التعبير- انتحار؛ لأنني لا أظنَّ أن متشبِّعًا بهذا الحزن الغامر يقدر أن يعيش حياة عادية، ولو في جانب من جوانب العيش الاجتماعي أو المعرفي أو الاقتصادي..

ومؤقت.. لأن الله يحيي الأرض بعد موتها، وقد يكون التأزُّم عابرًا؛ لأنه متصل بسبب خاص، كتوتُّر العلاقة الزوجية، أو فشل في مشروع جزئي؛ يعالج بتكرار المحاولة، أو تغيير الطريقة، أو تحريك الميدان..

وربما كان متصلًا بمرحلة من العمر.. وكم هو مؤلم أن تمضي فترة

الشباب بإشراقها وحيويتها وطموحها وأحلامها الجميلة؛ حبيسة أزمة نفسية استسلم لها صاحبها.

أشد ما في الأزمة أن اقتناع صاحبها بأنه مأزوم يعدُّ أشبه بالمستحيل، فهو مندفع بروح احتساب أو حماس أو إيمان فيما يحسب، وقصارى الأمر أن الآخرين نكلوا وتخلُّوا، وصاروا يرمونه بالتأزم، لأن هذا كل ما يملكون..

جرَّبت أن أقنع صاحب معاناة نفسية بأن ما يراه أو يتصوره هي تهيُّؤات وظنون لا حقيقة لها؛ فوجدت الأمر في غاية العسر والمشقة.

اقترحت على أحدهم أن يلقي على نفسه سؤالًا: هل أنا مأزوم فعلًا؟ دع خصومي فليقولوا ما شاؤوا.. لكن ما أعرفه في قرارة نفسي، أو في حياتي الشخصية الخاصة، أو في مشاعري الذاتية، هل تعطي هذا الانطباع بأنني مأزوم فعلًا؟

إن وعيي بأنني مأزوم هو مكسب ضخم؛ لأنه يعني بداية النهاية للمعاناة، ويعني تبعًا أن الأمة كسبت عقلًا جديدًا ونفسًا هادئة، ولغة معتدلة، وفرق بين أمَّة هي مجموعة من المتأزِّمين، وأمة أخرى لا تعيش الأزمة إلا في هوامشها وضفافها..

في التنزيل مصطلح «السكينة» وهو خيرُ محاصرة للأزمة أن تنتقل من الحياة إلى أعماق النفوس ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٤]، تنزل السكينة في أوقات الشدة؛ لئلا تتحول الشدائد إلى سبب للافتراق والخصام والتشاحن والتطاحن.

نزلت السكينة في الحديبية: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ

تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ [الفتح:١٨].

نزلت السكينة في حنين: ﴿ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾ [التوبة:٢٥-٢٦].

دعا بها رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم في المواقف الصعبة:

«فَأَنْزِلَن سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّت الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَينَا»[1]

السكينة تثبيت من الله، تستقرُّ به النفوس من زلزالها، وتهدأ من انفعالها، وتَضْرع إلى ذكر الله، فبذكر الله تطمئن القلوب، بدلًا من الانفعال مع التأزم بما يحدِث الشرخ داخل المجتمع، ويكون فتنة للمحب والكاره على حد سواء..

السكينة من الله ﴿ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، فمَن قويت علاقته بربه لم ييأس بما يرى أو يظن، ولم تتسلل أشباح المؤامرة ومخاوفها إلى قلبه ونفسه، ولم يداخله عُجب أو رؤية للذات توهمه أن انفراده بسبب الصدق والصفاء والنقاء الذي يملكه هو ولا يملكه الآخرون..

نعم! قد يظن نفسه هكذا.. وهنا تفضي الأزمة إلى خلق آخر: الكبر «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»[2]، فاللهم بصِّرنا بمواطن الضعف في نفوسنا.

●●●●

(١) أخرجه البخاري (٤١٠٦)، ومسلم (١٨٠٣) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

«الشخصية القتالية ليست هي الشخصية البناءة، إنها تتعامل وكأنها مطرقة، وكأن كل شيء حولها هو مسمار».

مراجعات ومماحكات (١)

مراجعات وممانعات (١)

اتسعت دائرة العنف في العمل الإسلامي في عقودٍ مضَتْ، وصنعتْ مزاجًا نفسيًّا متعاطفًا مع الأعمال التدميرية في البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، ولو تصفَّحت بعض المواقع الإلكترونية، أو شاهدت التعليقات على الموضوعات ما أخطأك هذا المعنى.

فالعديد من الشباب الناشئين؛ يملكون حماسًا قويًّا لإعزاز الإسلام ورفعته، وحنقًا على القوى المعادية التي تتآمر على المسلمين، دون أن يكون لديهم خطة طريق واضحة لهذا الهدف الشمولي، لقد صارت المقارنة السريعة بين تاريخ لا يُرى فيه إلا الإشراق، وحاضر لا يُقرأ منه إلا التخلف والسلبية؛ أعظم سبب لزرع التوتر في النفوس، وهذا من شأنه أن يفرز انفعالًا شديدًا على الصعيد الفردي، واستقطابًا على الصعيد الجماعي، وكأن كل مَن ينادي بالرفق أو الحكمة أو التبصُّر أو الدعوة بالحسنى؛ فهو متآمر يضمر في دخيلة نفسه الشر .

ولا يجد الشاب عسرًا في تأويل نصوص قرآنية، كمثل قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل:١٢٥]، وقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى**

الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»[1].

بيد أن الصعوبات والإخفاقات والنتائج السلبية التي رآها المخلصون عبر سنوات تزيد على الثلاثين؛ جعلت العقلاء يُعيدون النظر في كثير من الطرائق والأساليب، ويصلون إلى نتيجة مفادها عدم تحميل الإسلام مسؤولية اجتهاداتهم الخاصة ورؤيتهم الشخصية وتجربتهم الذاتية، بل والاقتناع بأن من الولاء الصادق لهذا الدين وحَمَلَتِه وأهله، وأن من الشجاعة المتناهية والحقيقية الوقوف مع النفس قبل الآخرين ومحاسبتها ومراجعتها، فلماذا نطلب من الناس أن يصححوا ويراجعوا، ولا نطلب ذلك إلى أنفسنا، مع وجود المعيار الحق من الكتاب والسنة الصحيحة والقواعد الأصولية والفقهية والمصالح والمفاسد المقدَّرة بالنظر الصحيح، ومشاهدة الواقع، دون صدود أو إعراض، بحجة ما يمكن أن يحدث مستقبلًا، فالإحالة على المستقبل هي إحالة على غيب، ولابد أن تكون دلالات الحال مرشدة إليه، فليس من الصواب أن أتعامى عن سلبيات ضخمة يكتظ بها واقع بلدٍ إسلامي، بسبب الإصرار على المواجهة؛ متعللًا بأن المستقبل سيحسم هذه المشكلة، فالمستقبل هو عادة من جنس الحاضر، وأحيانًا يكون دونه، إذا لم يكن ثَمَّ خُطط سليمة لإصلاحه، فليس من الحكمة والرشد التعويل على نهايات مفتوحة غير محددة، ولا معلومة التوقيت، ولا محققة الحدوث.

وفي هذا السياق أعجبني ما أصدره مجموعة من الشباب في ليبيا من دراسات تصحيحية، في مفاهيم الجهاد والحسبة والحكم على الناس،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهو كتاب في (٤١٧) صفحة وتسعة أبواب، انتهوا فيها إلى نتائج متوازنة وهادفة، بعيدة عن التجريح وردود الأفعال، واستفادوا من دراستهم النظرية، وتجربتهم العملية التي عاشوها ومروا بها .. والنتائج التي دُوِّنت في هذه الدراسة حول القضايا المطروحة؛ متفقة مع ما قرره أهل العلم والسنة، وقد اعتمدت على الأدلة الصحيحة، واستأنست بأقوال الأئمة والعلماء من المتقدمين والمتأخرين، واتسمت بالاعتدال في لغتها ونتائجها، والهدوء في معالجتها، وظهر فيها الإشفاق على الأمة عامة، وخاصة على الشباب المسلم، والذي يحدث من بعض أفراده وفئاته شيء من الاندفاع غير المدروس، والحماس غير المنضبط.

ولئن كانت هذه النتائج عادية عند أقوام نشؤوا عليها، وتَرَبَّوْا منذ نعومة أظفارهم على مفاهيمها ؛ فإنها تعد شجاعة محمودة، وتقوى لله تعالى، وتعاليًا على الهوى والذاتية ؛ حين تصدر من إخوة سلكوا طريقًا آخر، ثم بدا لهم أنه لا يوصل إلى المقصود، فأعلنوا ذلك، حرصًا على أن يبدأ الآخرون من حيث انتهوا، وليس من حيث بدءوا، وسعيًا إلى التصحيح والتصويب الذي هو لب الدعوة، ورأس الإصلاح، ودعامة المنهج ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨]، ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وإذا كان النبي ﷺ في عاديات المسائل يقول: «**إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ أَرَى خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي**

هُوَ خَيْرٌ»[1]. فكيف بما هو فوق ذلك، مما فيه حفظ وحدة الأمة، وحقن دمائها، وحياطة سمعتها من ألسن الإعلام العالمي، والذي أومأ إليه النبي ﷺ في قوله: «**لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[2]. وهذا في شأن أقوام مأذون شرعًا بقتلهم، فكيف بمعصومي الدم والمال والعرض من المسلمين؟! أو من غيرهم ممن حقنت الشريعة دماءهم، وحفظت حقوقهم؟

وإذا كان عمر يقول لأبي موسى رضي الله عنهما: «لا يَمنعنَّكَ قضاءٌ قضيتَهُ بالأَمسِ، راجعتَ فيه نفسكَ، وهُدِيتَ فيه لرُشدكَ، أن تراجع الحقَّ؛ فإنَّ الحقَّ قديمٌ»[3]. وهذا في مسائل اجتهادية وليها القاضي بموجب عقد الشرعية، فكيف بالتقحُّم في مسائل ذات شأن عام، وخطر واسع، ممن ليس من أهلها، بمجرد الجرأة ونقص التقوى؟

إن هذا التدوين العلمي الهادئ الرصين، المدعوم بالأدلة؛ لهو من خير ما تمخَّضت عنه التجارب المتكررة للمواجهات المسلحة في أكثر من بلد، ومثل هذا يجب أن يؤخذ بمصداقية وجديَّة وتشجيع؛ حفظًا للشباب من الوقوع في مآزق الانحراف الفكري والسلوكي، وتوجيهًا لطاقتهم في الدعوة والبناء والإصلاح والتنمية والمشاركة في الحياة العملية بكافة صورها، وحفظًا للأمة كافة من التشرذم والتشتت، والصراعات الداخلية.

إن صدق النيات ونبل المقاصد من أهم ما يجب العناية به، فمَن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٣)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه (ص ٢٢).

صحَّت نيته، فالغالب أنه يُعصم بإذن الله، وإذا تجرَّد المرء من الشح والهوى والأنانية، فهو مظنة أن يدركه لطف الله.

أريد أن أكون صريحًا مع أبنائي وبناتي بهذا الخصوص .

أجد تعليقات مُرة على مثل هذه الأطروحات التصحيحية، وتصويرًا لها من بعض الفتيان وغيرهم، وكأنها نكوص عن الطريق أو ضعف، وكأن المطلوب هو الإصرار والعناد وأن يوضع الرأس في الجدار مهما تكن الآثار، وكأن السيرة النبوية لم تشهد صبر مكة، ولا تجرع المرارة بحضرة سيد ولد آدم، ولا محاسنة سكان المدينة من وثنيين ويهود ثم منافقين ونصارى، ولا إطلاق أسرى بدر أول معركة فاصلة، والتي سماها الله تعالى (يوم الفرقان)، ولا العفو عن غَوْرَثِ بن الحارث، ولا إطلاق ثُمامة بن أُثال، ولا المَنِّ على أسارى بني المصطلق، ولا معاهدة اليهود، ولا صلح الحديبية، ولا حقن الدماء بمكة بعد الفتح الأعظم .. إلخ

وهذا كله في جهاد شرعي قطعي، يقف على قيادته نبي من أولي العزم، نعم أولي العزم، بل هو أفضلهم، مما يدل على أن العزم هو في إحكام النفس وإلزامها بمقتضى العدل والرحمة والحكمة والإخبات لله الواحد القهار، والتنصل من تبعات الأثرة وحب الذات، والإمعان في رفض الاستجابة لدوافعها الخفية ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٥].

فكيف بمحاولات ليس لها عصمة، ولا وقع عليها قطع أو إجماع، ولا أقرَّتها مجامع علمية، ولا دعا إليها فقهاء معتبرون، ولا تمحضت عنها نتائج مشجعة؟!

لا يشك الإنسان في نيات هؤلاء المنتقدين غالبًا، وهذا بالضبط هو مدعاة الحزن والألم، لقد قال رجل لابن عمر: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٣]، فقال: «قاتلنا حتى لم تكن فتنةٌ، وكان الدينُ لله، وأنتم تريدونَ أن تقاتلوا حتى تكون فتنةٌ، ويكون الدينُ لغير الله»[١].

كم من مريد للخير لم يبلغه، وإن الله تعالى على قلب كل امرئ ولسانه وقلمه، فلم يسترسل المسلم في كتابة أو كلام أو نقد أو تجريح أو استحلال دماء أو تأجيج فتن، لا يدري أبعادها، وهل وجود الأداة (الإنترنت) معناه أن يقول المرء ما يخطر على باله، دون مراقبة أو خوف من الله؟

●●●●

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٥).

«المفكِّرون الكبار -أصحاب الأفكار العظيمة- يمكن نبذُ أفكارِهم ورفضها من قبل البسطاء، ذوي العقول الصغيرة..».

مراجعات ومماحكات (٢)

مراجعات وممانعات (٢)

أتذكّر أحيانًا الحكمة العظيمة، التي نطق بها زُهير بن أبي سُلمى، وكأنه كان يتجول في فضاء الإنترنت، حين قال:

وَذي خَطَلٍ في القَولِ يَحسِبُ أَنَّه مُصيبٌ فَما يُلمِم بِهِ فَهوَ قائِلُـهْ!
عَبَأت لَهُ حِلمًا وَأَكـرَمت غَيـرَهُ وَأَعرَضت عَنهُ وَهوَ بادٍ مَقاتِلُهْ[1]!

إذا كان النبي ﷺ يقول: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[2]. ويُحذِّر من الغيبة: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[3]. فَلِمَ الجرأة على أعراض المسلمين؟ ولِمَ الاستخفاف بدمائهم، تحت ذريعة موهومة.

إنني أشعر بمسؤوليتي أمام الله تجاه هذه القضايا، وأجدني غير حزين على ألفاظ قاسية يطلقها أخوة أحبة هنا أو هناك.

هَنيئًا مَريئًا غَيرَ داءٍ مُخامِرٍ لِعَزَّةَ مِن أَعراضِنا ما اِستَحَلَّتِ[4]

---

(١) ينظر: ديوان زهير بن أبي سلمى (ص٩٢)، وشرح ديوان زهير للأعلم النحوي (ص٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) ينظر: ديوان كُثَيِّر عزَّة (ص١٠٠).

ومن هنا أُصِرُّ على تكرار مثل هذا الموضوع وعرضه والتذكير به، لأن مهمتي هنا ليست تطييب الخواطر أو التربيت على الأكتاف، حقًّا يحزنني أن يتألم أحد بسببي، لكن لا خيار لنا هنا في المصارحة والمكاشفة، دون تعدٍّ أو ظلم، إلا أن يكون شيئًا غير مقصود.

لقد غدت أعمال تصدر عن (تنظيم القاعدة)، أو عن (أسامة بن لادن)؛ تأخذ طابع العصمة عند بعض الأتباع، وكأن نقدها خط أحمر، وكأننا لم نسمع حديث النبي ﷺ لسيف من سيوف الله: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ**»[1].

حتى صار بعض الشيوخ يتحرَّج من التصريح بالنقد، ولو كان بأسلوب رصين، خوفًا من سلقه بألسنة حداد ومقاريض شداد، أو التشنيع عليه بشتى التهم.

أحد الأحبة قال يومًا: يخطؤون كما أخطأ الصحابة!

فاجبته: وهل اجتمع الصحابة على خطأ؟!

أم هي مفردات هنا وهناك، خالفها الجمُّ الغفير منهم، وأعلنوا النكير عليها، ثم إن موضع الأسوة بالسلف عامة هو فيما أصابوا فيه، وليس ما أخطؤوا، والخطأ يستغفر لهم منه، ولا يوضع قاعدة يتأسى بها الخالفون.

بل عنصر الجمال في خطأ ينسب للصحابة، أو مَن بعدهم من سلف الأمة هو الاقتداء بقبول التصويب، وسرعة الاستغفار وعدم الإصرار، وإعلان الندم على الخطأ وإنكاره على الملأ؛ كما حدث لخالد بن

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣٩) ابن عمر رضي الله عنهما.

الوليد، ولأسامة بن زيد، أو لحاطب بن أبي بلتعة، ولجماعة من الأنصار، ولبعض أمهات المؤمنين، ولبعض السابقين ﷺ؛ فيكون النكير علانية لخطأ مكشوف معلن، وليس بالهمس أو التستر، وها نحن في القرن الخامس عشر نردِّد ما قاله سيد ولد آدم؛ لخالد أو أسامة أو أبي بكر أو عمر أو علي أو عائشة، أو مَن اشترطوا شرطًا باطلًا في بيع، أو مَن أخذ مِن مال الصدقة ما لا يحل له .. في ضروب وصنوف من التصحيح ؛ يجدر أن نتأسى بها في نفوسنا وأفرادنا وجماعاتنا وحكوماتنا .

وإني أعلم يقينًا أن لو أعلن أحد قادتهم اعتراضه على هذه الأعمال، أو تراجعه عنها، أو تبرؤه مما نسب إليه منها، وهو لا يقر به ؛ لناله مثلما نال المعترضين المستنكرين من الوقيعة من بعض الأتباع .

وهي فرصة أن أجدد الدعوة إليه أن يراجع الحق؛ فإن الحق قديم، وألَّا تأخذه في الله لومة لائم، ولا عذل عاذل، وأقول له: (العار ولا النار).

على أنه ليس في الرجوع إلى الحق عار، وإنما العار في الإصرار، وإن شلال الدم المتدفق في الجزائر والصومال وغيرهما، والمرشح للانفجار في مواقع أخرى ؛ ليتطلب من كل مَن في قلبه غيرة على الأمة وأبنائها أن يسعى في التدارك، وألَّا يكون ظهيرًا لأعمال العنف العشوائية المتلاحقة، والتي لا ثمرة لها ولا طائل من ورائها إلا المزيد من الفشل والإخفاق وذهاب الريح .

وأُذكِّر كلَّ مَن غمس يده أو لسانه في هذا البركان الحارق؛ بالموقف بين يدي رب العالمين ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]، حين «**يَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرى إِلاَّ مَا**

قَدَّمَ، وَيَنظُرُ بَيْنَ يَدَيهِ فَلاَ يَرَى إلاَّ النَّار»[1].

يوم يكون أول ما يسأل عنه من حقوق الناس الدماء[2]، فلا يزال المؤمن في فسحة وفرج ما لم يصب دمًا حرامًا[3]، فإن أصاب دمًا حرامًا هلك، وإن أعان على سفك دم، ولو بشطر كلمة، خشي عليه أن يجد أمامه مكتوبًا «آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّه»[4].. نسأل الله السلامة.

قال لي أحد الشباب يومًا: كلامك حق وصحيح، ولكن في أسلوبك شدة على هؤلاء الشباب؟

فقلت له: ماذا سمعت من الشدة؟

قال: إنك تقول إنهم متعجِّلون!

قلت: نعم. قالها رسول الله ﷺ للسابقين الأولين بمكة، ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه: «وَاللَّه لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[5].

على أني أقصد بالعجلة هنا تفويت مقام التعلُّم والبحث والدراسة والهدوء والنظر قبل الفعل، ولست أعني أنهم مصيبون فيما يفعلون ولكنهم أخطؤوا التوقيت كما قد يفهمه أحد، أو يقول به أحد، وهذا فرق

---

(١) كما في حديث عدي بن حاتم ﷺ: أخرجه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).

(٢) كما في حديث ابن مسعود ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ». أخرجه البخاري (٦٨٦٤)، ومسلم (١٦٧٨).

(٣) كما في حديث ابن عمر ﷺ: أخرجه البخاري (٦٨٦٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٦٢٠)، وأبو يعلى (٥٩٠٠)، والبيهقي (٨/ ٢٢).

(٥) أخرجه البخاري (٣٦١٢) من حديث خبّاب بن الأَرَت ﷺ.

ما بينهم وبين الملأ من الجيل الأول العظيم الذي قام عليه الإسلام، ممن تجردوا من حظ النفس، واستعدوا للتصويب، وكان هواهم تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، وكانت معركتهم مع الوثنية الصريحة، والشرك المعلن المفضوح المتفق عليه بلا نزاع، وكان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا[1]، وقد تعرَّض النبي ﷺ للأذى ومحاولة القتل، وقُتل من أصحابه مَن قُتل، وربَّى هؤلاء الرجال على عدم الانتصار للنفس أو الغضب لها، فكانت أمورهم كلها لله؛ غضبًا ورضاء، حربًا وسلمًا، قربًا وبعدًا، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

والتصحيح ليس حكرًا على الجماعات المقاتلة التي حملت السلاح يومًا من الدهر، بل العمل الإسلامي كله بحاجة إلى تصويب مستمر وتدارك دائم للأعمال والتحزبات السياسية، والجهود الإعلامية، والبرامج الاقتصادية، والمؤسسات الخيرية.

كما إن التصحيح مهمة الحكومات العربية والإسلامية؛ فهي أولى وأجدر بالمسارعة إلى جعل نظام الشريعة الربانية موضع التنفيذ، وإحلال قيمها العظيمة؛ كالعدل والشورى والمساواة والعفة، محل القيم الغربية، وهي أجدر بتشجيع الناس على المراجعة والتصويب، وفتح الباب أمام الشباب لتصحيح المسار، ومنح الفرص الميدانية والعملية لكل الذين راجعوا الحق أن يعيشوا حياتهم بأمان؛ على أنفسهم وأعمالهم ووظائفهم وأهليهم، وأن يحتفظوا بحقوقهم السياسية وغيرها، على أن العدل والإنصاف واجب لكل أحد، حتى لمَن جاروا عن السبيل؛ فالظلم

---

(١) كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أخرجه البخاري (٢٤٧٨)، ومسلم (١٧٨١).

والعدوان والبغي محرم؛ حتى مع الكافرين، فضلًا عن المؤمنين، ولا يحفظ المجتمع من ردَّات الفعل والأعمال الانتقامية المتبادلة إلا العدل وحفظ الحقوق[1].

(١) وللاستزادة يمكن الرجوع إلى كتابي الالكتروني: (مداخلات في العنف).

«لا تكن من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم؛ فهي الخسارة التي لا تعوَّض».

التعايش مع النفس

التعايش مع النفس

عِش، ودع الآخرين ليعيشوا، وامنحهم الحق في ذلك كما منحت نفسك، ولا تعتبر وجودك يقوم على أنقاضهم، ونجاحك على تدميرهم؛ فالطرق شتى، والفرص التي خلقها الله تعالى بعدد الخلق، بل بعدد أنفاسهم، حتى طرق الجنة لا حصر لها، وفي الصحيح: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ»[1]، وقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون:١١].

ولما عاتب أحد الوعاظ مالك بن أنس رحمه الله في قعوده ومجلسه.. قال: «كلانا على خير»[2].

هذا هو معنى التعايش المأخوذ من العيش المشترك بين طرفين، سواء كانوا أشخاصًا أو أسرًا أو مجتمعات، ومنه تعايش الإنسان مع نفسه، بأن يكون صادقًا معها ﴿ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩]، ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد:٢١]، و«الصِّدْقُ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ»[3].

وإذا كان الصدق عند كثير من الناس ومضات وإشراقات ما تلبث أن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) ينظر: التمهيد (٧/ ١٨٥)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ١١٤).

(٣) كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

تختفي؛ فإن الصدق عند رئيس الصِّدِّيقين أبي بكر ﷺ كان ديمومة مستمرة لعمل الصدق مع النفس، بالوضوح في الملاحظة والمعالجة والمحاسبة.

كل منا داخل نفسه وقلبه مصباح أو شعلة، والمفترض أن يسلِّط هذا المصباح على داخلة نفسه، ويجيله في أطواء ضميره، ومخبَّآت قلبه؛ بيد أن الكثيرين يسلِّطون المصباح على غيرهم، نقدًا وعيبًا وبحثًا عن الزلَّات والأخطاء، ومحاصرة لهم، وأخذًا بمخانقهم:

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيْمًا مِـــنَ الأَذَى
وَحَظُّكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَيِّـنُ
لِسَانُكَ لَا تَذْكُرْ بِهِ عَــوْرَةَ امْــرِئٍ
فَكُـلُّـكَ عَـوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ
وَعَيْـنُـكَ إِنْ أَدَّتْ إِلَيْـــكَ مَعَايِبًــا
فَصُـنْـهَا وَقُلْ يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنُ
وَعَاشِرْ بِمَعْرُوفٍ وَسَامِحْ مَنِ اعْتَدَى
وَجَادِلْ وَلَكِنْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ(١)

في تتبع الآخرين بإمكانك أن تلاحظ كثيرًا ممن يعرف الناس ولا يعرف نفسه، ولهذا مَن استقرأ ما كتب الشعراء والأدباء وجدهم يتشوفون إلى إنسان صادق؛ يطمئنون إلى صدقة، ويركنون إلى أمانته.

والناس يَتُوقُون إلى صاحب المصداقية في نفسه وأقواله وأفعاله ومواقفه وقناعاته، كما يقول الحسن رحمه الله: «خير الناس مَن وافق قوله فعله، وصدَّق

---

(١) ينظر: ديوان الشافعي (ص٨٤).

سريرته علانيته»؛ ليكون منسجمًا مع ذاته في معرفة مواهبه وطاقاته وقدراته، ومعرفة عقله ونفسه؛ فإن معرفة الإنسان لنفسه هي المنطلق لقدرته على التعايش مع النفس؛ ما لها وما عليها:

دَواؤُكَ فيكَ وَما تُبصِرُ ... وَدَاؤُكَ منكَ وَما تَشعُرُ
وتَزعُمُ أَنَّكَ جُرمٌ صَغير ... وَفيكَ انطَوى العالَمُ الأَكبَرُ[1]

فالنفس عالم هائل ضخم، تكتنفها الطلاسم وتحوطها الألغاز والأسرار، والكثير لا يتقنون قراءة أنفسهم بشكل جيد ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذريات:٢١]، فقد يظن الإنسان نفسه أوسع الناس صدرًا، وأطولهم حبلًا، وأبعدهم أَنَاة وحكمًا ومداراة؛ وأفعاله تنمُّ عن غير هذا !

إن ثمت دعوة مُلِحَّة تفرض نفسها كبديل عن بث التهم في كل اتجاه، مُؤَدَّى هذه الدعوة: أن افهموا أنفسكم وأقبلوا عليها، فأنت بالنفسِ لا بالجِسم إنسانُ.

قبلَ أن نلقي بالتبعات واللَّوم على غيرنا، ينبغي أن نلوم أنفسنا أولًا، وليس معناه أن نكون قساة مع أنفسنا ظالمين لها، مُفْرطين أو مفَرِّطين، بل على العدل قامت السماوات والأرض، إن النظر في أدواء النفس هو أول سبيل البصيرة، وإلا فالعمى والتيه!

إن النفس الإنسانية أمانة عند صاحبها ائتمنه الله عليها، وأوجب حسابه على حفظها ورعايتها ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن

(١) ينظر: روح المعاني للآلوسي (١/ ٨٢)، (١٥/ ٣٩٥)، ونسبه إلى علي ﷺ، ونُسب إلى غيره أيضًا.

يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ﴾ [النساء:٢٩]، فالانتحار «القضاء على وجود هذه النفس الإنسانية» عقوبته النار؛ «بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ، حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»[١]. و«مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا[٢] فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[٣].

كما أنه من أشكال قتل الإنسان لنفسه أن يئدها معنويًا، بمنعها من الخير، وتدسيتها[٤] بحملها على المعاصي؛ فالنفس قد تنتفض على صاحبها، وتطالبه بتزكيتها، كما تطالبه بشهواتها، فيقمعها كما يقمع الحاكم الظالم المستبد مَن تحت يده، وكما قيل: قد تكون أميرًا لكن على نفسك.

إن معرفة النفس أصل في التعايش، ولهذا ورد عن بعض السلف: «من عرف نفسه استراح»[٥].

إن جزءًا كبيرًا من أدبياتنا وتعاملنا مولع بإلقاء التبعات على الآخرين؛ والدًا ووالدة وأسرة ومجتمعًا وحاكمًا، بل وعلى العالم كله، فهم سبب إخفاق مشاريعنا وخططنا، ووأد نبوغنا وتميزنا؛ لتخرج النفس من المحاسبة والمحاكمة، وتتسلل لواذًا نائية بنفسها عن النقد والمراجعة والتصويب، بينما أحد التقارير يقول: إن ما يأتيك من الناس يؤثر فيك بنسبة (٢٠٪)، بينما ما يأتيك من داخل نفسك وردة فعلك تجاه الآخرين يمثل (٨٠٪).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٣) من حديث جندب بن عبدالله ﷺ.

(٢) أي: يطعن بها.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٧٨)، ومسلم (١٠٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) أي: إغوائها.

(٥) ينظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (٢/ ٢٣٩)، وينظر: المقاصد الحسنة (١١٥٠)، وكشف الخفاء (٢/ ٢٦٢).

إن مما ينعكس سلبًا على نفسية الإنسان وتعايشه تلك الأجندة الواسعة، والقائمة الطويلة، والتي محتواها: أن الآخرين يحيكون لنا مؤامرة كبيرة، ويتقصدوننا بالإساءة. فننظر إليهم على أنهم أعداء متربصون؛ حتى يؤدي ذلك إلى إسقاط الآخرين، وإسقاط الإنسان ذاته أيضًا، نتيجة عدم القدرة على قراءة النفس بطريقة صحيحة.

إن من القراءة الصحيحة اعتماد سلوك الإنصاف، يقول عمار ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فقد جمع الإيمانَ...»، وذكر: «الإنصافُ مِن نفسِك»[1]. يقول ابن حزم رحمه الله: «مَن أراد الإنصاف فليتوهم نفسه مكان خصمه، فإنه يلوح له وجه تعسفه»[2].

والكثير من الناس عند التعامل يضع يده على طرف الكفة لترجح له بانتقائية عجيبة؛ فهو مع نفسه لون، ومع الناس لون آخر، وهذا تطفيف معنوي نهى الله عنه ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور:٤٩].

التعايش.. مصالحة مع الذات، ومَن فقد ذلك اهتز لكل طارئ، سواء كان سياسيًّا، أو اقتصاديًّا، أو اجتماعيًّا.. فهو لا يأوي إلى ركن شديد من معرفة نفسه، ومعرفة ربه -قبل ذلك- بأسمائه وصفاته العلا، ولو تم له ذلك لأفلح وأنجح، «تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[3]. والشدة

---

(١) علقه البخاري في كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام، ووصله معمر في جامعه (٢٣)، ووكيع في الزهد (٢٣٥)، وابن أبي شيبة (٣١٠٨٠)، والطبري في تهذيب الآثار (١٩٤- ١٩٦ - مسند عمر)، واللالكائي في الاعتقاد (١٣٧٤)، والبيهقي في الشعب (١١٢٣٩).

(٢) ينظر: الأخلاق والسير في مداراة النفوس (ص٨٢).

(٣) جزء من حديث وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «احْفَظِ اللَّـهَ يَحْفَظْكَ...». أخرجه أحمد (٢٦٦٦)، والترمذي (٢٥١٦)، والحاكم (٣/ ٥٤١)، والبيهقي في الشعب (١٠٠٠٠)، وغيرهم.

هي الأزمة، ولا يتعلق الأمر بالأزمات فقط، بل بالأحوال المستقرة أيضًا.

لقد وضع الله سبحانه وتعالى الأرض للناس ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن:١٠] نعم: الأنام (=الناس) كلهم، وليس للمسلمين فقط، وهذه الأرض تشهد تغيرات هائلة، وتحولات حادة على كافة الصُعد، والله عز وجل عالم بها وبما سيحدث فيها، وعلم الرسل والأنبياء بأن طريقهم في التعامل مع عوالم هذا الأرض ليست الرفض المطلق، حتى لو كان الأمر خطأً محتملًا، فعملهم مقرون بالقدرة، والإجماع منعقد على أن الواجبات الشرعية مرهونة بها، وكان النبي ﷺ يقول لـمَن يبايعه على السمع والطاعة: «فِيمَا اسْتَطَعْتُمْ»[١].

ومن الخطأ أن يتجاهل الإنسان الواقع منطلقًا من رؤية خاصة به يمنحها أدلة شرعية؛ فالإسلام يتعامل مع الواقع وبطريقة واقعية أيضًا، ولم يفترض عالمًا مثاليًا خاليًا من الاضطرابات والمظالم والأخطاء لكي يتعامل معه.

إن العجب ليأخذ المتأمل كل مأخذ من هذا النبي عليه الصلاة والسلام الذي أقام ملَّةً، وأنشأ دولة، وأحيا الله به قلوبًا غُلفًا، وآذانًا صُمًّا، وأعينًا عميًا- عندما يترك بناء الكعبة على وضعها الذي يراه مجانبًا للصواب؛ خشية حصول مفسدة أعظم، وأن القوم حديثو عهد بجاهلية[٢].

وفي صلح الحديبية مسح البسملة وأبدلها بـ «بسمك اللهم» ومسح

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٠٢)، ومسلم (١٨٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أخرجه البخاري (١٥٨٦)، ومسلم (١٣٣٣).

لفظ: «رسول الله» وأبدله بـ «محمد بن عبد الله»[1].

إن النبي ﷺ يعلم أنه رسول الله، وأن (بسم الله الرحمن الرحيم) شريعة، ولا مزايدة على ذلك؛ لكن قضية التعايش مع الآخرين ومع الواقع بآلياته، لا يعني الاعتراف بالخطأ أو تبريره أو فقدان الهوية والضياع، إنما تعني أننا نعيش واقعًا ويجب أن نفكر مَلِيًّا، وأن ندرس عمليًّا وشرعيًّا كيف نتعامل مع هذا الواقع بطرق سليمة، تحقق المصلحة وتدفع المفسدة، وهذا ما تختلف فيه مدارك الناس ومشاربهم وتصوراتهم.

●●●●

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٤) من حديث المسور بن مخرمة ﷺ، ومروان بن الحكم، ومسلم (١٧٨٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

«إذا لم يكن لديك سلَام،
فهذا معناه أنك أنت الذي
فرَّطت فيه، وليس أن شخصًا
آخر سلبه منك!».

سلام الضمير

سلام الضمير

السلام مع النفس، هو أول خُطوات السلام، وإذا عاش المرء وِئامًا مع نفسه استطاع أن يصنع هذا الوِئام مع الآخرين، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، ويقول المؤمن في صلاته: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِين». بل جاء في لغة القرآن إطلاق النفس على المجموع كما ههنا؛ فمن الإشراق في أعماق النفس ينبثق السلام.

السلام مع النفس، أن تكون العلاقة قائمة على وضوح الأهداف، وشفافية المقاصد، وصفاء التعامل، والانسجام الداخلي.

إن أحق ما يعرفه الإنسان بعد معرفة ربه، هو أن يعرف نفسه، وينشغل بتكميلها وإصلاحها، قبل انشغاله بغيره.

كما يتعرف على مواهبها وقدراتها وطاقاتها، ومحاور ضعفها وقوتها، وهل تتصف نفسه بالصبر أو بالجزع، بالاستعجال أو التأنِّي، بالخجل أو الجرأة والإقدام؟ هل فيها صفة الدأب والاستمرار، أو الملل والانقطاع؟

وهذا من شأنه أن يجعل الإنسان يقف على حقيقته؛ فيستطيع أن يسير

في الاتجاه الصحيح، موظِّفًا قدراته ومستغلًّا إمكاناته.

وليس من معرفة طبيعة النفس وسلبياتها وإيجابياتها، أن يقع الإنسان في فخِّ البحث عن كنه وماهية الروح، فهو جهد ضائع، لن يتعدى النص المحكَم، وقد قال الله عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥].

ولكن أن تقف على حدود شخصيتك وخبايا نفسك وحقائق طبيعتك؛ لتوظفها في الخير، وتبعدها عن الشر.

والشرع يقدِّر للإنسان طبيعته، ويعطيها حكمها أحيانًا، ولا يثرِّب على ذلك، ولا يعاقِب عليه، حتى في أنبياء الله ورسله، عندما يتصرفون بإملاء من الطبع البشري المحض والصفة الغريزية البحتة، فهم بشر أولًا وآخرًا، قال النبي ﷺ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ مِنْ إبْرَاهِيمَ إذْ قَالَ:** ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. **وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ لَبْثِ يُوسُفَ لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ**»[١].

فنبي الله إبراهيم عليه السلام يتشوف إلى المعرفة ويطمح إلى الوقوف على حقائق الأمور؛ بحكم الفطرة، ويومئ النبي ﷺ في قوله: «**لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ**» إلى الجانب البشري الطبعي في الإنسان من محبته للحرية والانطلاق وعدم تقييد نفسه وكبت مَلَكاته، خاصة إذا طال به الأمر.

وموسى عليه السلام يعرف نفسه ويصرِّح بما يشعر به، دون مواربة[٢] أو

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) المواربة: مأخوذة من الإرْب، وهو الدَّهاء.

استحياء؛ فيتحدث عن خوفه الفطري قائلًا: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ [الشعراء: ٢١]، ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [طه:٤٥]؛ فمعرفة الإنسان نفسه وسلامه معها يوقفه على طبيعتها، ويعرِّفه بقدراته، ويحدد هدفه وموقفه، فيمشي على بيِّنة من أمره.

السلام مع المبادئ والقناعات والمثل، أن تقول وتعمل ما تؤمن به ومستقر في ضميرك، وتدين ربك بمقتضاه، مما هو حق ثابت، دون أن يكون معيارك في ذلك، رضا فلان، أو سُخط علَّان. وأن تمضيَ بك الحياة في دوامة من المجاملات المفرطة، والاستسلام لما حولك ولِمَن حولك، دون أن يكون لديك ممانعة أو استقلال.

ومن السلام مع النفس، التوافق والانسجام بين ظاهر النفس وباطنها، وذلك يكون بين القول والفعل: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٣]، وهذا يتطلب استقامة وسيرًا على منهج صحيح، والاستقامة عرَّفها النبيُّ ﷺ عندما سأله سفيان بن عبدالله الثقفي ﷺ: يا رسولَ الله، قُلْ لِي في الإسلام قولًا، لا أَسْأَلُ عنه أَحدًا بعدكَ. قال ﷺ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»(١). وذلك بالتوافق والانسجام بين العبادات والمعاملات، فتكون العبادة سبيلًا لضبط المعاملة، وحفظ الحقوق، ورعاية العدل، والتخلص من الازدواجية المقيتة بين ما يفعله في المحراب وما يمارسه في السوق أو المكتب.

والكثير من الإخفاق والانتكاس يحدث للهُوَّة السحيقة التي يعيشها البعض بين عبادة الظاهر وانحراف الباطن.

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٤١٦)، ومسلم (٣٨).

فنحن بحاجة ماسَّة وضرورة مُلِحَّة إلى تعميق الإيمان في القلب وتقويته، وأن نأوي فيه إلى ركن شديد؛ فإن الحياة الدنيا مبنية على الخطر، ومداهمة الإنسان بما لا يتوقع من نكبات ومصائب، في نفسه أو أهله أو ولده أو وظيفته، فيصيبه الانكسار والجزع الذي لا ينجيه منه إلا عمق إيمانه بالله، والعبادة الحقيقية التي تشمل عبادة القلب قبل الجوارح، وليست عبادة الجوارح فقط.

السلام بين الطُّموح والقدرة، بين ما نريد وما نملك، بين ما نملك وما نستطيع تقديمه، وأن يكون هناك اعتدال وتوازن بين هذه المعاني، يقول النبي ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ**»[1]. وفي حديث آخر: «**اكْلَفُوا مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ**»[2]. وذلك في كل شيء، وفي طلب الماديات، فربما طمع الإنسان فهلك.

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدَتْنِي وَلَوْ أَنِّي قَنَعْتُ لَكُنْتُ حُرًّا[3]

السلام في الدعوة؛ فلا نتصور أن يكون العالم كله تحت تأثير دعوتنا، أو ينبغي أن يكون كذلك، فهذا شيء لم يحصل حتى للأنبياء والرسل، فكما تعمل فغيرك يعمل، وربما يهدم ما تعمل.

السلام مع الطبائع؛ فلا يتكلَّف الإنسان ضد طبعه أو ما ليس منه، وأن يكون منسجمًا مع نفسه، هذا محمد ﷺ يقدَّم له الضَّبُّ، فرفع يَدَهُ عَنْهُ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٦١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٦٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) ينظر: ديوان أبي العتاهية (ص٦١)، والآداب الشرعية لابن مفلح (٣/ ٤٧٤).

فقال خالدُ بنُ الوليد: أحرامٌ الضَّبُّ يا رسولَ الله؟! فقال رسول الله ﷺ: «لَا؛ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي، فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ»[1]. فيتركه النبي ﷺ؛ لأنه لا يتوافق مع طبعه.

وها هو موسى عليه السلام يأخذ برأس أخيه يجره إليه: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: ٩٤]، فهذا بمقتضى الطبع وعفويته، بلا تكلف ولا تردد، فهذه طبيعة محمودة[2].

وكذلك الصحابة رضي الله عنهم كل منهم كان له طبعه؛ فأبو بكر غير عمر، وقصة أسرى بدر شاهد على ذلك، فقد حكم كل واحد منهما بما يلائم طبعه[3]، ما دام أن في الأمر سَعَة.

فأبو بكر رضي الله عنه فيه لين وسماحة، وقدَّر الرسول ﷺ له ذلك، وعمر الفاروق رضي الله عنه فيه قوة وشدة، وقدَّر الرسول ﷺ له ذلك.

فاعرف طبيعتك واصنع معها سلامًا، ولا تعاندها وتحمِلْها على ما ليس من خصائصها.

وقد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «ألذُّ شيءٍ: هَوًى وافق شرعًا».

السلام مع القَدَر والتسليم والرضا بما كتب الله، مع مدافعة القدر بالقدر؛ كما قال عمر رضي الله عنه: «نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ الله إِلَى قَدَرِ الله»[4].

فالمؤمن مسلِّم بقدر الله وراضٍ به تمام الرضا؛ حتى لا يحب تعجيل ما

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٩١)، ومسلم (١٩٤٦) من حديث خالد رضي الله عنه.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٨٩).

(٣) ينظر: صحيح مسلم (١٧٦٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

أُخِّر ولا تأخير ما عُجِّل.

فالمعاق الذي لا يُرجى شفاؤه، والدميم الخلقة من ذكر أو أنثى، والفقير الذي لا مال له، والبسيط الذي لا علم عنده، ولا قدرة له على النظر والتعقل، والأرملة واليتيم، وكل أصحاب الابتلاءات والمصائب بحاجة ماسة إلى صنع سلام مع القَدَر، والرضا بما كتبه الله تعالى وقدر، ومدافعة القدر بالأسباب الممكنة، والتسليم المطلق بما لا يقع تحت الإمكان دفعه.

إنه لا بد من الإنصاف من نفسك والتخلص من الأنانية والهوى والشُّحِّ، كما كان عَمار ﷺ يقول: «ثلاثٌ مَن جمعهنَّ فقد جَمَعَ الإيمانَ: الإنصافُ من نفسكَ، وبَذْلُ السلام للعالَم، والإنفاقُ مِنَ الإقْتارِ»[1].

لماذا إذا اختلف أحدُنا مع أخيه لا يحاول أن يضع نفسه مكان أخيه، ويرضى له بما يرضاه لنفسه، وأكاد أجزم أنه لا يوجد في الدنيا مَن عنده إنصاف من نفسه، إلَّا مَن رحم الله، وقليل ما هم، قال أبو هريرة ﷺ: «يُبْصِرُ أَحدُكُمُ القَذَاةَ في عين أخيهِ، وينسى الجَذْلَ -أوِ الجِذْعَ- في عين نفسِه»[2].

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٢٢٥).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص:١٧٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٩٢).

وبنحوه أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٨٦) عن عمرو بن العاص ﷺ.

وأخرجه ابن صاعد في زوائده على زهد ابن المبارك (٢١٢)، وابن حبان (٥٧٦١)، وأبو الشيخ في الأمثال (٢١٧)، وفي التوبيخ والتنبيه (٩٩)، والقضاعي (٦١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا، والموقوف أصح، ينظر: السلسلة الصحيحة (٣٣)، وتبييض الصحيفة بأصول الأحاديث الضعيفة (٥٠).

عَجِبْت لِمَنْ يَبْكِي عَلَى مَوْتِ غَيْرِهِ
دُمُوعًا وَلا يَبْكِي عَلَى مَوْتِـهِ دَمًا
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنْ يَرَى عَيْبَ غَيْرِه
عَظِيمًا وَفِي عَيْنَيْهِ عَنْ عَيْبِهِ عَمَى[(١)]

كما أنه لا بد من فهم التدين فهمًا سليمًا صحيحًا، خاليًا من التمحلات والهوى الشخصي، فهمًا لا يتقاطع مع الفطرة؛ فإن الإسلام نفسه هو دين الفطرة، ولا يتجافى مع ذوق سليم، ولا وَجْدٍ صحيح، ولا واقع طبعي، دون خضوع واستسلام.

والسلام مع العقل في إيمانه بالغيبيات التي جاءت بها الرسل، وهي لا تناقض العلم الصحيح ولا العقل الصريح؛ فيسلِّم بها، دون أن يتحول إلى عقلية أسطورية تقبل كل ما يُلقى إليها، بلا فحص أو تمحيص، فالغيب فوق العقل، والأسطورة تحت العقل.

وبإعمال العقل وترك التقليد؛ فالعقل للتمييز وليس للحفظ فحسب!

وقد أشار العِزُّ بنُ عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن المصالح والمفاسد تدرَك بالعقل قبل ورود الشرع[(٢)] .

وأقول: وبعد وروده أيضًا، وذلك في فهم القرآن والسنة والترجيح، وتقدير المصلحة والمفسدة، دون افتئات على العقل وتكليفه ما ليس من مجاله والمبالغة في تقديره؛ فإن له خطوطًا حمراء، لا ينبغي أن يعدو

---

(١) ينظر: الفروع (٣/ ٤٠٠)، والآداب الشرعية (١/ ٣٧٦)، وغذاء الألباب لمحمد بن سالم السفاريني (١/ ١٦٨).

(٢) ينظر: القواعد الصغرى للعز بن عبدالسلام (ص: ٤١).

قدرَه عندها.

ومعالجة الوساوس التي تَرِدُ على عقلِ الإنسان وخاطره؛ فتكدِّر عيشه، وهي إما شرعية أو دنيوية، وغالبها حالات نفسية، وهي تُعالَج بإهمالها، وعدم الالتفات إليها، وبالدعاء والاستعاذة بالله وبالوصفة النبوية بقراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١][1]، وأن يستجمع الإنسان كل طاقته ويعزم على عدم تلبية أوامر وساوسه من طهارة ووضوء وشك وغيره، وأن يعتبر ذلك حالة طوارئ، إلى أن يكشف الله عنه ما هو فيه، والله عز وجل إذا علم صدق النية أعان.

●●●●

(١) كما عند أبي داود (٤٧٢١، ٤٧٢٢)، وينظر: صحيح البخاري (٣٢٧٦)، وصحيح مسلم (١٣٤).

«رأيت شعوبًا تقاتل كالوحوش، ثم رأيتها بعد هدوء المعركة كالحملان الوديعة، الإنسان ليس لونًا واحدًا!».

التعايش الحضاري (١)

التعايش الحضاري (١)

مفردة العيش ومشتقاتها مادة مستخدمة في اللغة العربية، ومستبطنة فيها بوضوح، غير أن المفهوم المعاصر لكلمة «التعايش» بات ذا صخب وجدل شديد؛ جعل بعض المهتمين الإسلاميين يحسُّون بأن هذا الكلمة حُقنت بمفاهيم ذات دلالات سلبية شائعة، تجعل الشريعة كَلَأً مباحًا، وهناك تخوفٌ من أن هذا المفهوم قد يكون خلفه تذويب لأسس الإسلام، وتقديم أنصاف العقائد وخليط من الإسلام، وهذه دِعاية مسيئة بحق للوجه الإيجابي لهذا المفهوم، ودِعاية مسيئة بحق الإسلام، إضافة إلى أن نسبته إلى الفكر الغربي الذي أشاعه بهذا الاسم أوجد شيئًا من التخوُّف المشروع بأن ترويجه الغربي تم بإرادة متنفذة؛ لتغييب القيم الإسلامية، وإدماج المشرق مع الغرب وذوبان هويته، وعلى تقديرنا لهذا التحفظ، غير أن انتشار المفهوم بهذا الاسم «التعايش» في أدبيات مختلفة، لا ينفي إطلاقًا أساس المعنى المحفوظ والمعترف به والمقدم في النصوص الإسلامية.

إنه لا ينبغي التحفُّظ من هذا المصطلح أو غيره لكونه محقونًا أو مشحونًا؛ إذ «لا مُشَاحَّة في الاصطلاح»[1] - كما قيل -، ويفترض أن يكون

---

(١) المشاحة: المنازعة.

التعامل معه بهدوء وواقعية؛ برده إن كان خطأ، وفرزه إن كان قابلًا، وهذا ما يدعونا إليه الدين الإسلامي وقواعده، ذلك أن: «الكلمة الحكمة ضالّة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها»(١).

إن المفهوم السلبي للتعايش بمعنى التنازل عن العقيدة أو تقديم نصف عقيدة أو بعض دين مرفوض تحت أي مسمى جاء به، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، بيد أن المفهوم الإيجابي له بالتوصل إلى مستويات أخلاقية في الحوار والاتفاق على أُسس العيش والتصالح وتقدير الاختلاف والاعتراف به، والاعتراف بالتعددية؛ أمر جاءت به الشريعة الإسلامية، ومن الجدير بالتنبيه عليه أن القرآن الكريم جاء بمصطلحات ربما تكون أوسع معنى، وأشمل تعاملًا من مصطلح التعايش، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فلفظ «**التعارف**» ليس مقصورًا على الاسم والقبيلة، إنما هو خطاب للبشرية بالمعنى الواسع في تبادل المعارف والعلوم والمحاسن والفضائل.

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، فالتعاون على الخير والمصلحة مفهوم شرعي ناصع، متفق عليه، سواء مع الموافق أو المخالف؛ لأنه تعاون على معنى صحيح، وهو البر والتقوى، وليس الإثم والعدوان، وذلك المفهوم

---

(١) مروي من قول كعب الأحبار، وزيد بن سلم، وغيرهما، ولا يصح مرفوعًا. وقد تقدم تخريجه (ص٢٠).

«التعاوني» و«التعارفي» في غاية التبشير للناس، وتقديم أفضل القيم التي ترفع بني الإنسان، وتقربهم من هداية الله بدينه العظيم (الإسلام).

ومن المقرر أن أوضاع البشرية وأحداثها وقانون الاختلاف، هي بإذن الله القدري الكوني، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام:١٠٧]، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، وذلك الاعتراف بالاختلاف والتعدد يحمل في داخله معرفة ضرورية بوجود الشر والخطأ و... إلخ، المجافية لقيم الفضيلة والأخلاق والتقوى، وليس معنى التعايش قبول هذه الأوضاع السيئة وتبريرها بطريقة منطقية، ولا إبطال قانون المقاومة، والدفع بالتي هي أحسن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...، فهذه قيم شرعية ثابتة، لا مزايدة عليها.

إن معنى التعايش هو قبول التصالح الدنيوي والوجود والجوار في الاتفاق على جملة من الأخلاق الإنسانية التي تتيح فرصة لتبادل الحوار والإقناع.

والمؤمن مُصلِحٌ آمرٌ بالمعروف والخير، ناهٍ عن المنكر والشر، حريص قدر المستطاع على دفع الباطل بالحق والجهل بالعلم..، عارف بمواقعه، معتدل في رؤيته للإصلاح؛ فالرؤية المثالية التي يحمل بعضُنا الناسَ عليها، هي بمثابة حملهم على جبل وَعْر[1]، والناس فيهم الضعيف والكبير وذو الحاجة والمختلف والمتفق؛ ممن قد لا يتحملون ذلك.

ولـمَّا حاصرَ رسولُ الله ﷺ الطَّائفَ، فلمْ ينلْ منهم شيئًا، قال: «إنَّا قَافِلُونَ إنْ شَاءَ اللَّـهُ». فَثَقُلَ عليهم -يعني الصحابة-، وقالوا: نذهبُ ولا

(١) أي: صعب الوصول إليه.

نفتحه؟! فقال: «اغْدُوا عَلَى القِتَالِ». فَغَدَوْا، فأصابهم جِرَاحٌ. فقال: «إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّـهُ». فَأَعْجَبَهُمْ، فضحكَ النبيُّ ﷺ(١).

ومن الافتئات على مقاصد الشريعة ودعوة الإسلام: أن تصطفي مجموعة نفسها تحت أي مسمى، تحتكر الصواب، والرؤية الصائبة المطلقة، وتعتبر الخارج عن سلطتها مفتونًا حلال الدم أحيانًا، معلِنة عن بيعة ملزِمة عندها هي مفرق الحق من الباطل بين الناس، وهذا أُنموذج هو في نفسه فتنة، ولا عهد لنا به في الشريعة الإسلامية التي حقنت دماء مَن لا يؤمنون بها أصلًا، من يهود ونصارى وغيرهم، بموجِب عقد واتفاق على مر عصور التاريخ.

إن النموذج العظيم للتعايش، هو أنموذج المدينة المنورة، عاصمة الإسلام، وحامية بَيْضَته وحوزته، ومنطلق دعوة آخر الأنبياء ﷺ، ففي مرحلتها الأخيرة وفترة التمكين شاء الله أَلَّا تكون المدينة للصحابة والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فقط، بل شاء أن يشاركهم فيها اليهود والوثنيون والمنافقون وضعفاء الإيمان، جنبًا إلى جنب، بل وشاء الله أن يموت رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، كما في «الصحيحين»(٢)، في إشارة إلى أن هذا المعنى مُحْكَم ثابت، لا يمكن نسخه أو العبث فيه.

إن التعايش هو نوع من التعاون والتعارف في المشترك الحضاري والإنساني، وتبادل الخبرات التي تعين الإنسان على عمارة الأرض، ونشر قيم الخير التي يتفق الناس على الاعتراف بها، وذلك كله نوع من فتح المجال لنشر الإسلام ودعوته، وذلك كله لا يعني الدعوة لأفكار المختلف أو شرعيته دينيًا، بل القبول في التعايش الدنيوي لفتح الحوار دينيًا ودنيويًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢٥)، ومسلم (١٧٧٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) صحيح البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والصحابة ﷺ أدركوا أنهم أصحاب ديانة تختلف جوهريًا عن الديانات الأخرى، فالفارق عميق وأصيل وراسخ في العقيدة والإيمان والكتب والعبادة.. لكن ثمت معنى مشتركًا، ومصلحة دنيوية جامعة أحيانًا: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

والرسل هم أعظم الخلق إيمانًا، ومع ذلك عايشوا قومهم، رغم الكفر المطلق والإيمان المطلق؛ فنوح عليه السلام مكث ألف سنة إلا خمسين عامًا في قومه، يقول الله جل وعلا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح:٥-١٠]، فهو يدعوهم، ويجادلهم بالتي هي أحسن، وبالحوار الهادئ الموضوعي الذي من خلاله يصل الحق إلى أصحاب العقول السليمة، وهذا جزء من التعايش.

إن التعايش لا يعني ترك رأيك الخاص الفردي، فضلًا عن عقيدتك ودينك، فالرأي الذاتي هو جزء من شخصية المرء، ولا يملك أحد أن يطالب الآخرين بتغييره أو مخالفته، إلا أنه يبقى في النهاية مجرد رأي شخصي، والمطلوب هو التخلِّي عن التعصب المحتقن، والانفعال الجاري في غير قناته، وإحلال الحوار والدعوة بالتي هي أحسن محله؛ فالتعايش ترك التعصب للرأي والإكراه فيه، لا ترك الرأي نفسه أو المساومة عليه، وبين هذا وذاك بون عظيم.

●●●●

«الهزيمة النفسية تصنع الخوف من التعامل العفوي مع الآخرين».

التعايش الحضاري (٢)

التعايش الحضاري (٢)

إن من الملاحظ أن «التعايش» غدَا بعيدًا عن واقع بعض القطاعات الإسلامية، ليس مع الديانات الأخرى؛ بل مع أبناء الملة الواحدة، بين المذاهب الفقهية، والجماعات الإسلامية، والدول، بل بين القبائل العربية أحيانًا، في حالة من العنف والعدوانية، يطير معها شاهد اللُّب ويغيب، وهو يتساءل من أين جاءنا هذا المأزق؟!

إلامَ الخُـلْفُ بينَـكُمُ إلامَـا ... وَهَذي الضَّجَّةُ الكُبْرَى عَلَامَا

وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمُ لِبَعْضٍ ... وتُبْدُون العَدَاوَةَ وَالخِصَامَا؟[1]

الكثير يظنون أن طرح موضوع «التعايش» لا يكون إلا في حالات الضعف والتمزق والتشرذم فقط، والشواهد تنادي على أن التعايش يكون أرسخ أسسًا وأعمق جذورًا في زمن القوة والقدرة، فالقادر على صناعة التعايش والسلم هو القادر على صناعة حرب وقتال، ومَن لا يصنع حربًا لا يصنع سلامًا، بينما يعاني مفهوم التعايش من الانهيار والانتهاك في أزمنة الضعف والشتات.

(١) ينظر: الشوقيات (١/ ٢٢١).

إن القوة في تحمُّل الناس بآرائهم وخلافاتهم، والسيطرة على دوافع النفس وشهواتها ونزغاتها، وكَبْح جِماحها، وليس في فرض الرأي بالقوة؛ يقول النبي الكريم ﷺ -كما في الصحيحين-: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»(١).

وعندما فتح أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه القدس امتنع أن يصليَ داخل الكنيسة -وهو القوي المنتصر- وقال -وهو المحدَّث الملهم-: «أخشى أن يتخذها المسلمونَ بعدي سنَّةً، فيصلون فيها، فيضايقون أهلها، ويقولون: هنا صلَّى عمر، فصلَّى عمر رضي الله عنه خارجها، وأعطى المسيحيين الأمان على حياتهم، وحقن دماءهم»(٢).

وفي حين قتل الزعيم النصراني ريتشارد أكثر من ألفين وسبعمائة أسير مسلم في لحظة واحدة، وصلبهم خارج أسوار مدينة عكَّا؛ لتأخر ما اتفق عليه مع المسلمين، يقوم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله بحقن دماء أهل القدس جميعًا مسيحيين ويهود -وهو القادر على النكاية- عاقدًا صلحه الشهير باسم (صلح الرملة) في (٢٢ من شعبان ٥٨٨هـ، ٢ من سبتمبر ١١٩٢م)، في أعظم صور التعايش في زمنه(٣).

إن التاريخ الإسلامي هو تاريخ القوة والانتصار، وهو نفسه تاريخ التعايش وضبط العهد والميثاق، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة:١]، يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

---

(١) صحيح البخاري (٦١١٤)، وصحيح مسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر في ذلك:

(٣) ينظر: البداية والنهاية (١٢/ ٤٢٠).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره» عند هذه الآية: (هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود أي بإكمالها وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها، وقال: وهذا شامل للعقود، التي بين العبد وبين ربه من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الإنتقاص من حقوقها شيئًا، والتي بينه وبين الرسول ﷺ بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم ووصلهم، وعدم قطيعتهم، والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، بالتناصر على الحق، والتعاون عليه، والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع.

فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها)[١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وفي الصحيح: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[٢]، بل في البخاري ومسلم أن النَّبي ﷺ مرَّت به جنازةٌ؛ فقام. فقيل له: إنَّها جنازةُ يهودي! فقال: «**أَلَيْسَتْ نَفْسًا**»[٣].

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩١٤) من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) صحيح البخاري (١٣١٣)،وصحيح مسلم (٩٦١) من حديث قيس بن سعد، وسهل ابن حُنيف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وهذا ابن تيمية رحمه الله، يخاطب سَرجوان ملك قبرص في رسالته المشهورة بقول: (بلغني ما عند الملك من الديانة والفضل ومحبة العلم وطلب المذاكرة، ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسي شاكرًا من الملك من رفقه ولطفه وإقباله عليه، وشاكرًا من القسيسين ونحوهم. ونحن قوم نحب الخير لكل أحد، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة)[1].

ولم يرض ابن تيمية بفكاك أسرى المسلمين وحدهم، بل طالب التتار بفكاك أسرى اليهود والنصارى قائلًا: (بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا؛ فإنا نَفُكُّهُم ولا ندع أسيرًا، لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة... وكذلك السبي الذي بأيدينا من النصارى، يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم؛ كما أوصانا خاتم المرسلين)[2].

إن الهزيمة النفسية أحيانًا تجعل بعض الناس يشعرون أن هذا اللون من الحديث يفضي إلى تبرير الانهزام والرضا به، والبعض الآخر يطرحون صورة مثالية لا واقع لها عن التعايش، وتحرير مدلول التعايش وفهمه كاف في رفع الالتباس.

إن نجاح التعايش مرهون بصوت العقلاء الذين يقدمون لغة الحوار الهادئ، الهادف الذي يحقق المنشود، ويصل لهدفه بيسر وسهولة، كما أن إخفاقه مرهون بصوت الحمقى الذين لا يعرفون إلا مصالحهم فقط، حين يعتمدون لغة القوة والعنف بشكل كبير في إداراتهم ومطابخ قراراتهم، ومن هنا شن صناع الحروب وعَرَّابوها حربًا، ليس على العالم العربي والإسلامي

---

(١) ينظر: الرسالة القبرصية (ص٣٥)، ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١٥).

(٢) ينظر: الرسالة القبرصية (ص٣٨)، ومجموع الفتاوى (٢٨/ ٦١٧-٦١٨).

فقط، بل على كل مَن ليس معهم أو مع إدارتهم؛ مما قطع كل طريق أمام الاعتدال والفهم الإنساني المشترك والمصالح الاقتصادية والأخلاقية الإنسانية، والتي هي محل اتفاق عند العقلاء جميعًا، لكن القادة العسكريين لا يفكرون إلا بطريقة عسكرية، مما جعل الحوار يصل إلى طريق مغلق مسدود.

إن الدين لم ينزل -كما يظنه البعض- لتأجيج الصراع بين الناس، بل لضبط العلاقة وتنظيمها وعمارة الأرض، يقول الله جل وعلا: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ولهذا لما خلق الله آدم؛ خلقه من أجل عمارة الأرض، والسعي فيها، والضرب فيها؛ قالت الملائكة لربها تبارك وتعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فعلموا أن الفساد في الأرض، وسفك الدماء مما يكرهه الله عز وجل، فندرك من هذا أن الله لم يخلق البشر ولم ينـزل الكتب لأجل أن يحتربوا ويتنازعوا.

إن مما يلزم مراعاته: فقه تحقيق المصلحة ودرأ المفسدة؛ ذلك أن مصلحة التعايش ظاهرة وميسرة، ونفعها جَلي.

وفي السيرة والفقه أبواب كثيرة، كلها ينبغي استعمالها وتوظيفها حال احتياجها.

فهناك: أبواب للهدنة، وأبواب للصلح، وأبواب للموادعة، وأبواب للعهد، وأبواب لغير ذلك مما ينبغي على الإنسان أن يتأمل ما يكون مناسبًا منه للحال والمقام.

إن الناس جميعًا يحتاجون في كثير من الأحيان إلى أن يتعايشوا فيما بينهم

بهدوء وموادعة ومتاركة، بعيدًا عن إدارة الحرب والصراع، والانشغال عن الأولويات بما هو دونها.

إن استمالة القلوب، واستقطاب العقول للتعرف على هذا الدين والدخول فيه لا يمكن من دون استعمال الصبر والرفق واللين والمداراة، واحتمال الأذى، ومقابلة الإساءة بالإحسان، كما أمر الله تبارك وتعالى في ذلك في غير ما موضع من كتابه، يقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت:٣٤]، وبهذا استمال النبي ﷺ قلوب أعدائه، وعالج قسوتها وشماسها ونفارها، حتى لانت، واستقادت، وقبلت الحق.

إن الكلمة الطيبة الحانية، والابتسامة الصادقة الصافية، والإحسان إلى الآخرين بالقول والفعل؛ من أسباب زوال العداوة وتقارب القلوب، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٥].

إن التعايش هو حقن الدماء البريئة، وفتح مجال للحوار والجدال بالتي هي أحسن، وهو تقديم مشروع يحمي الكلمة الإسلامية، ويزودها بالعقل والحجة والمنطق التي يمتلئ بها كتاب الله وشرعه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران:٦٤].

●●●●

«تجربتي المتواضعة تقول:
إنَّ إدمانَ المعاركِ والاعتيادَ على خوضها من أعظم معوقات النهوض والتنمية:

قَومٌ إِذا الشَرُّ أَبدى ناجِذَيهِ لَهُم
طاروا إِلَيهِ زَرافاتٍ وَوُحدانا
لا يَسأَلونَ أَخاهُم حينَ يَندُبُهُم
فِي النائِباتِ عَلى ما قالَ بُرهانا

الكثير من معاركنا هي «فزعات»!».

النقيض

النقيض

....

أظنُّ أنني أضع يدي على عيب من أعظم عيوب التفكير والعمل لدى المسلمين، وإن لم أكن قادرًا على تشخيصه بدقة، ومعرفة أسبابه، يكفي أن أدوِّنها ملاحظةً غير عابرة ولا عاجلة على طرائقنا في العيش والعمل والحياة والتفكير، ولعل أي فكرة مؤيدة أو ناقدة ستقدح زناد العقل حول هذا الموضوع الخطير.

لو كان لدي فكرة جديدة؛ لخصصتُ (٩٠٪) من وقتي لشرحها، وخصصت الباقي للدفاع عنها، ومهاجمة خصومها.

لكن ما الذي يحدث عادة؟

حين يكون لديك فكرة مهمة؛ فأنت تخصص دقائق للحديث عنها وشرحها، ثم تخصص بقية عمرك لمهاجمة المختلفين مع هذه الفكرة، وكشف أستارهم، وهتك أسرارهم، وفضح أساليبهم، وبيان تناقضاتهم ومخازيهم!

وكأنك لا تصل إلى نهاية المضمار إلا من خلال تعويق الآخرين وتعثيرهم، بينما أنت تعوِّق نفسك أيضًا.

الأصل هو شرح الفكرة وتفصيلها، وتصريف البيان واستخدام كافة

الوسائل والتقنيات والطرائق والأساليب في سائر الأوقات، وحشد الأدلة، وتأسيس البناء وتعميقه وترسيخه، ثم تشييده ورفعه، ثم توسيعه ونشره، ثم يأتي بعد ذلك الدفاع عنه وحمايته، وإلا فما قيمة دفاع عن بناء أو مشروع لم يبدأ بعد أو لم تتضح صورته، أو تتبين معالمه؟!

كثيرًا ما ننشغل بنقيض الفكرة؛ لأنه لا فكرة لدينا، وربما نعتبر وجود الخصوم هدية لنا؛ لأنه يتم التعرُّف والتعريف بنا من خلال «النقيض»، ولا مبالغة أن كثيرًا من الحركات والجماعات والأيديولوجيات ليس لها ظهور ولا حضور ولا تميز، إلا عبر تحديدها بالأعداء؛ فهي فكرة يحدُّها من الشرق مذهب، ومن الغرب تيار، ومن الشمال مؤامرة، ومن الجنوب مشكلة!

جهود كبيرة قامت على مناقضة الآخرين، ولم يعجبها صنيعهم، وكثيرًا ما يسهل علينا التخطِئة، لكن لا نملك التصويب العملي، إلا عبر نصائح مجملة، لو تمكنا وقدرنا ما عرفنا كيف نحولها إلى برنامج واقعي.

إنها حماسة لم تملك الرؤية والمنهج الذي يسمح لها بالوجود، ومهما ضُخَّ فيها من الجهد والسعي والمحاولة؛ إلا أن فاقد الشيء لا يعطيه، وما لم يكن ثَمَّ فكرة محورية جوهرية متألقة مشرقة سهلة واضحة، فلا قيمة لجهود تستهدف تدمير الآخرين فحسب.

الشريعة والحياة قامتا على أساس نشر المبدأ والحق أولًا، وتكريس الجهد للمصالح والخبرات والفضائل، وصرفتا لذلك جُلَّ الاهتمام، وهذه دائرة «الحق»، والله تعالى يقول: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

والضلال والباطل والخطأ لا يتناهى؛ ولذا فلا معنى لتعديده وتحديده والانشغال به إلا بقدر ما يوضح الحق ويحميه من الالتباس، فإذا انعكست الآية وصار الجهد يُصرف لبيان الباطل وكشفه، والحق يرد في الهامش؛ فقد وقع الخلل والزلل والالتباس.

القضية فعلًا ملتبسة؛ لأن ثَمَّ من ينظِّر المسألة بأنها: «**الصراع مع الباطل**»، وهذا حق لا تردد فيه، وهو شريعة قائمة، وأيضًا هو سنة ماضية، بيد أن ثَمَّ فرقًا بين أن يكون لبُّ نشاطِنا وجوهرُ اهتمامنا بيانَ الحق وتجليته، والهوامش والنهايات لدحض الباطل ورده، وبين أن يقع العكس من حيث ندري أو لا ندري، فننشغل ببيان الباطل ورده عن تأسيس الحق وتكريسه، فرقٌ بين مَن يسير وطريقه واضح، وهو يدري أن ثَمَّ مَن سيحاول تعويقه، وأن هذا قدَرٌ مقدور، عليه مدافعته بالتي هي أحسن إن أمكن، كما أمر الله في مواضع من كتابه، وكما هو هدي الأنبياء عليهم السلام جميعًا، وفهم المصلحين، وما لم يندفع بالحسنى فيُعرض عنه، وما يتوقف على بيانه مصلحة شرعية فيُبيَّن بقدر الحاجة.

فرقٌ بين هذا، وبين مَن ملأ التوجُّسُ قلبَه من خصومه وأعدائه ومخالفيه ومعارضيه، وصارت خيالاتهم تلاحقه، والشكوك تغذيه، حتى شكَّ في صديقه وجاره وزميله، وصار جاهزًا للتصنيف، إما (معي) أو (ضدي)، وكأنه يمثِّل الحق، وليس مجرد دليل أو مرشد؛ هذا أولًا:

ثَمَّ فرقٌ بين بيان الحق الرباني الذي أُمرنا بالتواصي به ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ [العصر:٣]، وبين أن نكون «نحن الحق»، وما سوانا الباطل، كلَّا، بل ينبغي أن نعرف أن بعض ما لدينا كأفراد أو جماعات أو مؤسسات أو

دول أو مجتمعات، يختلط فيه الحق بالباطل، وقد يوجد الباطل صِرفًا فيحتاج إلى نفيه والتخلص منه، بدلًا من اعتقاده والدفاع عنه وتسويغه أو التستر عليه.

وقد يوجد عند خصومنا «الأشرار» -فيما نحسب وندعي- شيء من الحق يحتاج إلى أن نتواضع له ونتعرف عليه، ونستفيده بثقة المؤمن الذي يطلب الحكمة أنَّى وجدها.

تحويل الحياة إلى معركة خطأ، نعم..كثير من الدول والحكومات تضع عدوًّا لتحاربه وتجمع الناس عليه، لكن هذا بمَعْزَل عما نتحدث عنه من «تصدير الصراع» -أي: جعله في دائرة الصدارة- فالصراع ينبغي أن يكون في الهوامش والأطراف والنهايات، وبقدر الضرورة والحاجة، ولُبُّ الوقت والجهد والعمر والمال يجب أن يُصرف في الخانة الأولى ذات الأهمية القصوى، التي هي دائرة البناء وتعزيز الفكرة وترسيخها.

الثقافة الموروثة، والعادات الاجتماعية، والظروف الوقتية صنعت لدى الإنسان المسلم (والعربي خاصة) مَيلًا إلى الصراع، حيث لا يجد نفسه إلا فيه، وكأن خصومه وأعداءه يقدِّمون له الفرصة على طبق من ذهب؛ لينفعل ويتحرك، وتدور عيناه، ويستجمع قوته وجدارته وغضبه واستعداده للنزال، حتى أدبنا وشعرنا ومدائحنا وقصصنا غالبًا ما تتمحْوَر حول الموقِف من الخصم أو العدو، والذي لا مجال فيه للمهادنة ولا الصلح، فضلًا عن التسامح والإغضاء، أو الدفع بالتي هي أحسن!

●●●●

«خير لك أن تحلّق مع النسور بدلًا مِن تَقَمُّصِ شخصيَّةِ الدِّيك الذي ينفش ريشه!».

مشاركة متميزة حقًا

مشاركة متميزة حقًا

تطلُّ علينا نذرُ العولمة وبشائرها؛ لتصنع حدثًا ضخمًا يستحق كل هذا الصخب، والضجيج الدائر في العالم الإسلامي.

العولمة ليست هي العالمية؛ بل هي صياغة وقولبة جديدة للاقتصاد، والإعلام، والقيم وكل شيء! أو قل: هي محاولة ذلك.

منتدى العولمة يقعد في مقدمته الكبار ثراءً وسياسة؛ ولذا اعتبر الكثيرون العولمة: «أمركة» مقنعة؛ وهيمنة على الأمم الأخرى، وتذويبًا للخصوصيات والثقافات.

يحاول العالم الإسلامي الدخول، وهو يعاني من ضعف الإمكانات، وشتات المواقف، وضياع الهدف، وهو أشبه ما يكون بالكسيح الذي يدخل (ماراثون) السباق مع كبار العدَّائين!

وغالب الباحثين ينظرون إلى العولمة وتداعياتها بريبة وخوف، وحُقَّ لهم ذلك!

بيد أن مجرد القلق لا يكفي؛ فإن من الفاضل أن ندرك أن هذا التحول الهائل هو خطر وأزمة، وفي الوقت ذاته تحدٍّ يمكن أن يتمخض عن الكثير من الفرص للعمل الصالح النافع.

لم يعد السؤال المطروح هو:

هل يوجد هذا القمر الصناعي؟

أو هذا المجلس؟

أو هذا النظام الإداري؟

أو هذا القانون المحلي، أو العالمي؟

بل السؤال الحقيقي هو:

هل الأفضل أن نخوض الغمرات، ونشمِّر للمنافسة، والحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه من مصالحنا؟

أو الأفضل الانكفاء، والتوجُّس، والرفض والاقتصار على الممانعة، والاحتجاج السلبي فحسب؟!

أليست هذه فرصة للرُّقِي بالنظام الاقتصادي الإسلامي، وتوسيع دائرة البنوك، والنوافذ الإسلامية وتشجيعها رسميًّا وشعبيًّا؛ لمقاومة طوفان الربا الرأسمالي؟!

أليست فرصة لتقديم الرسالة الإعلامية الإسلامية المتميزة؛ التي تحفظ أجيالنا وشبابنا، وتحكم ارتباطنا بديننا وقيمنا، وتوظيف التسهيلات لهذا الهدف النبيل؟

أليست فرصة لتصحيح أوضاعنا الاجتماعية والسياسية الراكدة، ليس وفق الرؤية الخارجية التي تحاول فرض أحاديتها ونظامها الخاص، ولكن وفق المصلحة الإسلامية العليا؛ التي تقتضي:

- المحافظة على حقوق الناس بشفافية ووضوح.
- التطبيع مع الشعوب نفسها لضمان ولائها.

- التقارب بين الدول الإسلامية.

- صياغة المشروعات المشتركة، التي تضمن لنا دولًا وشعوبًا نوعًا من الحضور والفاعلية!

نحن أمام موقف تاريخيٍّ صعب ومعقَّد، والهروب ليس حلًّا!

فلا بد من الاتفاق على ضرورة المشاركة؛ كمبدأ عام لكل الغيورين والمشفقين على مصالح أمتهم وبلدهم.

وهذا لا يعني المشاركة الفردية أو الذاتية بالضرورة؛ ولكن تقدير المبدأ والاتفاق عليه.

لقد احتجنا سنوات طويلة حتى نقتنع بأهمية وسائل الإعلام المحلية وتأثيرها؛ فها نحن نحسم خيارنا بشأن القنوات الفضائية في فترة قياسية وجيزة.

فهل سنحتاج أمام كل منعطف وطارئ إلى جدل ساخن حول جدوى المشاركة والتفاعل، وتأجيج للمخاوف، والشكوك التي قد تبدو حقيقية بعض الشيء؟!

ولكننا لسنا أمام خيارات؛ أن يوجد الأمر أو لا يوجد؛ بل أن نشارك أو ندع، القطار يمضي ويركبه المبادرون!

ونحن نتحجج بالتساؤلات والاعتراضات؛ لنقتنع بعد حين بأهمية المبادرة بعد ما فات أوانها!.

ليكن منا مَن يلائمه هذا الميدان، ومنا مَن يحتضنه غيره؛ لكن كلنا مجمعون على المبدأ بذاته.. مبدأ المشاركة؛ بل المبادرة.

وهذه المبادرة لا تعني الذوبان والاستسلام؛ بل تعني صناعة المشروع

الإسلامي من خلال الأدوات الواقعية المتاحة.

والدين جاء لهذا؛ لتصحيح الواقع وفق الممكن، وليس لمجرد الحكم عليه بالإلغاء، وقراءة السنة النبوية مكيِّها ومدنيِّها ترشد لهذا المعنى.

إنها مبادرة لتوظيف إمكانات الأمة لحماية أجيالها، وحاضرها ومستقبلها، وتحقيق ما يمكن من المكاسب، وتجنب ما يمكن من الخسائر.

الإعلام، الحوار، التعليم، العمل السياسي، الانتخابات، المؤسسات المدنية... إلخ؛ كلها عناوين قائمة أو قادمة للرجل والمرأة؛ يمكن شطبها بمجرد التوجس والتخوف والاحتياط السلبي! ويمكن توجيهها، أو المشاركة الفاعلة فيها، حين يقوم بها ذوو النضج والكفاءة والإخلاص والجرأة؛ ممن لا تَعْنيهم المصالح الذاتية ولا المجد الشخصي، بقدر ما يَعنيهم أمر الأمة في نطاقها الواسع، وليس في إطار ضيق من رؤية فئوية، أو حزبية أو إقليمية.

إن المبادرة المتميزة هي شعار المرحلة القادمة فيما رأيت واجتهدت.

وهذا لا يعني: مصادرة رأي آخر، بقدر ما يؤسِّس للهدوء والتفهم في المعالجة، والامتناع عن تعويق اجتهاد ما؛ بحجة الإصرار على غيره!

وإذا توفر الإخلاص والصدق أعان الله وسدد، وهو وحده المستعان.

●●●●

«رجال الإنقاذ الذين يحيطون بالقارب، لا وقت لديهم لمضايقة الآخرين أو إزعاجهم».

سنة الأنبياء

سنة الأنبياء

أذكر أنِّي قابلتُ أحدَ الشباب في الحرم المكي أيام رمضان، وكان يعتمر ويعتجر عمامة بيضاء، وشعره يضرب إلى منكبيه، ويلبس ثوبًا قصيرًا ربما إلى نصف ساقيه، وفوق هذا الثوب قميص أسود شبيه بالرداء.

في مشهدٍ لافت للنظر، ومثير للانتباه؛ فكلُّ مَن نظر إليه صعَّد النظر فيه وصوَّبه.

جلس معي، وسألته عن هيئته! فرد بأنه يتبع سنة الرسول ﷺ في لباسه وشعره؛ فأجبته: بأن الصحيح أن مسألة العمامة ليست سنة، وإنما هي من عادات العرب في الجاهلية، وأما لبس الرسول ﷺ لها، فهو من باب العادة، فلا نقول: إنها مأمور بها، ولا منهي عنها، بمعنى أنها أمر متروك لعادات الناس وأعرافهم، ولا يصح في العمامة حديث. هذه واحدة.

والثانية: أن الراجح في الشَّعر أنه من العادات؛ فطول شعره ﷺ ليس سنة وإنما عادة، و«مَنْ كَانَ لَهُ شَعْرٌ فَلْيُكْرِمْهُ»[1]، والأمر فيه يسير.

أما الأمر الثالث: فهو أنك معتمر، والسنة التي لا خلاف عليها هو حلق الرأس للمعتمر، وقد دعا ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ

(١) كما في حديث أبي هريرة ﷺ: أخرجه أبو داود (٤١٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٠٣٦)، وفي الآداب (٥٦٠).

لِلْمُحَلِّقِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ». ثم قال في الثالثة: «وَلِلْمُقَصِّرِينَ»[1].
فلماذا تركت هذه السنة الواضحة الثابتة؟!

أما رابعًا وأخيرًا: فانتبه إلى حظوظ النفس، أن تجد مدخلًا من جهة لفت النظر والتميُّز، وأن تعمل ببعض الظواهر المختلف فيها لاسترعاء اهتمام الناس، وما في ذلك من كيد الشيطان الخفي، ونسيت أن صاحب السنة ﷺ نهى عن لباس الشهرة[2]، وهذا ما لم يذكره صاحب هذا الاقتداء المنقوص.

إن هذا نموذج للوعي السلبي بالاهتمام بالتفاصيل العادية غير المؤثرة، وفي المقابل خرم القواعد الكبار، تحت عباءة السنة النبوية، وهدي المصطفى ﷺ؛ فليست السنة امتحان الناس في تفاصيل التفاصيل، ولا تحميل الناس ما لا يطيقون من جزئيات وفرعيات وافتراضات؛ يتورَّعون فيها عن خفايا ودقائق لا ترد على البال إلا بتكلُّف وتعسُّف، ثم ينتهكون الحرمات المتفق عليها من أعراض الناس وحقوقهم، وواجبات التعامل الأخلاقي معهم، ورعايتهم والاهتمام بهم، وجمعهم على سبيل الوحدة والإيمان.

إن السنة النبوية العظيمة ليست حصرًا في دقائق العبادات مع الإيمان بدخول ذلك في معنى السنة، إنها أعم من ذلك وأشمل وأعظم؛ إنها معانٍ شريفةٌ في تحقيق مقاصد النبوة والرسالة، ووسائلُ صالحةٌ نافعةٌ لأداء هذه المقاصد التي خلق الله جنس الإنسان من أجل تحقيقها: ﴿ وَمَا

(١) أخرجه البخاري (١٧٢٨)، ومسلم (١٣٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ ثُمَّ تُلَهَّبُ فِيهِ النَّارُ»: أخرجه أحمد (٥٦٦٤)، وأبو داود (٤٠٢٩، ٤٠٣٠)، وابن ماجه (٣٦٠٦، ٣٦٠٧)، والنسائي في الكبرى (٩٥٦٠).

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، ولقيام الناس بمعنى الإيمان والسعي للخير، ومكارم الأخلاق وأصولها، وأركان الإسلام من الشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج؛ ولهذا لمَّا أخبر الله عن الأنبياء في السورة التي حملت اسم (الأنبياء) ذكر السنن العظام للأنبياء: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٣].

فالخيرات ركن عظيم وسنة كبيرة من سنن المرسلين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعبادة الله.

وحين ذكر الله تعالى قَصص أنبياء آخرين قال: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠]، وختم قصص الأنبياء في السورة بقوله: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢]، ثم خاطب رسول هذه الأمة: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٧-١٠٨].

هذه هي مقاصد الأنبياء، ومعاني الرسل والرسالة، والقواعد الأساسية للسنة النبوية التي حكاها الله في كتابه الكريم، وأمر بها رسوله ﷺ في أحاديثه، كما في حديث جبريل الطويل، عن أصول الإسلام والإيمان والإحسان[1]؛ من فعل الخيرات، وإقامة أركان الدين العملية، وتحقيق

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.
وأخرجه مسلم (٨) من حديث عمر ﷺ.

الإيمان، واليقين، والخشوع، والعبادات القلبية، وتهذيب السلوك والنفس، وتوحيد الأمة على عبادة الله، وعدم السعي في تشتيتها أوزاعًا وأحزابًا تقتات من بعضها، وتطبيع معنى الرحمة والتبشير: «بَشِّرُوا، وَلَا تُنَفِّرُوا»[1]. رحمة للعالمين أجمع.

هذه هي أهم السنن، فهل ترى سنة النبي ﷺ مخالفة لأصول الأخلاق، أو مجافية لمعنى الرحمة التي جعلها الله مقصدًا للرسالة؟! أو هل ترى فيها سعيًا لبث الضيق والتنفير بدل السعة والتبشير؟!

وهؤلاء هم أحباب محمد ﷺ في العالم الإسلامي، بل العالم أجمع، يهبُّون لنصرته بالدعوات، والمؤتمرات، واللقاءات، والمقاطعات، بل والملصقات، فالله الله أن يكونوا على أثر محمد ﷺ في تحقيق مقاصده؛ مقاصده في جمع الكلمة، ونبذ الفرقة، وفي تحقيق الإيمان والدعوة إليه، وفي مواقفه النبيلة عليه السلام.. ولنا في كل ذلك سنة واقتداء، ولو كره المبطلون.

وأظن أنه لم يمرُّ بالمسلمين عصرٌ يحتاجون فيه إلى إحياء سنته ﷺ العلمية والعملية ومقاصده، مثلما يحتاجون في هذا العصر.

هنا وهناك: انقسامات مذهبية حاضرة لتقديم شخصيات إسلامية، إما نظريًا أو عمليًا فوق مستوى النبي ﷺ أو إلى مستواه.

وانقسامات فكرية داخل مجتمعات المسلمين، قد تكون بسبب مؤثرات داخلية أو خارجية، سواء كانت أفكارًا شرقيةً أو غربيةً، ولَّدت أشكالًا من التفرُّق.

وانقسامات حركية في الجماعات الإسلامية المختلفة، حتى ربما

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٥)، ومسلم (١٧٣٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

أُعطي زعيم الجماعة -أحيانًا- نوعًا من المكانة والهالة عند بعض الأتباع، مما يرفضه المتبوع نفسه، بسبب الارتباط العاطفي المتضخم، والولاء الفكري الراسخ.

ونحن في حاجة إلى سنته ﷺ في صبره ويقينه، وعلى سبيل المثال: كان ﷺ يتدرج في الدعوة إبان الفترة المكية، وتدرُّجه نوعٌ من الصبر الذي وصف الله به الأنبياء ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]، ومن هذه الآية قال الأئمة: «بالصبر واليقين، تُنال الإمامة في الدِّين»(١).

ولمَّا هاجر ﷺ إلى المدينة كان يمشي بخطوات ثابتة ومواقف مدروسة، ولم يكن يغريه أن يقفز قفزات غير مناسبة، أو يحرق المراحل، وحتى ما يعدُّه الناس تراجعًا أو فشلًا، كان ينظر إليه وفق خطة عامة ذكية على أنه نجاح كبير، مثل: صلح الحديبية؛ فمع أن بعض الصحابة ش صنفوه على أنه نوع من التنازل، عده ﷺ نجاحًا كبيرًا، بل سمَّاه الله فتحًا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح:٢]، فإن الآيات في صلح الحديبية على قول أغلب المفسرين(٢).

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٨)، وإعلام الموقعين (٤/ ١٣٥)، وتفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٢).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (٣١٨٢)، وصحيح مسلم (١٧٨٥)، وتفسير الخازن (٦/ ١٨٧)، وتفسير الطبري (٢٢/ ١٩٨-٢٠٢)، وزاد المسير (٧/ ٤١٨-٤٢٠)، وتفسير البغوي (٧/ ٢٩٣)، وتفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٥)، والدر المنثور (١٣/ ٤٥٦-٤٥٩)، وأضواء البيان (٧/ ٣٩٣).

ولمَّا رجع الناس من غزوة مُؤْتة كان بعض مَن استقبل المسلمين في المدينة يَحثُونَ في وجوهِهم الترابَ، ويقولون: يا فُرَّارُ! أفررتم في سبيل الله؟ فيقول رسول الله ﷺ: «لَيْسُوا بِفُرَّارٍ، وَلَكِنَّهُمْ كُرَّارٌ إنْ شاءَ اللهُ»[1].

لأنه ﷺ ينظر للأمر من مبدأ عام، ويمشي بخطوات ثابتة، حتى وصل ﷺ إلى المستوى والتأثير المعروفَيْن.

وإن من سنة النبي ﷺ: فهمه لنفسيات الناس، وإدراكه لطريقة التعامل معهم، وحُسن أخلاقه، ولطفه، وتجرُّده من أدواء النفس وخفاياها وأوضارها، وربما وجدتَ داعيةً إلى سنته ﷺ يبتعد مع الأيام في قضاياه عن الدعوة؛ لكي يقترب من نفسه؛ فيرتبط بموقفه الخاص أكثر، ويغريه اهتمام الناس بذلك وحديثهم عنه، فتدور نقاشاته حول ذاته، وحتى حزنه على مَن ردَّ دعوته هو في حقيقته ليس لفوات الخير عن الناس ورحمته لهم، بل لإحساسه بالتعرض لنوعٍ من الإهانة والابتذال، لتنتهي حقيقة الدعوة عند هذا، وتبدأ حظوظ النفس ومشاكل القلوب.

ومن سنة النبي ﷺ التي يقفزها الكثير من أتباعه: مساعدته للناس على قبول دعوته، ولقد بلغ في هذا إلى قدر عظيم، حتى بنى جسرًا للعدو الهارب، وفتح خطًّا للرجعة لمَن رفض القبول، ولم يكن ﷺ يذكرهم ويعيِّرُهم بالماضي الذي قد يؤذيهم، أو يبعدهم من هذه الدعوة، بل ساعدهم على النسيان، حتى عفا عمن أخطؤوا عليه عام الفتح، وقال:

---

(١) ينظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٢٩)، والثقات (٢/ ٣٤)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٣٨٢)، ودلائل النبوة للبيهقي (٤/ ٤٩٢).

«اذْهَبُوا؛ فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[1].

ونهى عن سب المشركين الأموات؛ حتى لا يؤذوا الأحياء[2].

وقد تجد من المصلحين اليوم مَن يشرف بنفسه على صنع الخصومة، ويضع العقبات لمَن يظهر منه استجابة -من حيث يشعر أو لا يشعر- ويفتح بابًا طويلًا عريضًا للمحاسبة في أخطاء الماضي، وللشروط في قبول الدعوة، كأنه يسعى لتأجيل استجابة الناس، وتأخير وصولهم إلى برِّ الأمان.

يعمل كل هذا في غفلةٍ عن أن الداعية مبلِّغ رشيد؛ يردم ما فسد من عوادي الزمن والأمم، ويخفف أجواء الشر والفتنة، بدل أن يحترق معها أو يحتطب لها، أو يضيف إليها وقودًا جديدًا في سبيل ما يظن أنها دعوة للسنة النبوية، فهذه هي السنة النبوية، وهذه سنن المرسلين، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، فهم لا يسألون الناس أجرًا، بل هم هدًى للعالمين، وصدق الله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

●●●●

---

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١١)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٦١)، والأموال لابن زنجويه (١/ ٢١٤)، وسنن النسائي الكبرى (١١٢٩٨)، ومسند أبي يعلى (٦٦٤٧)، وشرح معاني الآثار (٣/ ٣٢٥)، وأخبار مكة للأزرقي (٢/ ١٢٢-١٢٣)، وسنن البيهقي (٩/ ١١٨)، والبداية والنهاية (٦/ ٥٦٧-٥٦٨).

(٢) كما في حديث المغيرة ﷺ: «لَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ، فَتُؤْذُوا الأَحْيَاءَ». تقدم تخريجه (ص٧٨).

وحديث عائشة ﵂، أنها قالت: ما فعل يزيد بن قيس عليه لعنة الله؟ قالوا: قد مات. قالت: فأستغفر الله. فقالوا لها: ما لك تلعنيه، ثم قلت: أستغفر الله؟ قالت: إن رسول الله ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوا إِلَى مَا قَدَّمُوا». أخرجه البخاري (١٣٩٣)، وابن حبان (٣٠٢١) مطولًا.

«ليس من الضروري أن تطفئ أنوارَ الآخرين؛ لتجعل نورَك يضيء!».

مقالب

مقالب

....

كنت أحسب نجمه قد خفت، لبعد عهدي به، وضعف اتصالي بخَبَره، بيد أن لقائي معه قد غيَّر حسباني؛ فالرجل مشرِقُ الوجه، ظاهر الحماس، متحفِّزٌ للعطاء، يحمل ثلاثة أجهزة جوال، يرد على هذا، ثم هذا، ثم ذاك، وهو منهمِكٌ أثناء حديثه معك بتسطير رسالة، ويقدم لك الاعتذار بأن الأمر عاجل، وإلا فالتهذيب لا يحتمل أن يتشاغل عنك بهذه الطريقة، وحين استطعمته الحديث شعرت معه بنشوة الإنجاز.

فرغ لتوِّه من مؤتمر مهمٍّ شارك فيه، وهو الآن في الطريق إلى ندوة علمية، وسيمرُّ على البيت لأمسية واحدة فحسب، ثم ينطلق إلى سفر طويل، تتخلَّلَه محاضرات عديدة، ينتهي منها بتسجيل برنامج تلفازي في مائة حلقة.

وإجابة على استيضاح بشأن الكتب، فثمت عنوانات عديدة، قد يطبع منها مئات الألوف من النسخ، أما هذا العنوان الخاص فقد طبع منه بحمد الله ثلاثة ملايين نسخة، عدا ما طبع للتوزيع الخيري والنسخ المسروقة!

وفي الموقع الإلكتروني نوافذ عديدة، ومداخلات، وبحوث، وبرامج، وتواصل عبر الإيميل، واستشارات وقصائد ومحاولات..

أدركت كم أن الحياة فعلًا تزخر بالمنتجين والعاملين والمبدعين والمؤثرين على أكثر من مستوى، وفي أكثر من ميدان، وأنها قابلة لتتسع للمزيد والمزيد من الداخلين والمحاولين، فكل قادم إلى هذا الوجود له مقعد مرصود؛ يصله بجهده وصبره، وتوظيفه لمواهبه، بعد توفيق الله وتسديده.

والحياة للناجحين كالجنة، أبوابها عديدة، وفضاؤها فسيح، ولا تزال تستوعب الوافدين إليها، وتدفعهم لأعلى المقامات، كلما أنجزوا وواصلوا «اقْرَأْ وَارْتَقِ»[1].

وهي للفاشلين كالنار تحطمهم، وتذيقهم ألوان العذاب، وترحب بالمزيد منهم ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق:٣٠]، يستوون فيها هم والجماد ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦].

أدركت كم إن المرء محتاج إلى الشعور بالإنجاز والتأثير والنجاح، حتى يواصل سيره، إنه الحادي الذي يدفع النفس إلى ديمومة العطاء والتوهج، ويقاوم عوامل الإحباط واليأس والقنوط.

سبحانك اللهم؛ خلقت فينا هذا الإحساس المعتدل بالإنجاز لدوام دافعيتنا للفعل، وكيف نتوقف ونحن نرى الثمار من بين أيدينا ومن ورائنا، ونجد الرغبة والإقبال، ونسمع الثناء والإطراء، ونلمس التجاوب والتفاعل!

---

(١) كما في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا»: أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤).

أدركت أثر الشخصانية في التقويم، فحين أنهمك في ميداني، وألهو عن الآخرين وأخبارهم، أظن أنهم قد احترقوا، وقد تعزز عوامل الغيرة والمنافسة هذا المعنى.. حتى ليصدق قول المتنبِّي:

كَم قَد قُتِلتُ وَكَم قَد مُتُّ عِندَكُمُ   ثُمَّ اِنتَفَضتُ فَزالَ القَبرُ وَالكَفَنُ[1]

فأقول عن آخرين: إنهم ذبلوا، أو ماتوا، أو قتلوا، أو انتهوا. هذه هي السُّنَّة: «حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»[2]!

وكأنني أعدُّ نفسي استثناء من هذه السنة، وأظن أن البشرية تذبل وتموت لتمنح مكانها لي!

ولماذا أستعجلُ موتَ الناس قبل أوانهم؟ ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون: ١١]؟ فَلِمَ تراني مسارعًا لدفن الناس، حتى قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة؟! نعم! النبي ﷺ يقول: «أَسْرِعُوا بِالجَنَازَةِ»[3]. ولكن أنت أمام قوم أحياء أراك تستعجل مناياهم، أو تمنِّي النفس برحيلهم، ولعلهم أذكر منك وأشهر، ولعلهم أتقى وأبقى، والأعمار بيد الله!

أدركتُ كم نخطئ في تقويم مكانة الآخرين، ونحاول تعميم الانطباع الشخصي الذاتي، وكأنه حكم من الناس أجمعين، وهو انطباع يتأثر بالمنافسة، وبالموافقة أو الاختلاف، وبالحب أو البغض، وما منا إلا..

---

(١) ينظر: ديوان المتنبي (ص٤٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٧٢) من حديث أنس ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (١٣١٥)، ومسلم (٩٤٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ولكن سِترُ الله عصمةٌ.

قد يغيب صاحبك عن ميدان، فيُفتح له في غيره، وقد تكثر عليه الهموم والانشغالات، فيختار أمثلها وخيرها؛ لأن الواجبات أكثر من الأوقات، وقد يعيد انتشار جنوده، بحثًا عن الميدان الأكثر تأثيرًا والأكثر خلودًا والأبقى أثرًا، بعيدًا عن الضجيج الوقتي.

ومن الناس مَن حضوره مرهون بوجوده وحياته؛ فهو عابر للقارات، فإذا مات نُسِي، ومنهم مَن كُتِب له خلود بعلمه وفكره وتجديده وتأليفه، فهو عابر للقرون.

أدركتُ كم نحتاج إلى تقديم الثناء والشكر والإعجاب لأولئك الذين يواصلون ويواصلون، مهما اختلفت الأوضاع من حولهم، يمرون بالجبال والوديان والسهول والأنهار، ويقطعون الفيافي والقفار، ويصلون الليل بالنهار، يمرضون ويصحون، ويفرحون ويحزنون، ويتعرضون للمحن والرزايا والعقبات والمعوقات، ويبطئون السير أحيانًا ويغذونه أحيانًا، ولكنهم مواصلون...

في قلوبهم رحمة الودود..

في عطائهم كرم وجود..

في وجوههم نضرة الخلود..

إنهم مجاهدون..

إنهم مرابطون.

أدركت كم نأخذ من المقالب حين نتحدث عن إنجازاتنا بتفصيل دقيق ممل، وكم نُصَدِّق ما يقوله الناس عنَّا، ونظن أننا رسل الإنقاذ ومصابيح

الهداية، وأن الكون من دوننا سيكون كئيبًا، والناس لن يطيقوا فقدنا!، يقول اليونانيون: «عندما تقوقي الدجاجة تظن أنها ستبيض قمرًا سيَّارًا».

مجاملات الآخرين لك قول طيب، بيد أنه لا يعني أنك استثناء في عالم الإنجاز والإبداع والتفكير، وعليك ألا تأخذه بكامل الجدية، بل فيه قدر من المجاملة اللطيفة.

وإحساسُكَ بأهمية ما تؤديه لا يجب أن يصل بك إلى حد الغياب عن واقعية العمل، ومحدودية تأثيره، وكثرة معوقاته وممانعاته ومضاداته.

ولكي تدرك حجمك تَذَكَّر قائمة طويلة بأسماء النابهين والنابغين الآن، من رجال العلم والفكر والإدارة والمال والإعلام، وحدد موقعك بينهم.

وتَذَكَّر قوائم أكثر من الراحلين ممن كانوا ملء سمع الدنيا وبصرها، وربما لا تحلم أن تصل لأن تكون كواحد منهم، ثم انطووا وانتهوا، فأصبحوا سطرًا في كتاب، أو كلمة في أحدوثة، أو غُمِروا فلم يُذْكَروا، حين تتصفح التاريخ أو تشاهد الآثار، أهرامات الفراعنة، أو قصور الرومان، أو متاحف الفينيقيين، أو فلسفة الإغريق، ستتضاءل إلى جانب اسطوانة ضخمة، أو مدرج هائل، أو مقبرة مهيبة، أو سِفْرٍ هائل، وستعرف أكثر وأكثر كم أنت ذرة تائهة في الفضاء، وكم ينطوي فيك من العوالم والمعالم والأسرار، فإن تواضعت فأنت كبير، وإن تعاظمت فأنت وضيع:

تواضَعْ تكُنْ كالنَّجْم لاح لِنَاظر ... على صَفَحَاتِ المَاءِ وهُوَ رَفِيعُ
ولا تَكُ كالدُّخَانِ يَعْلُو مُحَلِّقًا ... على طَبَقَاتِ الجوِّ وهو وَضِيعُ[1]

(١) ينظر: أعيان العصر للصفدي (٥/ ٤٧٩) ونسبه لموسى بن علي الزَّرزاري، وينظر: جواهر الأدب للهاشمي (٢/ ٦١)، وغرر الخصائص الواضحة (١/ ٢٠).

حجم إنجازك يكبر حين تقربه إلى عينك، وربما غطى عنك الدنيا، ضعه في مكانه الصحيح يكن حاديًا للعمل، محفزًا للعطاء، دافعًا للهمّة، مع قدرٍ من الإدراك الحسن، ولا أقول التواضع، وكم عمل قليل تكثّره النية الصالحة.

وبينا أهم بترك القلم وافتني رسالة تقول:

مَا مَسَّكَ الدَّهرُ إلَّا مَــسَّ مُخْتَبِــرِ ... فَمَا رَأَى مِنْهُ إلَّا أَشْرَفَ الخَبَرِ
فأَقْبَلَ المَجدُ يَسْعَى نَحْوَكم عَجَلًا ... مَسْعَى غُلام إلى مولاهُ مُبْتَدِرِ
يا مَنْ تُسَاقُ البَرايــا طَــوعَ راحَتِهِ ... موقوفةً بَيْنَ قَوْلَيْهِ: خُذِي وذَرِي
يَــا هَــاديًا راقَ مَــرآهُ ومَخْــبَرُهُ ... فَكَانَ للدَّهْرِ ملءُ السَّمــعِ والبَصَــرِ
قالــوا وقلتُ ولكن أين مِنْكَ هُمُ ... النَّقْشُ في الرَّملِ غيرُ النَّقــشِ في الحَجَرِ

فوجدتها -وإن كانت في ظني منقولة- كالمُدَامة[1] تدير الرؤوس، وأدركت كم إن المديح يسكر ويفعل في النفوس فعل الحُمَيَّا![2].

فإذا كان قد غلا واشتد زبده فهو حرام؛ لأنه يغوي الإنسان عن حقيقته، ويحمله على الكبر والبطر، وفيم إعجاب المرء بعملٍ إن كان صالحًا فهو محض فضل من الله، وهو يسيرٌ قليلٌ إلى جنب نعَمِه ومواهبه وعطاياه، وإن كان غير ذلك فهو جسد بلا روح، ومظهر بلا مخبر.

لا يُعجِبَنَّ مَضيمًا حُسنُ بِزَّتِهِ ... وَهَل يَروقُ دَفينًا جَودَةُ الكَفَنِ[3]!

●●●●

(١) أي: الخمر.

(٢) الحُمَيَّا: الشديدة من الخمر. وقيل: بلوغ الخمر من شاربها. وحُمَيَّا كل شيء: أوله وشدته.

(٣) ينظر: ديوان المتنبي (ص١٧١).

«المبادرات الفرديَّة حلٌّ جزئيٌّ حين يغيب المشروع العام».

المسؤولية الفردية

المسؤولية الفردية

هل الإنسان الواحد مسؤول؟

بالتأكيد، فهو جزء من كل المجتمع الإسلامي، وعنصر ضمن تشكيلة الحياة الإسلامية.

وهذا هو المفهوم الإسلامي الصريح: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، بل إن قضية الإيمان بالبعث في العقيدة الدينية الإسلامية تستقلُّ بهذا المعنى بالذات، وقضية الخلق: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر:١١]، وحيدًا حينما يحسِب الإنسان أن ماله وولده وحزبه وجمهوره وطائفته ستُبعث معه، بل حتى أخص قرابته تتخلَّى عنه، يقول الله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، وربما أن فكرة الاعتكاف في الإسلام هي نوع من إعادة المسؤولية الفردية، دون الضغوط الخارجية الطائفية أو الحزبية أو الجماهيرية على العقل المسلم الفرد؛ لاستعادة طبيعته وصحته.

فالجمهور الهاتف المصَفِّق يفعل الأفاعيل؛ ولهذا جاء التوجيه الرباني: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]؛

فالتفكير الطبيعي الإسلامي النظيف لا يبحث عمّا يريده الناس، وإن كان يحترم آراءهم ويقدرها، فقد يخالفك الرأي، ولكنه على استعدادٍ للدفاع عن حقك في التعبير عن رأيك.

وفي الفرد المسلم تكمُن معظم مشاكل الشخصية الإسلامية المعاصرة، وفي ضمن هذه العقلية الحاضرة، يصبح أي حدث قابل لصناعة مشكلة في غيابٍ عن حسِّ المسؤولية الفردية التي كرَّسها الإسلام؛ فالقوَى الخارجيةً عند الفرد المسلم هي سبب كل المشاكل، والمؤامرة العالمية والصهيونية هي الأيدي الخفية والأصابع المؤثرة الوحيدة في اللعبة.

وربما كان الحكام، أو العلماء، أو القدر، أو التاريخ مَسكَنُ الأزمة -حيث يظن الفرد- ويعتقد ببراءة جانبه، ولا يخطر في باله أن يتهم نفسه، فآراؤه صحيحة، ومواقفه سليمة، يعرف كلَّ شيء، ولو أن الناس أطاعوه لحل مشكلات العالم.. بينما عجز عن حل مشكلة عائلية.. و يخفق أمام معادلة رياضية، ولا يملك خبرة ولا دراسة، ولا هو قادر على اتخاذ قرار خاص بتغيير خلق ذميم، أو عادة رديئة في نفسه.

شاب حديث عهد بالتزام، يظن أن بيده المفاتيح، ويظن أن يده يد عيسى عليه السلام، التي تُبرِئُ الأكمه والأبرص، وتحيي الموتى بإذن الله، وحتى حين يتحدث عن الكتاب والسنة، يظن أنه هو الذي يفهمها، ويسهل عليه اتهام الآخرين بالجهل أو الهوى، وعدم فهم الكتاب والسنة.

فهذا الإخفاق الشخصي الفردي، هو جزء من مشاكل الأزمة العامة، وليس حلًّا أمميًا ناجحًا.

ومسؤولية الفرد تتفاوت حسب موقعه وأهميته وخبرته وعلمه، وهي

مسؤولية تاريخية تراكمية، ليست وليدة الساعة ولا بنت اليوم؛ فالمسؤولية تعني: تحمل التكاليف، وأداء الأمانة، وكسب الخير، وأداء المعروف.

وهي -وإن كانت معاني فردية- فهي ترجع على الأمة جميعها بالخير والفضل، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِه، فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»[1]. حتى عدم أذاك للناس -إذا عجزت عن هذا كله- صدقة منك على نفسك.

وما معنى فروض الأعيان -كما يسميها الفقهاء في التراث الإسلامي- إلا المسؤولية الفردية؛ وكل ذلك لتنمية الشخصية الإسلامية على مستوى يؤهلها لإدراك النجاح المجتمعي العام.

ومع هذا لا تزال شرائحُ واسعةٌ من المسلمين مأخوذةً بالهمِّ العام على حساب الخاص، وبالمشاكل العالمية على حساب المشاكل الشخصية، وبالهموم الأممية على الهموم الوطنية، وبقضايا العالمين أجمع على قضايا النفس التي تمتلئ بأدواء متراكمة، من ظلم النفس والناس، وبخس الحق، وأكل مال اليتيم، والجهل والبغي، والغفلة، وضعف الإيمان، وأدواء اللسان، والأهواء التي تضرب في فكره بكرةً وعشيةً.

فهل يجوز بعد ذلك كله أن يتحدث عن مشاكل المسلمين، وقد أصبح شيئًا من تلك المشاكل؟

---

(١) صحيح البخاري (٢٩٨٩)، وصحيح مسلم (١٠٠٩).

إذا رُمتَ أَن تَحيا سَليمًا مِنَ الأَذَى ... وَدينُكَ مَوفورٌ وَعِرضُكَ صَيِّنُ
فَلا يَنطِقَنْ منكَ اللِّسانُ بِسَوأَةٍ ... فَكُلُّكَ سَوءاتٌ وَلِلناسِ أَلسُنُ
وَعَيناكَ إِن أَبدَت إِلَيكَ مَعائِبًا ... فَدَعها وَقُلْ يا عَينُ لِلناسِ أَعيُنُ
وَعاشِرْ بِمَعروفٍ وَسامِحْ مَنِ اعتَدى ... وَدافِعْ وَلَكِن بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ[1]

إن حلَّ مشكلات العالم يبدأ من النفس، ومسيرة ألف ميل في إصلاح الأمة تبدأ بخطوة إصلاح النفس أولًا.

إن الفرد المسلم اليوم تأخذه أحداث المسلمين وظلامتهم التي تتفجر في كل مكان عن أدواء النفوس، ومشاكل التفكير، وأساليب تطوير الفرد المسلم التي هي -بمعنى ما- جزء من حل الأزمة العامة؛ فإن الأفراد الكامنين خلف المسميات العامة والجمعيات والمؤسسات والدول هم جزء لا يُستهان به من قوة التأثير، وإن لم يذكرهم التاريخ أو الناس أو الإعلام.

وإنَّ فتوح الإسلام -مثلًا- ليست خالدة بأسماء قُوَّادِها الذين يُعرفون بها، بل أيضًا بأولئك الأفراد المقاتلين الذين حاربوا وصبروا وربما قُتلوا، وأولئك النساء الصابرات المؤمنات الداعمات.

والنجاحات الحضارية الإسلامية والمعمارية -مثلًا- ليست حِكْرًا على أسماء الآمرين بها من الخلفاء والأمراء، بل هي أيضًا في أولئك المنفذين من تلك الأيدي المشمِّرة، والسواعد النشيطة، والعقول المخططة، وأصحاب الثراء المُعْطِين، وإن بقيت فيما بعدُ باسم أحد هؤلاء.

---

(١) ينظر: ديوان الشافعي (ص١١٥).

وإنَّ معنى المسؤولية الفردية -في النهاية- متضمن في الحقيقة القرآنية والتفكير الإسلامي، وهو أيضًا معنى حضاري مهم للبناء الراشد؛ فالبنيان لبنات متفرقة، وفي الحديث الشريف المتفق عليه: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[١].

●●●●

(١) صحيح البخاري (٤٨١)، وصحيح مسلم (٢٥٨٥).

«اسأل نفسك: هل نجحت فيما تقول: إن الآخرين فشلُوا فيه؟».

رحيلك ليس مشكلة

رحيلك ليس مشكلة

يبدو الإنسان مهمومًا بما سيُقال عنه بعد رحيله، ولعله لأجل ذلك يعتني العِلْيةُ من القوم بأضرِحَتِهم حفرًا؛ كما عند الفراعنة في أعماق الجبال، أو تشييدًا كما عند كثير من الأمم.

وهذا مما نهى عنه الإسلام، وأمر بتسوية القبور، وعدم رفعها أو تشريفها أو البناء عليها[1].

والذكر الحسن هو من الحوافز القوية لدى الإنسان، وهو حافز فطري من حيث الأصل؛ فلا عتب فيه، إلا إذا تعدى الحد، وانقلب إلى الضد، مثله في ذلك مثل غريزة الأكل أو النكاح أو التملُّك أو سواها.

تساءلت مع نفسي! فسألتها أو هي سألَتْنِي.. ماذا سيُقال عنك بعد رحيلِك؟

وأيقنت أن هذا السؤال يخطر على بال كثيرين، ومِن قَبلُ تردد في أعماق بَشَرٍ مَرُّوا من هنا، ووضعوا بَصْمَتَهم ثم غادروا، والسؤال مدفون في ضمائرهم، أو هو بوح لم يصلنا صداه!

---

(١) كما في صحيح مسلم (٩٦٩) من حديث علي ﷺ، أن النبي ﷺ بعثه: «ألا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته».

و(٩٧٠) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يُبنى عليه».

والسؤال هنا هو نتاج الفطرة، وإلا فليس ثمت في المنطق ما يدعو إليه أصلًا.

هل أنت استثناء حتى تسأل سؤالًا كهذا؟!

قد تذهب حيث لا يذكُركَ أحد، إلا القليل من دائرتك الضيقة المحدودة، ممن ألفوْكَ وصرتَ جزءًا من كينونتهم، كالأهل والأطفال وشركاء العمل، وقد يكتُبُ عنك بعض مقالات في صحيفة أو مجلة أو موقع إلكتروني، أو ينبري بعض مَن يرون لك عليهم حقًّا لإحياء هذه المناسبة بطريقتهم الخاصة؛ وفاءً لذكراك!

وعلى أحسن الأحوال، ستكون مثل عديد ممن ترجم لهم الذهبي أو ابن كثير أو السُّبكي أو ابن خَلِّكان.. وعندها ستكون رجلًا مذكورًا في بعض المصادر والمدونات المعنية بالتراجم والرجال.

وسينقل المؤلِّف عنك -إن كان محايدًا- بعض ثناءات لا تخلو من مجاملة، أو بقصد رسم القدوة للأحياء، فأنت ثاوٍ هامد، لا تُخشى منك منافسة، ولا يثور عليك حسد، اللهم ربما!

سيقرأ عنك قرَّاءٌ يسمعون باسمك لأول مرة، فهم مستغربون من هذا الثناء.. هل أنت مظلوم مبخوس الحق؟ أو المترجِم بالغ وتجاوز الحد؟ وهم لو قارنوك بغيرك لوجدوا أن الحياة تحفُل بجمٍّ غفير ممن لهم ذكر أو أثر يكبر أو يصغر، في الشأن العلمي، أو التربوي، أو الإعلامي، أو الاقتصادي، أو السياسي.

وأن هؤلاء حين يرحلون فلن يُعدَم مَن يؤرخهم أن يجد ما يقوله عنهم، وإذا كان معنيًا بالكتابة فسيجمع قصاصات من هنا وهناك، قد توهم مَن يقرؤها مجتمعة أنه أمام شخصيةٍ استثنائية، بَيْدَ أن الأمر ليس كذلك!

ستكون الأمور على ما يرام، والناس بخير، والكون كما هو يعمل ويتحرك، والبرامج قائمة، رحيلك لن يكون مشكلة حقيقية، وإن قيل ذلك!

عَلَيكَ سلامُ اللهِ قَيسَ بنَ عاصِمٍ ... وَرَحمَتُهُ ما شاءَ أَن يَتَرَحَّما
تَحيَّةَ مَن أَولَيتَهُ منكَ نعمَةً ... إذا زارَ عَن شَحطٍ بلادَكَ سَلَّما
فَما كانَ قَيسٌ هُلكُهُ هُلكُ واحِدٍ ... وَلَكِنَّهُ بُنيانُ قَومٍ تَهَدَّما[1]

ستكون النوبة إلى آخرين، وسيقومون بالمهمة على الوجه المستطاع، وستُداوَى الجراح مع الزمن، وينتهي كلُّ شيء.

هنا يكون الموت حافزًا حقيقيًا للعمل والإبداع والمواصلة والإنجاز، وكسب المزيد من الخبرات، وليس سبيلًا إلى التراخي والهمود واستعجال الموت قبل حلوله.

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩]، وفي الحديث المرسل عن عمرو بن ميمون الأودي، ورُوي موصولًا، ولا يصح: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قبل سقمِكَ، وَغِنَاكَ قَبلَ فَقْرِكَ، وفراغَكَ قَبلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**»[2].

---

(١) ينظر: الآحاد والمثاني (٢/ ٤٣٦)، والاستيعاب (١/ ٤١٠)، والمجالسة للدينوري (٨٠٤/ م) منسوبًا إلى عبدة بن الطبيب.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢)، ووكيع في الزهد (٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٣١٩)، والنسائي في الكبرى (١١٨٣٢)، والقضاعي (٧٢٩)، والبيهقي في الآداب (٨٠٩) من مرسل عمرو بن ميمون.

وأخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل (١٠٩)، والحاكم (٤/ ٣٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٧٦٧) موصولًا بذكر ابن عباس رضي الله عنهما، وبيّن علّته البيهقي في الشعب.

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**». وكان ابنُ عمرَ رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصَّباحَ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظرِ المساءَ، وخُذْ من صحَّتكَ لمرضكَ، ومِنْ حياتكَ لموتكَ»[1].

على أنَّ رحيلَك فتح بابًا، ومنح فرصةً لقادمين جُدد، تنفَّسُوا الصُّعَداءَ، ولو قُدِّر لك أن تسمع ما يقال حينئذٍ، لترامى إلى أذنك صوت يقول: رحيله محزن، ولعله كان خيرًا. وآخر يهمس: ظننا أنه سيترك فراغًا، بيد أن الأمر لم يبد كذلك. وثالث يبوح: قدَّم ما لديه!

وسبحان مَن يُفْنِي ويَبْقَى؛ فتخلف الدهورَ دهورٌ والأنامَ أنامٌ.

يا صَاحِبي قُمْ فَقَدْ أَطَلْنَا ... أَنَحنُ طُولَ المدى هُجودُ
فقالَ لي: لن نَقُومَ منها ... ما دامَ من فَوْقنا الصَّعِيدُ
تذكُرُ كَمْ لَيْلَةٍ لَهَوْنا ... في ظلِّهَا والزَّمانُ عِيدُ
وكَمْ سُرُور هَمَى علَيْنا ... سحابَةٌ ثَرَّةٌ تجودُ
يا وَيْلَنَا إِنْ تخطَّفَتْنا ... رَحمةُ مَن بعثُه شَدِيدُ[2]

(١) صحيح البخاري (٦٤١٦).

(٢) ينظر: ديوان ابن شهيد (ص٧٨)، والتذكرة للقرطبي (ص١٢٢).

«الناس الذين يرفضون الصفح أو يبطئون فيه، يضرُّون أنفسهم، أكثر مما يضرُّون الآخرين، وعليهم أن يتحملوا التوتر العاطفي المصاحب للضغينة».

إعلان من مفقودات

إعلان عن مفقودات

نعم، وفي مقالة عريضة تنشر هنا!

لا بأس أن تقرأ ما بين السطور، فربما كنتَ معنيًّا بهذا الحديث.

فأين أنت إذًا أيُّها الوفاء المتجسِّد إنسانًا يدبُّ على الأرض؟!

أين أنت أيها القلب المتَّقِدُ حبًّا وصفاءً وصدقًا.. تتغير عليه الأحوال ولا يتغير، حتى لكأنه المقصود بقول المتنبي:

وحالاتُ الزَّمانِ عليك شتَّى ... وحالُكَ واحدٌ في كلِّ حالِ[1]!

أم تُراكَ أَبَيْتَ إلَّا أن تُصَدِّقَ قولَ الآخر:

أيقنتُ أَنَّ المستحيلَ ثلاثةٌ: ... الغولُ والعنقاءُ والخِلُّ الوَفِي[2]

إن البصر الثاقب ليعرف أولئك الذين يُمَهِّدُون لأنفسهم، ويصطادون الفرص، ويذرُفون الدموع، ويجيدون التلوُّنَ، ويلبَسون لكل حالة لَبُوسَها، لكنه لم يعرفك فيهم، ولم يرك من بينهم، ولهذا افتقدك فنادى عليك:

---

(١) ينظر: ديوان المتنبي (ص٢٦٨).

(٢) ينظر: ديوان صفي الدين الحِلِّي (ص٦٦٩).

وداعٍ دَعَا إذْ نَحنُ بالخَيف من مِنَى ... فهيَّجَ أحزانَ الفـؤادِ ومـا يـدري
دَعَا باسْمِ ليْلَى غيرَهـا فكأنمـا ... أطارَ بَلَيْلَى طائرًا كان في صَـدْري
دَعَا باسمَ ليلى أسخن اللهُ عينَـه ... وليْلَى بأرض الشَّام في بَلَـدٍ قَفْـرِ
عَرضتُ على قلبِي العَزاءَ فقالَ لي: ... مِن الآن فاجزعْ لا تملَّ مـن الصَّبـرِ
إذا بانَ من تَهوى وشطَّ به النَّوَى ... فَفِرْقَةُ مَن تَهْوَى أَحَرُّ من الجَمْرِ[1]

لقد نظمتُ فيكَ الأشعار بعد ما تربعتَ على عرشِ الفؤاد، واستوليتَ على سويدائه، وكنتَ إنسانَ عينه، وعين إنسانه، وها أنا أُدبِّج فيك المقالات التي لا تتجاوز أن تكون غَرفة من بحرِ خواطري حولَك.

ربما اضطربت الحروف في عينيك الآن، وتساءلت: أتراه يقصدني؟

وهل أقصد إلا أنت؟

بِوُدِّي أن أعرف! أتغير قلبُك.. ذلك المشرق بالصدق والإخلاص والنقاء؟ أم غالبته عوارض الحياة وكُدوراتها، فلوَّنته بغير ما اعتاد؟

أتغير خلقُكَ الشريفُ الذي هو أنموذجٌ يُحتذَى، ومَثَلٌ يُتَّبع، ومحلُّ إعجابٍ لمَن عرفك ومَنْ لم يعرفك، أم لا زلتَ على عهدي، ولم تتغيَّر بعدي، ولكنْ حال بيني وبينك الحال؟

أتراك تجد ما أجد، من وَجْدِ البُعد، ومرارة الهجر، حتى إني لآوي إلى مخدعي لهجعة نوم فينتابني خيالُكَ اللطيفُ، فأهشُّ له وأَبشُّ، وأَبثُّهُ شكواي وشَجَنِي، وأسائله حتى لأذكر قول القائل:

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لِـمَيَّةَ نَاقَتِي ... فما زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَه وأخاطِبُهْ

---

(١) ينظر: ديوان مجنون ليلى، قيس بن الملوح (ص٣٣).

وأَسْقِيهِ حَتَّى كادَ مما أَبُثُّـــهُ تُكَلِّمُني أَحْجَــارُهُ ومَلاعِبُـهُ[1]

إنَّ المرء ليعرف في حياته الكثير من الناس ممن زاملهم أو جاورهم، أو رافقهم في صِبا، أو شاركهم في مجهود، أو جالسهم يومًا، أو أحبهم أو أحبوه، ثم تفرقت بهم السُّبل، وذهب كلٌّ إلى شأنه، ونسي بعضهم بعضًا، حتى يلتقوا فيبتسم بعضهم إلى بعض، ويتذاكرون العهد القديم الذي يظلُّ جميلًا؛ لأنه قد مضى وانقضى، ولا سبيل إلى ردِّه، لكنْ مثلُك هيهات أن يُنسى حتى ينْسَى الإنسانُ قلبَه، أو يسلوَ عن نفسه، فلقد كنتَ سرورَ العين، ونشوةَ الضمير، ونعمةَ الحاضر، وتطلعَ المستقبل.

ولئن قالت العرب: (إن الشيء من مَعْدنه لا يستغرب)، فلعَمْر الله، لقد صدقوا؛ فالشيء من غير معدنه غريب، وما كنتَ إلّا الشفافية التامة تجسدت في لحم ودم، وتمثلت بإذن ربِّها بشرًا سويًّا.

لقد عدتُ إلى نفسي وحاققتها عما جنت وفعلت، وما فرطت وقصرت.. وقلت لها: يداكِ أوكتا وفوكِ نفخ. وَأَرْدَفْتُ: هذا أثر غفلتِكِ وسوءُ تدبيركِ، وإجحافكِ بحقوق الجليس والأنيس!

فاعتذرتْ إليَّ؛ أن التكلُّفَ والاحتياطَ في معاملة الصاحب إنما ينشأ عن نقص الأخوَّة، وأن عَقدَها إذا استحكم وتم ورسخ، لم يؤثرْ فيه جفاء، ولم يكدِّره بِعَاد.

أفترى عذرَها لديكَ مقبولًا، وكيف لا وأنت من الكرام؟

أم تُراكَ تقول فيها ما لا تقول فيك؟!

---

(١) ينظر: ديوان ذي الرُّمَّة (ص٢٣)، وديوان ذي الرمة بشرح الخطيب التبريزي (ص٢٨٧).

أم أنت تعتب الآن على هذه الكلمات المرقومة على قارعة الطريق، يقرؤها الرائحِ والغادي، فيتساءلون عن معانيها ومراميها ويديرون رؤوسهم ويقلّبون أيديهم؟

أتراه حديثٌ عام أم خاص؟ أم أفكار أم أشخاص؟

فلا عليك إذًا؛ فإنك وإن أدركت مالم يدركوا، ووقعتَ من مدارك القول على ما لم يقعوا، إلا أن الناس جُبِلوا على البحث عن ما وراء الوَراء، وأولِعُوا بالإغراق في التحليل والتعليل، وانعقد في قلوبهم أن استقراء المعنى المباشرِ سطحيةٌ وسذاجة، فهم ولا بد تاركوا العِنان لخيالهم بحثًا عن معنى يتعدَّاك إلى سواك، ويجعل من الإطار المخصوص فكرة ذات شُمولٍ وذيول.

أيُّها الوفاء!

مَن نفاك فقد احتكر لنفسه الكمال، وأنحى على غيره بالملام، والجنة على المستكبرين حرام.

ولذا، فليكن من العدل والإنصاف منِ النفس أن تقول:

إن التُّربة التي غَرس فيها لم تكن محلًّا صالحًا، فلم يُكتب فيها نماؤه، ومن ثَمَّ ذبل عودُهُ، وَجَفَّ ماؤه، وغاض رُواؤه، وهذه سنة الله في العباد، ما اجتمعوا إلا ليتفرقوا:

لكلِّ امرِئٍ ضيفٌ يُسَرُّ بقُرْبِهِ
ومَالي سُوى الأحزانِ والهمِّ من ضَيفِ
له منطِقٌ يَرْمِي القُلُوبَ بأسْهُمٍ
أَشَدَّ مِنَ الضَّربِ المُدارِكِ بالسَّيفِ

يقولُ خَلِيلي: كيف صبرُك بعدَنا
فقلتُ: وهــل صبــرٌ فَيُسْأَل عنْ كَيْفِ[1]؟!

وفاءً لحقك؛ أسأل الله أن تكون سعيدًا في حياتك مُوَفَّقًا في عملك، صالحًا في دينك، وألَّا تسبب هذه الكلمات جُرحًا لروحك الرقيقة، وطبعِك الهادئ ونفسِك الراضية.

●●●●

(١) ينظر: معجم الأدباء (١/ ١٠٩)، وأمالي الزجاجي (ص٦) منسوبًا إلى أبي بكر الأصبهاني.

«يُوجد دائمًا قمَّةٌ أعلى ذاتُ
منظرٍ أجمل، شيء ينتظرني لأتعلمه.
لا تُحبط همَّتي بمدحِك المفرط، أو
ذمِّك المفرط.

دَعْنِي أمْضِي قُدُمًا في طريق النُّمُوِّ
حتى آخرَ لحظةٍ من عُمري!».

الاتصال المباشر

الانفعال المباشر

....

حين لا تقوى «المَلَكة الحضاريَّة» لدى المرء، يكون أقرب إلى محاكاة الفطرة والغريزة والاستجابة الفورية لها، دون مراجعة أو انتباه.

والتجربة البشرية بالاتصال والتعارف والمراقبة والتصحيح؛ تفضي إلى أن يمتلك المرء الفَطِنُ المزيدَ من الفَهم لشخصيته، ودوافعه ومشاعره وأخلاقه، والمزيد من تطويرها وإصلاحها.

في المجتمع البدائي البسيط يستسلم المرء لرغبته، ويستجيب لغريزته، ويمضي مع انفعاله المباشر، غضبًا كان أو رضًى أو فرحًا أو حزنًا أو رغبة..

العفوية مطلب، بَيْدَ أن العفوية لا تَعني الاستجابة السريعة للانفعال الشخصي، وإنما تَعني فهم الطبيعة والتعامل معها بواقعية وصدق، وترك التكلف والمبالغة.

وهذه الاستجابة غير المدروسة هي نتاج قلة الخبرة بالحياة والأحياء، وقد يعبر عنها بالعفوية الفجَّة الساذجة، المصبوغة بالأنانية وتجاهل الآخرين.

علوم التنمية البشرية اليوم والبرمجة والتدريب تعتمد كثيرًا على

رصد التجارب الإنسانية، وفهم الذات، وتعويد المرء على إدراك سلوكه وتصرفه والتيقظ له جيدًا، وضبط انفعالاته، غضبية كانت أو شهوية أو غيرها، فلا يسمح باندفاعها دون سيطرة أو تحكم، بل يحكمها ثم يتساءل في داخله: كيف يعبِّر عنها؟ وقد يقتنع بوأدها وتصريفها بصورة إيجابية، وليس تفلُّتها.

في مثل قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ [الشورى:٣٧]، إيحاء شديد بهذا المعنى، فثمَّ معالجةٌ لدوافع الغريزة الفطرية، وتغلُّبٌ على نوازع الهوى، وإيثارٌ للمغفرة، حتى مع الغضب.

وتَجْهَلُ أَيْدِيْنَا ويَحْلُم رَأْيُنا   ونَشْتُمُ بالأَفْعَالِ لا بالتَّكَلُّمِ(١)

وقال آخر:

وَلَلْكَفُّ عَنْ شَتْمِ اللَّئِيْمِ تَكَرُّمًا   أَضَرُّ لَهُ مِن شَتْمِهِ حِيْنَ يَشْتُمُ(٢)

وهذا نموذج لمَن لا يقمع الغضب أو يستأصله، ولكنه يسمح للعقل أن يفكر كيف يعبِّر عن غضبه؛ فالرأي حليم، أي أن العقل فعَّال لم ينكسف بالغضب، وهو يفكر كيف يعاقب المخطئ، والشتم هنا ليس جلبة لغوية أو سجلًّا بمفردات السباب، ولكنه فعل مكافئ.

ومثل هذا المعنى لائق في حق أعداء الأمة وخصومها المعتدين، الذين لا يردعهم إلا الفعل المكافئ لفعلهم، وسبهم لا يعني شيئًا على

---

(١) ينظر: أدب الدنيا والدين (ص٢٦٥)، ونهاية الأرب في فنون الأدب (٣/ ١٩١)، وسمط اللآلئ (١/ ٩٦).

(٢) ينظر: معجم الأدباء (٢/ ٤٧٥)، وشرح نهج البلاغة (٢٠/ ٦١).

قاعدة العربي القائل:

أَوْسَعْتُهُمْ سَبًّا وأَوْدُوا بالإبِلِ[1]!

أما أبناء الملة ورفاق الطريق، فالشأن معهم آخر، إن عصيان الهوى وقمع الغضب ما أمكن، وإيثار الحلم والصبر والإحسان والتجاوز والصفح والتسامح، وبقية المفردات الجميلة التي تَزْخَرُ بها لغتُنا الشاعرة، وتمتلئ دواوين السنة النبوية بالثناء عليها، وتكتظ كتب الأدب والأخلاق بقصصها وطرائفها، يشتكي الواقع من الجفاف في التعامل في تطبيقاتها الميدانية..

حتى يكاد الناس أن يملُّوا من الحديث عنها، ليس زهدًا، ولكن تطلُّعًا إلى حديث بالقدوة والفعل، ونصفح بالأفعال لا بالتكلُّم.. فأين القدوة؟!

بعيدًا عن التنظير، يحتاج المرء في قيادة السيارة ومراعاته حق الطريق وحق الآخرين وعدم الإزعاج أو إطلاق العنان لصوت المنبه أو في التوقف أو تغيير الاتجاه، كما يحتاج في أكله وشربه ونظافته، كما يحتاج في لباسه وهندامه[2]، كما يحتاج في لسانه ولغته وجديته وتفاعله، كما يحتاج في دقيق شؤونه وجليلها؛ إلى وعي تام بما يفعل وتصحيح دائم وترقٍّ إلى السلوك الأفضل، باعتباره تعبيرًا عن كمال النضج الإنساني واستكمالًا للهداية: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة:٦].

●●●●

---

(١) تقدم تخريجه (ص٩٦).

(٢) كلمة فارسية، تعني: الأناقة والمظهر العام.

«عندما يهاجَم الصقرُ من قبل أسراب الغربان، فإنه لا يتعارك معها، ولكنه يحلق إلى آفاق أوسع وأعلى؛ حتى تتركه الطيور المزعجة وشأنه».

الهدوء

الهدوء

....

«أَهْدأُ ما يكون البحر عميقًا».

«العربة الفارغة أكثر جَلَبةً[1] من العربة الملأى».

الأمثلة الإنسانية تحفل بإبراز الهدوء على أنه فضيلة؛ وهو كذلك.

فالعقل يؤدي دوره حين يكون الجوُّ صحوًا، أما إذا حامت حوله سحب الغضب؛ فإنه ينكسف ويضعف، ويصبح تابعًا ذليلًا للعاطفة العاصفة!

ولا يجد خَصمُك ما يهزمك به أكثر من أن يجعلك في حالة استفزاز؛ فأنت حين تبتسم تفقد عدوك لذة الانتصار.

يقول ربنا سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى:٣٧].

ويقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ تَتَوَقَّدُ**»[2].

وحين حضرت أبا طالب الوفاةُ دخل عليه النبيُّ ﷺ وعنده أبو جهل وعبد اللَّه بن أبي أُميَّة، فقال النبيُّ ﷺ: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّـهُ. أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّـهِ**». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُميَّة: يا أبا طالبٍ،

---

(١) أي: صوتًا.

(٢) أخرجه أحمد (١١٥٨٧)، والترمذي (٢١٩١)، والبيهقي في الشعب (٨٢٨٩) من حديث أبي سعيد ﷺ.

أترغب عن ملَّة عبد المطَّلب؟! فقال النبيُّ ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**». فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1].

الموقِف صعب؛ حيث إن النبي ﷺ أحبَّ أبا طالب، وقدَّر مواقفه النبيلة إلى جانبه، وهو في النزع؛ فهي الفرصة الأخيرة ولن تتكرر، والموضوع هو أخطر الموضوعات على الإطلاق، هو موضوع الإيمان بالله ورسله وعبادته وتوحيده ولا يتطلب الموقِف من أبي طالب أكثر من النطق بالشهادتين، وهو كان يقول:

ولقَد عَلِمْتُ بأَنَّ دينَ محمَّدٍ ... مِنْ خَيرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِيْنًا
لَولا الملامَةُ أو حَذَاري سُبَّةٍ ... لَوَجَدْتَني سَمْحًا بذاكَ مُبِينًا
وبَرَزْتَني وعلِمْت أنَّكَ نَاصِحي ... ولقَدْ صَدَقْتَ وكُنْتَ قَبلُ أَمِينًا[2]

ويقول:

لَقد عَلموا أنَّ ابننا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَيهم وَلا يُعنَى بِقَولِ الأَباطِلِ
فَوَاللهِ لَولا أَنْ أَجِيءَ بِسُبَّةٍ ... تَجُرُّ على أشياخنَا في المحافِلِ
لكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ ... من الدَّهرِ جِدًّا غيرَ قولِ التَّهازُلِ[3]

ولقد أدرك النبي ﷺ بفطرته أن الانفعال في هذا الموقف لا يزيد الأمر

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث المسيب بن حزن ﷺ.

(٢) ينظر: ديوان أبي طالب (ص٩١).

(٣) ينظر: ديوان أبي طالب (ص٧٣).

إلا تعقيدًا، فقال بكل هدوء، ولطف: «يا عمُّ، قل: لا إلَهَ إلَّا اللهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بها عِنْدَ اللهِ»، ويعيدها عليه، ولم يشأ ﷺ أن يدخل في عراك مع قطَّاع الطريق ممن حول عمه، وكانوا يثبتونه على الشرك ويقولون: (أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟). فيذكرونه بأجداده ودينهم، ويحذرونه من خلافهم ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ ﴾ [ص: ٦].

وهذا يذكِّر بموقف نوح ﷺ، وهو منهمك بتقرير الأصل الأكبر: الإيمان والتوحيد: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۝١٢ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴾ [نوح:٥-١٤].

هل يجوز أن نسوِّغ لأنفسنا حين تغضب وتثور أننا على الحق، أَوَ ليس الحق دافعًا إلى الهدوء والصبر وسَعة الصدر؟!

أليس الغضب عاصفة تُشَوِّش على وسائل الاتصال والتلقِّي وتمنع التركيز؟

حين تقرأ لوحة جميلة تقول لك: «الحِلْم سيد الأخلاق». وتتأملها، تجد أن الحِلْم حين الاختلاف والاتفاق والقبول والرفض؛ وسام يتزين به مَن اختاره الله لذلك؛ ليزيد في فضائله ويخفِّف من رذائله، حتى الظالم حين يكون حليمًا يختلف الناس حوله، ويلتمس قوم له المعاذير.

ما سرُّ الاحتدام[١] والروح الغضبيَّة التي تُطبِعُ كثيرًا من العرب اليوم بمَيْسَمِها[٢]؛ حتى ليبدو أن معيار الغيرة والقوة والشجاعة هو الغضب؛ بينما يقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**»[٣].

الأمر لا يتطلب إلغاء الطبيعة الإنسانية أو تجاوزها، أو إقصاء الغضب أبدًا؛ فهذه مهانة لا تتفق وعزة المرء وكرامته، بيد أن مقدار الغضب والجاهزية له لدى شعب أو أمة تحتاج إلى معايرة وضبط، ولا يجوز أن نعتبر الانسياق مع طبيعتنا هو مقتضى الديانة؛ فالدين جاء للتهذيب والتزكية والتربية، وفي مكة تربَّى المسلمون على تحمل ألوان العَنَت والتعذيب، دون أن ينتصروا لأنفسهم، حتى صفت فِطَرُهم وزكت طبائعهم وتجرَّدوا من حظوظ نفوسهم، ثم أذن لهم بعد ذلك في الانتصار، بعدما تخلَّصوا من حمية الجاهلية.

أن يكون الغضب هو الأصلُ في حياتنا وعلاقاتنا وخطبنا ومواقفنا ولغتنا؛ فهو منذر بفقدان السيطرة على النفس والاحتكام إلى العقل والمصلحة.

●●●●

---

(١) أي: الشدة.

(٢) أي: صارت تلك الروح علامة خاصة لكثير من العرب.

(٣) صحيح البخاري (٦١١٤)، وصحيح مسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«إذا فعلت الخير فستجد من يتَّهِمُك بأن لك دوافع خفية، وكأن لا أحد يفعل الخير إلا وعينه على ذاته!

* والخير الذي تفعله سوف يُنسى سريعًا.

* وخوضك سيعرضك للتجريح.

* امض ولا تتردد، وليكن فعل الخير سجيتك».

محكات الأخلاق

محكّات الأخلاق

الأخلاق الكريمة مشترك إنساني أَطبقت الشرائع على تطلبه والثناء عليه وفضيلة السعي في تحصيله، وهو جزء أساس وضروري من مضمون الرسالات.

ولا أجدني محتاجًا إلى الاسترسال في هذا المطلب؛ لأنه مما أجمع عليه الناس، فحتى الذين يحاربون الأخلاق أو يمارسون نقيضها؛ يعترفون بألسنتهم بقيمتها العالية ومكانها الرفيع!

وقد يتكلَّف المرء الخُلُق في حال ما.. اعتيادًا وتدريبًا، وهذا جيد.

لكن من المذموم جدًّا أن يتظاهر المرء بالخُلق استغفالًا للآخرين واستجلابًا لمصلحة أو مداراة لظرف خاص.

إن المَحَكَّ الحقيقي للخُلُق الكريم هو الدأب والديمومة؛ ولذا قيل عن السفر: إنه يُسْفِرُ عن أخلاق الرجال.

فالخُلق الحق يتجلَّى في البيت حين يتعامل المرء مع زوجه سنوات طوالًا في العسر واليسر والمنشط والمكره، ويحاول أن يظل مُمسكًا بزِمام نفسه، متحليًا بالصبر، معرِضًا عن اللغو، متسامحًا كريمًا؛ فالخُلق الصادق يَبِينُ على محك الزوجية والأسرة.

وهكذا في الصحبة حين يكون الصاحب وفيًّا لا تغيره الأحوال.

وما أندر الأوفياء!

يقول عصام العطار:

يَا أَوْفِيَاءُ وَمَا أَحْلَى الوَفَاءَ عَلَى تَقَلُّبِ الدَّهْرِ مِنْ مُعْطٍ ومُسْتَلِبِ
أَفْدِيكُمُ عُصْبَةً للهِ قَدْ خَلُصَتْ فما تَغَيَّرُ في خَصْبٍ ولا جَدبِ

وما أكثر الذين يظن المرء أنهم عُدته للدهر، فإذا هم عون للشدائد عليه، كما قال ابن صُمادح:

وزهَّدَني في النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ وطُولُ اختباري صَاحبًا بَعْدَ صَاحِبِ
فَلَمْ تُرِني الأيَامُ خِلًّا يَسُرُّني بوَادِيْهِ إلَّا سَاءَني في العَواقبِ
ولا صِرْتُ أرْجُوهُ لِكَشْفِ مُصِيبَةٍ مِنَ الدَّهْرِ إلَّا كان إِحْدَى المَصَائِبِ[1]

وتظل الحياة تجمُل وتطيب بكم أيها الأوفياء الأخفياء، الذين آليتم على أنفسكم ألَّا تغيركم الأحداث ولا تهزكم العواصف.

فلله أنتم ما أندركم! وما أطيب معدنكم!

فطول الصحبة والزمالة والاختلاط، تكشف متانة الأخلاق من سطحيَّتها.

وثمَّة مَحَكٌّ آخر يكشف عن صدق الأخلاق من كذبها، وهو: القوة والقدرة. فالضعيف قد يبدو حَسَن الخُلُق هادئ الطبع مسالمًا، ليس لأن

(١) ينظر: الحلة السيراء لابن الأبار (ص١٠٣)، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية الكلبي (ص٤٩)، وزهر الأكم في الأمثال والحكم (ص١١٨).

ونسب أيضًا لابن الرومي، ينظر: ديوان ابن الرومي (ص٢٤٦).

هذا من طبعه، ولكن لأنه يعجز..!

وفي هذا يقول المُتنبِّي:

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يُظْلِمُ[1]

ولعل المتنبي أخذ هذا القول من قول أرسطو: الظلم من طبع النفوس، وإنما يصدها عن ذلك إحدى علتين: علة دينية، أو علة سياسية لخوف الانتقام.

وقد قرأتُ في كتاب «الفروع» لابن مُفلح رحمه الله كلامًا منقولًا عن ابن الجوزي رحمه الله يضرب في صميم الهدف؛ حيث يقول: (رأيتُ جماعةً من المُنْتَسِبينَ إلى العلم يعملون عملَ العوامِّ، فإذا صلَّى الحنبليُّ في مسجد شافعيٍّ، ولم يجهر غضبت الشافعيةُ، وإذا صلَّى شافعيٌّ في مسجد حنبليٍّ وجهر غضبت الحنابلةُ، وهذه مسألةٌ اجتهادية، والعصبيةُ فيها مجردُ هوًى يمنعُ منه العلم.

قال ابنُ عَقِيل: رأيت الناس لا يَعْصِمُهُم من الظلم إلَّا العجزُ. ولا أقول: العوامُّ، بل العلماءُ، كانت أيدي الحنابلةِ مبسوطةً في أيام ابن يوسفَ، فكانوا يتسلَّطُونَ بالبغي على أصحاب الشافعيِّ في الفروع، حتى لا يمكنوهم من الجهر والقنوت، وهي مسألةٌ اجتهاديةٌ، فلما جاءت أيامُ النِّظَّام، ومات ابن يوسفَ، وزالت شوكةُ الحنابلة استطال عليهم أصحابُ الشافعيِّ استطالة السلاطين الظلمة، فاسْتَعْدَوْا بالسجن، وآذوا العوامَّ بالسِّعايات، والفقهاء بالنَّبْز بالتجسيمِ.

---

(١) ينظر: شرح ديوان المتنبي (ص١٧٣).

قال: فتدبرت أمر الفريقين، فإذا بهم لم تعمل فيهم آدابُ العلم، وهل هذه الأفعالُ إلَّا أفعال الأجنادِ يَصُولُونَ في دولتهم، ويَلْزَمُونَ المساجدَ في بَطالَتهم. انتهى ما ذكرهُ ابنُ الجوزيِّ)[1].

وهذا لعمر الله كلامُ مجرِّب عركته الليالي، وخبر الناس وخبزهم!

ففي القوة تتبين الأخلاق؛ فإذا حافَظَ المرء في سلطانه أو غناه أو مجده أو قدرته على مكارم الأخلاق، وحفظ الود، والتزم التواضع، وعفا عن المسيء، كان ذلك دليلًا على شرف نفسه وطيب مَحْتِدِه[2] وكرم عنصره...

ومَن لي بمثل هذا!

مَن الذي لا يغيِّره المنصب، أو الغِنَى الطارئ، أو الشهرة؟!!

والمحك الثالث: هو الاختلاف.

فجُلُّ الناس يتخلقون مع نظرائهم ومشاكليهم وأصحابهم وموافقيهم، إذ هو هنا مصلحة متبادَلة، لكن حين يقع الاختلاف في الرأي أو الموقِف أو الاجتهاد أو التنازع على أمرٍ، فكريًّا كان أو ماديًّا، تنكشف دخيلة الإنسان وتبدو حقيقته.

فهذا شريف عزيز؛ يحافظ على هدوئه واتزانه، ويعبِّر عن اختلافه بلغة واضحة، ولكنها راقية، ليس فيها طعن ولا تشهير، ولا تَذَرُّع بالقول المُسِفِّ[3]، ولا اتهام ولا تجريح، ولا استعلاء ولا استعداء؛ لأنَّ الخُلق يحجز صاحبه عن كل هذا... فيدار الحديث مع تباين الرأي على ضبط

---

(١) الفروع مع التصحيح (٣/ ٢٢-٢٣).

(٢) أي: أصله وطبعه.

(٣) أي: الدنيء.

النفس، وتحكيم العقل، ودفع نزوة الانفعال المرذول التي لا تدل على أكثر من نقْص صاحبها، وعجزه عن إلجامِها.

وآخر يفلُت زِمامُه، فيتَّهم ويجرِّح ويتقوَّل ويسخر ويزدري، ويجعل لنفسه الحسنى ولغيره السوأى، وتنهار حصونه الأخلاقية أمام غضبة في غير محلها.

ويتطور به الحال إلى اختراع الأقاويل، وادِّعاء ما لا حقيقة له، واللَّهَث وراء الأُغلوطات، وتحريف الكلم عن مواضعه.

وهكذا يكون الالتزام الأخلاقي في امتحان أمام أزمة الاختلاف.

وحين يقول الناس: (**الاختلاف لا يفسد للود قضية**) فهذا معنى حسن في ظاهره، لكن العبرة بالامتثال الواقعي الحي، وليس بالتنظير المجرد.

وقد سمعتُ يومًا بيتين من الشعر العامي تفيضان رقة وعذوبة، يقول قائلهما:

على رفيقي ما يتغضب حجاجي
إن قال: قم، سو الغرض، قمت أسويه
أدرى رفيقي مثل ضـو السـراج
أقـل نسـنـاس مـن الريــح يطفـيـه!

ثم علمتُ أن قائلَهما انتهك الحرمات، وتجرأ على الدم الحرام، فما أوسع الفرق بين اللغة الرقيقة مع الرفيق، ولغة السلاح مع المخالف!

وقد كنتُ حينًا من الدهر أرقُبُ بعض الشباب المتدين حين يختلفون، فأقرأ من رديء القول وشططه ما تدمع له العين، ويحزن القلب، من التسفيه والشتم، والتسارع إلى الرمي بالبدعة والفسق، والكفر والخيانة...!!

وكنتُ أقول لنفسي: متى تنتهي هذه النزعات المريضة؟!

متى نرتقي إلى المستوى الأخلاقي الجدير بأمةٍ اصطفاها الله وفضّلها؟

متى نتمثل قيم القرآن والسنة في ضبط العلاقة، حتى مع الأعداء: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]؟

متى ندرك أن بعض دوافعنا مِزاجية عاطفية، تنطلق من ذواتنا وإن تلبست بلَبوس الغيرة الدينية؟!

متى..؟ متى..؟...

ثم تأملتُ مسالك بعض الكَتَبَة، ممن يُنْظر إليهم على أنهم (نُخَب مثقفة) وليسوا عامة أو دَهْمَاء[1]؛ فوجدتها لا تختلف، إن لم تكن أسوأ وأكثر ازدواجية وأقل حياء!

فهناك شعور كامن يشجِّع على الانقضاض والافتراس: (**نحن هنا في غابة**)، والروح العدوانية في حالة تربص، وبمجرد ظهور نزعة اختلاف فكري أو سياسي، تزول قشرة التمظهر، ونبدو -بعضنا مع بعض- أشد ضراوة مما نحن عليه مع أعدائنا الحقيقيين.

وهنا أجدني مرة أخرى متسائلًا:

متى نتعلم أن نختلف ونحافظ على علاقاتنا، بل على الصورة التي نريد أن يأخذها الآخرون عنا؟!

متى نحوِّل نظرياتنا الأخلاقية إلى برنامج عمل واقعي؛ يستمر معنا

---

(١) دهماء الناس: السواد الأعظم.

في حياتنا كلِّها مهما طال اتصالنا ببعض، ويستمر معنا حين نكونُ أقوياء، وحين نرتقي إلى مناصب إدارية، أو مواقع إعلامية، أو وجاهة اجتماعية، أو منزلة تجارية؟!

ويستمر معنا حين نختلف، فلا نطيح بعلاقاتنا، ولا نسكت على الخطأ أو الرأي المختلف: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وبالصراحة.. أقول هذا القول.. فيَحْرُن القلم ويتباطأ[1].. ويقول: أأنت كذلك؟!

فأقولُ: لا، ولكني أعدك بأني سأحاول، ومهما تكرر الفشل... سأحاول.

والسلام...

●●●●

(١) أي: يقف بلا حِراك، والمراد: يأبى الكتابة.

«إنني لا أُأصِّل طريقةً علميَّة كما يفعل آخرون، كلُّ ما هنالك: أنَّني أتحدثُ عن طريقتي الخاصَّة، التي هي عملٌ فردي معرَّض للقبول والرد».

تسعة أسباب لكظم الغيظ

تسعة أسباب لكظم الغيظ

كلنا نواجه هذا اللون من الاستفزاز الذي هو اختبار لقدرة الإنسان على الانضباط، وعدم مجاراة الآخر في ميدانه، **وهناك تسعة أسباب ينتج عنها أو عن واحد منها ضبط النفس:**

أولًا: الرحمة بالمخطئ والشفقة عليه، واللين معه والرفق به:

قال سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إن الناس يجتمعون على الرفق واللين، ولا يجتمعون على الشدة والعنف؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وهؤلاء هم أصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار والسابقين الأولين ﷺ؛ فكيف بمَن بعدهم؟!

وكيف بمَن ليس له مقام رسول الله ﷺ من الناس؛ سواء كان من العلماء أو الدعاة أو ممن لهم رياسة أو وجَاهة؟!

فلا يمكن أن يجتمع الناس إلا على أساس الرحمة والرفق.

وقال أبو الدرداء ﷺ لرجل شتمه: «يا هذا، لا تُغْرِقَنَّ في سبِّنا، وَدَعْ للصُّلح موضعًا؛ فإنَّا لا نُكافئُ مَن عَصَى اللهَ فِينا بأكثرَ مِن أَنْ نُطِيعَ اللهَ عزَّ وجلَّ فيه»(١).

وعن عمر بن ذر الكوفي رحمه الله مثله(٢).

وشتم رجلٌ الشَّعبيَّ فقال له الشَّعبيُّ: «إن كنتُ كما قلتَ؛ فغفرَ اللهُ لي، وإن لم أكن كما قلتَ؛ فغفرَ اللهُ لك»(٣).

وشتم رجلٌ معاويةَ ﷺ شتيمة في نفسه؛ فدعا له وأمر له بجائزة(٤).

فتربية النفس على الرضا والصبر واللين والمسامحة؛ قضية أساسية، والإنسان يتحلَّم حتى يصبح حليمًا.

قال أبو الدرداء ﷺ: «إنما العلمُ بالتعلُّم، وإنما الحِلْمُ بالتحلُّم، مَنْ

---

(١) ينظر: أدب الدنيا والدين (ص: ٢٦١-٢٦٢).

(٢) أخرجه البرجلاني في الكرم والسخاء (٣٥)، وأبو عروبة الحراني في جزئه (١٨)، والدينوري في المجالسة (١٦٠٢)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١١٣)، والبيهقي في الشعب (٨٤٦٤)، وابن الحطاب الرازي في مشيخته (٦٥).

(٣) ينظر: أدب الدنيا والدين (ص: ٢٦٢). وأخرجه البيهقي في الشعب (٨٤٦٨) عن أبي عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري.

(٤) أخرج نحوه ابن أبي الدنيا في حلم معاوية (٣٧) أن معاوية ﷺ قال لرجل من يهود، أحد بني الحارث بن كعب: هل تروي من شعر أبيك شيئًا؟ قال: أي شعره أردت؟ قال: أبياتًا كانت قريشٌ تغبطه بها. قال: نعم... [فذكره بعض شعره]. قال معاوية: أنا والله أحق بها من أبيك. قال اليهودي: كذبت، لعَمرو الله، لأبي أحق بها؛ إذ سبق إليها... فقال الوليد بن عقبة وعبد الرحمن بن أم الحكم: اسكت يا ابن اليهودية. وشتماه. فقال اليهودي: كفا عن شتمي، فإن لم تفعلا، شتمت صاحب السرير. فرفع معاوية وجهه ضاحكًا، وقال: كفا عنه. يكفف عن عرضي... وأمر له بأربعة آلاف... وينظر: أنساب الأشراف (٥/ ١٠٧).

يتحَرَّ الخيرَ يُعْطَهُ، ومَن يَتَّقِ الشرَّ يُوقَهُ»[١].

فلا بد أن ينظر المرءُ في نفسه، ويضع الأمور في مواضعها قبل أن يؤاخذ الآخرين، ويتذكر أن تحية الإسلام هي: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) التي أمر النبي ﷺ أن نقولها لأهلنا إذا دخلنا[٢]، بل قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

فالسلام على الصبيان والصغار والكبار، ومَن نعرف ومَن لا نعرف.

حدَّث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أنَّ رجلًا سأل النبيَّ ﷺ: أَيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[٣].

وقال عمار رضي الله عنه: «ثلاثٌ مَن جمعهُنَّ فقد جمع الإيمانَ: الإنصافُ من نفسِكَ، وبَذْلُ السلام للعالَم، والإنفاقُ مِنَ الإقْتارِ»[٤].

فالتحية لها معانٍ عدَّة؛ فَفيها معنى السلام: وذلك بأن تَسْلَمَ مني ومن لساني ومن قلبي ومن يدي؛ فلا يُعتدى عليك بقول ولا بفعل، وفيها الدعاء بالسلامة، والدعاء بالرحمة، والدعاء بالبركة... وهذه المعاني

---

(١) أخرجه أبو خيثمة في العلم (١١٥)، وهناد في الزهد (١٢٩٤)، وابن أبي الدنيا في الحلم (٤٧)، وابن حبان في روضة العقلاء (ص٢١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٢٥٤)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم (٣٩٥، ٥١٦).

ورُوي مرفوعًا، والموقوف أصح. ينظر علل الدارقطني (٦/ ٢١٨-٢٢٠).

(٢) كما في سنن أبي داود (٥٠٩٦) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلَجِ، وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ، بِسْمِ اللَّهِ وَلَجْنَا، وَبِسْمِ اللَّهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللَّهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا. ثُمَّ لِيُسَلِّمْ عَلَى أَهْلِهِ».

(٣) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

(٤) تقدم تخريجه (ص ٢٢٥).

الراقية التي نقولها بألسنتنا، علينا أن نحوِّلَها إلى منهج في حياتنا، وعلاقتنا مع الآخرين.

ثانيًا: سَعة الصدر وحسن الثقة؛ مما يحمِل الإنسان على العفو:

ولهذا قال بعض الحكماء: «أحسنُ المكارم: عفوُ المقتدر، وجُودُ المفتقر»[1]. فإذا قدر الإنسان على أن ينتقم من خصمه؛ غفر له وسامحه: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى:٤٣].

وقال ﷺ لقريش: «مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟». قالوا: خيرًا؛ أخٌ كريمٌ وابنُ أخ كريم. قال: «اذْهَبُوا؛ فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[2].

وقال يوسف عليه السلام لإخوته بعد ما أصبحوا في مُلكه وتحت سلطانه: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢].

ثالثًا: شرف النفس وعلوُّ الهمة، بحيث يترفع الإنسان عن السباب، ويسمو بنفسه فوق هذا المقام:

لَنْ يَبْلُغَ المَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ عَظمُوا ... حَتَّى يَذِلُّوا وَإِنْ عَــزُّوا لأَقْــوَام
وَيُشْتَمُوا فتَرَى الأَلْوَانَ مُسْــفِـرَةً ... لا صَفْحَ ذُلٍّ وَلَكِنْ صَفْحَ أَحْلامِ[3]

---

(١) ينظر: أدب الدنيا والدين (ص: ٢٦٢).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٢٧٥).

(٣) نسبه في الأمالي في لغة العرب (٣/ ٤٢)، وبهجة المجالس (١/ ١٣٢) إلى ابن عائشة، وفي البصائر والذخائر (٢/ ٢٦) إلى النظام، وفي غرر الخصائص الواضحة (١/ ٢٠٤) إلى إبراهيم بن العباس الصولي. ونُسب إلى غيرهم كذلك، ينظر: العقد الفريد (٢/ ١٣٨)، والمستطرف (١/ ٤١٩)، وحماسة القرشي (١/ ٢٩)، ولباب الآداب لأسامة بن منقذ (١/ ٩٤)، والحماسة البصرية (١/ ١١٤).

فلا بد أن تدرِّب نفسك تدريبًا عمليًّا على كيفية كظم الغيظ، ومقابلة الإساءة بالإحسان، فإن لم يكن فبالصَّفح والإعراض.

وَإِنَّ الَّـذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي
وَبَيْـنَ بَنِي عَمِّـي لَمُخْتَلِفٌ جِـدًّا
فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومَهُم
وَإِنْ هَـدَمُـوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا
وَلَا أَحْمِلُ الحِقْـدَ القَدِيمَ عَلَيهِمُ
ولَيْسَ رَئِيسُ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا(١)

رابعًا: طلب الثواب عند الله:

إن جُرْعةَ غيظ تتجرعها في سبيل الله سبحانه وتعالى، لها ما لها عند الله عز وجل من الأجر والرفعة؛ فعن معاذ بن أنس الجهني ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا -وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنفِذَهُ- دَعَاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يومَ القِيَامَةِ، حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ الحُورِ شَاءَ»(٢).

والكلام سهل وطيب وميسور ولا يكلف شيئًا، وكل يستطيع أن يُلْقِي محاضرة خاصة في هذا الموضوع، لكن يتغير الحال بمجرد الوقوع في كُرْبة تحتاج إلى الصبر وسَعة الصدر واللين، فإذا بين القول والعمل بُعْدَ المشرقين!!

خامسًا: استحياء الإنسان أن يضع نفسه في مقابلة المخطئ:

---

(١) نسب إلى المقنع الكندي، ينظر: جمهرة الأمثال للعسكري (٢/ ٢٠٦)، والأمالي في لغة العرب للقالي (١/ ٢٨٤).

ونسب إلى غيره، ينظر: بهجة المجالس (١/ ١٣٢)، والبصائر والذخائر (٢/ ٢٦)، والحماسة البصرية (١/ ١١٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٣٧)، وأبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وابن ماجه (٤١٨٦).

وقد قال بعض الحكماء: «احتمالُ السفيهِ خيرٌ مِنَ التحلِّي بصورَتِهِ، والإغْضَاءُ عَنِ الجاهلِ خيرٌ مِنْ مُشاكَلَته»(١).

وقال بعض الأدباء: «مَا أَفْحَشَ حَلِيمٌ، وَلَا أَوْحَشَ كَرِيمٌ»(٢).

وقال لَقِيطُ بنُ زُرارةَ:

وَقُلْ لِبَنِي سَعْدٍ فَمَا لِي وَمَا لَكُمْ ... تُرِقُّونَ مِنِّي مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَعْتِقُ
أَغَــرَّكُمْ أَنِّــي بِأَحْسَــنِ شِيمَــةٍ ... بَصِيرٌ وَأَنِّي بِالْفَوَاحِشِ أَخْرَقُ
وَإِنْ تَكُ قَدْ فَاحَشْتَنِي فَقَهَرْتَنِي ... هَنِيئًا مَرِيئًا أَنْتَ بِالْفُحْشِ أَحْذَقُ(٣)

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي:

سَأُلزِمُ نَفسِي الصَّفحَ عَن كُلِّ مُذنِبٍ ... وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ إِلَيَّ الجَرَائِــمُ
فَمَـا النَّـاسُ إِلَّا وَاحِـدٌ مِنْ ثَلاثَــةٍ ... شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلٌ مُقَاوِمُ
فَأَمَّا الَّــذِي فَوْقِي فَأَعْـرِفُ قَــدْرَهُ ... وَأَتْبَعُ فِيهِ الحَقَّ وَالحَــقُّ لازِمُ
وَأَمَّــا الَّـذِي دُونِـي فَأَحْلُـمُ دَائِبًا ... أَصُونُ بِهِ عِرْضِي وَإِنْ لَامَ لائِمُ
وَأَمَّـا الَّذِي مِثْلِي فَـإِنْ زَلَّ أَوْ هَـفَـا ... تَفَضَّلْتُ؛ إِنَّ الفَضْلَ بِالفَخْرِ حَاكِمُ(٤)

وفي حديث خروج النبي ﷺ من الطائف، وقد ردُّوه ﷺ شرَّ ردٍّ؛ فعن عائشة ﵂، أنَّها قالت للنبيِّ ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ مِن يوم أُحدٍ؟ قال: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ**

---

(١) ينظر: أدب الدنيا والدين (ص٢٦٣)، والكشكول (٢/ ١٢٦).

(٢) ينظر: أدب الدنيا والدين (ص٢٦٣).

(٣) ينظر: الأمثال لابن سلام (ص١١)، وديوان المعاني لأبي هلال للعسكري (ص٢٨)، وشرح نهج البلاغة (١٨/ ١١٠).

(٤) ينظر: ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (ص١٣١).

مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ؛ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ. فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِم الأَخْشَبَيْنِ؟!». فقال النبيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[1].

سادسًا: التدرب على الصبر والسماحة؛ فهي من الإيمان:

إن هذه العضلة التي في صدرك قابلة للتدريب والتمرين، فمرِّن عضلات القلب على كثرة التسامح، والتنازل عن الحقوق، وعدم الإمساك بحظ النفس.

وجرِّب أن تملأ قلبك بالمحبة! فلو استطعت أن تحب المسلمين جميعًا، فلن تشعر أن قلبك ضاق بهم، بل سوف تشعر بأنه يتَّسع كلما وفد عليه ضيف جديد، وأنه يسَع الناسَ كلَّهم لو استحقوا هذه المحبة.

فمرِّن عضلات قلبك على التسامح في كل ليلة قبل أن تخلُدَ إلى النوم، وتُسْلِم عينيك لنومة هادئة لذيذة.

سامِح الذين أخطؤوا في حقِّك، والذين ظلموك، والذين حاربوك، والذين نسوا جميلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

بل وأكثر من ذلك..انهَمِك في دعاء صادق لله سبحانه وتعالى بأن يغفر الله لهم، وأن يصلح شأنهم، وأن يوفقهم، وستجد أنك أنت الرابح الأكبر.

وكما تغسل وجهك ويدك بالماء في اليوم بضع مرات، فعليك بغسل هذا القلب الذي هو محل نظر الله سبحانه وتعالى!

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[1].

اغسل هذا القلب، وتعاهده يوميًّا؛ لئلا تتراكم فيه الأحقاد والكراهية والبغضاء والذكريات المريرة، التي تكون أغلالًا وقيودًا تمنعك من الانطلاق والمسير والعمل، ومن أن تتمتع بحياتك.

سابعًا: قطع السباب وإنهاؤه مع الآخرين، وهذا من الحزم:

وقد حُكِي أن رجلًا قال للأَحنف بن قيس: لئن قلتَ واحدةً؛ لتسمعنَّ عشرًا! فقال له الأَحنف: «لكنَّك إن قلتَ عشرًا؛ لم تَسْمَعْ واحدةً!»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤/ ٣٣١).

ورُوي عن يزيد بن حصين بن نمير، كما عند ابن عساكر أيضًا (٦٥/ ١٥٩).

ورُوي عن ضرار بن القعقاع، كما في أدب الدنيا والدين (ص: ٢٦٤)، والأنساب للبلاذري (٤/ ١٧٢).

وأخرجه ابن قتيبة في عيون الأخبار، والدينوري في المجالسة (٨٠٣)، عن الأصمعي، قال: بلغني أن رجلًا قال لآخر..

وَفِي الحِلْمِ رَدْعٌ لِلسَّفِيهِ عَنِ الأَذَى ... وَفِي الخُرْقِ إِغْرَاءٌ فَلَا تَكُ أَخْرَقَا
فَتَنْدَمَ إِذْ لَا تَنْفَعَنْكَ نَدَامَةٌ ... كَمَا نَدِمَ المَغْبُونُ لَمَّا تَفَرَّقَا[1]

* * *

قُلْ مَا بَدَا لَكَ مِنْ زُورٍ وَمِنْ كَذِبِ ... حِلْمِي أَصَمُّ وَأُذْنِي غَيْرُ صَمَّاءِ[2]

وبالخبرة والمشاهدة؛ فإن الجهد الذي تبذله في الرد على مَن يسبك لن يعطي نتيجة مثل النتيجة التي يعطيها الصمت؛ فبالصمت حفظت لسانك ووقتك وقلبك وجهدك؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى لمريم عليها السلام: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

والأخذ والرد والمجادلة تنعكس على القلب، وتضر أكثر مما تنفع.

ثامنًا: رعاية المصلحة:

ولهذا أثنى النبي ﷺ على الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه بقوله: «**ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ**»[3].

فرعاية المصلحة التي تحمل الإنسان على الحرص على الاجتماع، وتجنب المخالفة هي السيادة.

تاسعًا: حفظ المعروف السابق، والجميل السالف:

---

(١) ينظر: أدب الدنيا والدين (ص: ٢٦٣)، والعقد الفريد (٢/ ١٤٠)، وربيع الأبرار للزمخشري (ص١٤٦).

(٢) ينظر: ديوان بشار بن برد (ص٢٢٧)، والمستطرف (ص٤١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٢٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

ولهذا كان الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «إن الحُرَّ مَن راعَى وِدَادَ لحظة، وَانْتَمى لِمَن أفادَه لفظةً».

وقال النبي ﷺ: «وَإِنَّ حُسْنَ العَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ»(١).

وأمثلة ذلك كثيرة.

●●●●

---

(١) أخرجه الطبراني (٢٣/ ١٤) (٢٣)، والحاكم (١/ ١٥-١٦)، والبيهقي في الشعب (٩١٢٢، ٩١٢٣).

«الإنسان الذي يرى نفسه بطريقة إيجابية، يبحث عما هو طيب وإيجابي لدى الآخرين».

أنا طبيب بالمرة

أنا طيب بالمرة

مَن يعيش وسط هذا المجتمع يحس بحجم المشكلات التي تعكِّر صفوه، وتربك علاقاته الذاتية، وعلاقاته الخارجية، فبين الآباء والأبناء، والأزواج، والشركاء في العمل، والزملاء في المؤسسة، والجيران، والقرابة، ألوان من التوتر، بعضها طبعي مألوف، وبعضها غريب من إفراز المتغيرات، والملحوظ أن حجمها في ازدياد وتفاقم، وهي تتجه غالبًا إلى التعقيد وتعسُّر الحلول.

وفي هذا السياق يبرز دور المصلح الذي همه تقريب وجهات النظر، وحفظ التوازن بين الفئات والأفراد.

فمتى توفر هؤلاء المصلحون، وصحّت لديهم النية في إرادة الإصلاح كانوا أعظم أسباب الحل، وأعظم ضمانات الديمومة للعلاقة المميزة في مجتمع إسلامي.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء:٣٥]، فوعد الله سبحانه بالتوفيق متى توفرت إرادة الإصلاح.

وبعض الجهات الاستشارية -فردية أو مؤسسية أو إعلامية- قد

يشوب إرادتها في الإصلاح شأن آخر، أو لا يكون لديها إرادة صادقة، فتزيد الدَّاء عِلَّة، والطينَ بِلَّة.

وعلى صعيد المتخالفين الذين هم أطراف المشكلة، فإن أعظم ما يحول دون الحل، هو الاعتقاد الجازم لدى كل طرف بصوابية موقفه، وسلامة سلوكه، وأنه المستهدف عن قصدٍ بالإساءة والعدوان، وهذا أثر عن سيطرة نزعة الـ «أنا» في النفوس.

ولقد جرَّبت السعي بين أقارب متهاجرين؛ فوجدت الطرف الأول يسرد عليك تاريخًا طويلًا من المعاناة، امتد لخمس سنوات، كان خلالها نموذج الصبر والتحمل والتجمل والتسامح، حتى وصل الحال إلى ما لا يصبر عليه، وتعدى الأمر حدوده، ولم يعد في قوس الصبر منزع، واتق غضبة الحليم!!

فإذا انتقلت إلى الطرف الآخر وجدت الأمر ذاته، والشكوى والمعاناة والصبر والتجاوز الذي كان مضرب المثل، ولكن الآخر كان لا يقدِّر هذا ولا يكترث له!!

والمؤلم أنك تشعر حين يتحدث الطرفان أن اللهجة صادقة، والحديث جدٌّ، لا هزل فيه ولا تمثيل، بل هو من صميم النفس، وسويداء القلب، إنه حديث اللسان، تتواطأ معه ملامح الوجه وقسماته، وتؤكده الأَيمان المغلَّظة، والحقائق الدامغة، والسجلَّات والوثائق، والشهود العدول، واسأل فلانًا وفلانًا؛ فعندهم الخبر اليقين.

وما أضْيعَ الحقيقة والإصلاح هنا...

وكل من الزوجين حين يتحدث عن لُبِّ المشكلة، يضع إبهامه على

طرف الميزان، وقد يسجِّل اعترافات خفيفة على نفسه هنا وهناك... صحيح أنني... ولكن... ويختم حديثه بأنه وإن كان يتحدث عن مشكلة هو طرف فيها، إلا أنه يقول بكل ثقة: (حقيقةً أن طيِّب بالمرَّة!!). لكن الطرف الآخر لا يقدِّر هذه الطيبة، ولا يحسن التعامل معها، بل يستغلها.

وهكذا تبدو (الأنانية) المترسخة التي تستعصي على الكشف، فهي مثل الفيروس المتخفي، الذي لا تقدر أحدث المجاهر ولا أقواها على ملاحقته وتشخيصه، تتلبس الإنسان وتحكم تصرفاته، من دون أن يدرك أو يلحظ تأثيرها البليغ على أحكامه وقراراته وسياقات حديثه وتحديد مواقفه.

إن هذه الـ «أنا» الطاغية هي حُجَّة إبليس حين صنع المعاندة والرفض مع آدم، بل مع رب آدم، وقال: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص:٧٦]، وهي لغة فرعون حين قال: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف:٥٢]، وهي ضلالة قارون حين قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨]، وهي شر متسلط على نفس الإنسان ما لم يتفطن لها، ويحذر فتكها، ويضعها في حجمها السليم؛ ولذا كان النبي ﷺ يقول في صدر حديثه: «**وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»[١].

وسأله رجلٌ دعاء يدعو به، فعلمه: «**اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي**»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١١٨، ٢١١٩)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢)، والنسائي (٣٢٨٧)، وابن الجارود (٦٧٩)، والحاكم (٢/ ١٩٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣٥٥)، والروياني في مسنده (٨٥)، والطبراني (١٨/ ١٧٤) (٣٩٦)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٩٤) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

إنك لو تأملت تصرفات كثيرين ممن حولك ومواقفهم، لوجدت الـ «أنا» تُملِي، والفرد يكتُب، وقد ركِبَتْهُ وذلَّلَتْهُ، وربما كان حديثه عن الإيثار والتسامح ونكران الذات، ولكن هذه الـ «أنا» المتسلطة تأبى إلا أن تطل من بين الحروف والكلمات... حتى لدى أهل الزهد والفضيلة.

وإن منهم لمَن يرائي حتى بعد موته، فيسرُّه أنه سيتحدث الناس عن شهود جنازته وأنه جمٌّ غفير، وخلق كثير!!

وكم من مديح صِيغَ في قالَب الذم، وتواضع معناه الكبرياء.

ومسالك النفس هنا أدق وألطف من أن يحصيَها عدٌّ، أو يدركها ذكاء.

وليس الإنسان بقادرٍ على تجاوز كل مؤثراتها، بل إن من مؤثراتها ما هو قدر مطلوب محبوب، وقد قال الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْأَخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيتَ الرجلَ يعملُ العملَ من الخير ويحمدُهُ الناسُ عليه؟ قال: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(٢).

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٤٢).

(٢) صحيح مسلم (١٦٣١).

فهي كسائر الطبائع المخلوقة، أصلها لا بد منه، والزيادة تحتاج إلى ضبط ومراقبة، والناس فيها درجات عند الله.

فالشهوة الجنسية مثلًا لا بد منها للحياة، لكن احتدامها وتجاوزها للحد الضابط يفضي إلى الفتنة والبوار.

ولو سعى المرء إلى مراقبة نفسه، واكتشاف لعبة الـ «أنا» في داخلها لأراح واستراح، وكان أطيب الثمار التي يجدها (الإنصاف) من نفسه، حين يضع ذاته موضع الآخرين.

وإذا أردت أن تأخذ بنصيبك من هذه الذكرى، فتأمل حديثك في يوم وليلة، واحسب كم تجري كلمة «أنا» على لسانك!

إنها أكثر الكلمات تردُّدًا في أفواه الخلق بلا منازع!

اللهم إنَّا نعوذ بك من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، اللهم ألهمنا رشدنا، وقنا شُحَّ أنفسنا، وبصِّرنا بمواطن الضعف فيها، ووفقنا لاستثمار قدراتنا، يا أرحم الراحمين.

●●●●

«الذين يكتشفون الطريق يعرفون أنه لا بد من مرور بعض الوقت قبل أن يتقبل الناس إرشادهم».

لحظة جديدة

لحظة جديدة

حدث موقف يضيق له الصدر، وقد تعلَّمت من تجربة الحياة أن أتجاوز هذه المواقف وأتناساها لأنساها، ولا أسمح لها أن تعكِّر مزاجي لحظة، فضلًا عن أن تؤثر في مسيرتي.

وسبَّحت ربي؛ فوجدت دواء كأني كنت أبحث عنه؛ فالتسبيح تجديد للعلاقة، وعقد الإيمان، واستثمار مع الخالق، لا دخل للمخلوق فيه ولا وساطة، يشعرك بأنه مهما يكن فلديك هذا الحبل الموصول بالله، والذي لا تردد فيه ولا شك ولا نزاع، إذًا فليكن لك منه نصيب.

وجدت أن تسبيحة واحدة أو تسبيحتين، فيهما بعض التيقُّظ، كافيتان لمسح كل المعاناة والألم.

وحان وقت صلاة لمسافر بعد ذلك، فصلَّى قصرًا صلاة خفيفة، اجتمع فيها قصر العدد وقصر الكيفية، ووجد أنه حين وضع جبهته ساجدًا لربه؛ يشعر بأن كل محنة تنقشع، وكل ضيق يزول.

غمتك من نفسك ومراوغتها وحرانها وضعفها..

أَمَتُّ في اللهِ نَفْسًا لا تُطَاوِعُني   في الـمَكْرُمَاتِ لَـهَا في الشَّرِّ إِصْرَارُ
وَبِعْتُ في اللهِ دُنْيَا لا يَسُودُ بِهَا   حَـقٌّ وَلا قَـادَهَـا في الأَمْـرِ أَبْـرَارُ

وغمتك من كل محاولة لم تنجح، أو أذى مقصود أو غير مقصود، من

قريب أو بعيد، من محبٍّ كاشح، أو عدو ناصح، أَوَ يَكُون هذا؟!

كأنك حين تسجد؛ تلقي بالأحمال التي فوق رأسك، وتتخفف منها، فتنهض نشيطًا متوفزًا[1]، وكأنك إنسان آخر.

ثم تذكَّرت أن السجود تسبيح، ومن حديث عقبة بن عامر ﵁ قال: حين نزل قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١]. قال النبي ﷺ: «**اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**»[2].

فحين تعلن موضعك الصادق؛ بوضع جبهتك على الأرض؛ تواضعًا لعظمته ومجده وكبريائه، وإيمانًا بأن الأمر كله له، والتماسًا للفضل والستر والعافية والتسديد، وبراءة من الحول والطول والقوة إلا منه وبه، تمحو كل ما قبل اللحظة، وتبدأ في سياق جديد، بروح متفائلة رقراقة محلقة، وكأن الحواجز والعوائق كلها تنصهر وتذوب..

اتَّئِدْ يَا إِمَـامُ! لَا تَـرْفَـعِ الرَّأْ ... سَ سِرَاعًا مِنَ السُّجُـودِ لِرَبِّـي
أَنَا لَـمَّا تَـنَسَّمَ الرُّوحُ عَـبْـرَ الْـ ... أُفْقِ عَرْفًا عَنْ أَشْرَفِ الخَلْقِ يُنْبِـي
وَتَطَـلَّـعْـتُ خَاشِـعًا مُسْتَـهَـامًا ... بِـجِـنَـانٍ مُـوَلَّــهٍ مُـشْـرَئِــبِّ
هَـامَ قَلْبِي بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَفْـ ... ـلَاكِ يَسْعَى إِلَيهِ مِن كُـلِّ دَرْبِ
ثُم لَـمَّا سَجدتُ فِي الرَّوضَةِ الغَرْ ... رَاءِ أَرْمِي عَن كَاهِلِي عِبْءَ ذَنْبِـي
خِلْتُ قَلْبِي أَلْقَى النِّيَاطَ جُذُورًا ... فِي جِنَانِ الـهَوى لِغَرْسَـةِ حُـبِّي
فَاتَّئِدْ يَا إِمَـامُ! لَا تَـرْفَـعِ الرَّأْ ... سَ سِرَاعًا، تَـكَـادُ تَجْتَـثُّ قَلْبِـي

---

(١) المتوفز: الذي لا يكاد ينام؛ كناية عن الاستعداد والتهيؤ.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وابن حبان (١٨٩٨)، والحاكم (١/ ٢٢٥).

في السجود سر عظيم لا تحتمله العبارات، إنما يدرك بالذوق، ولست من أصحاب الذوق ولا المواجيد، كل ما أملكه هو حسن الظن بالله الذي ملأ قلبي واستبد بكياني، وإن كان يداخلني بين الحين والآخر خوف من أن يكون استدراجًا أو أمنًا من مكر الله، فأردد: لا حول ولا قوة إلا بالله. كلا؛ بل هو ثقة به وبعظيم فضله، وليس ثقة بالنفس، ولا إدلالًا بالعمل.. كيف ولا نفس ولا عمل.

بل المقام مقام «تصفير الذات» كما يسميه الشيخ الصالح محمد فتح الله كولن، تصفيرًا عربيًا؛ إذ الصفر العربي نقطة وليس دائرة، ولعل العربي أحوج الخلق إلى هذا التصفير الآن!

تجمَّع لي هذا.. ثم سنح لي قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨]، فذكر ضيق الصدر مما يرى أو يسمع أو يجد، وأمره بالوصفة المحققة: التسبيح والسجود.. إنه شيء وجدته في نفسي، وأيقنت أن كل إنسان هو كذلك، عرضة لأحزان الطريق.. والدواء القاطع لكل ألم هو التسبيح والسجود.. وصفة قريبة المأخذ، سهلة المتناول، بيد أنها تحتاج إلى مران وتدريب، وقد لا تجد أثرها من أول مرة حتى تتحول عندك إلى سلوك وعادة..

أصدقك القول، نمت بعدها سريعًا قرير العين.. وصحوت على صوت الأذان وأنا أردد قول مِهْيَار الدَّيْلَمي:

إِنْ كَانَ عندكَ يَا زَمَانُ بقيةٌ ... مِما يُضامُ بِهَا الكرامُ فَهَاتِهَا[1]

●●●●

---

(١) ينظر: ديوان مهيار الديلمي (١/ ١٦٤).

«هل أطمعُ في صفحِكَ أيُّها الصديق الذي ظنَّه الناسُ عدوًّا؟!».

دعوة للتصافي

دعوة للتصافي

لَـمْ أشأ أن أجعل عنوان مقالتي هذه «دعوة للمصالحة»؛ خشية أن يُفهم من هذا إلغاء جوانب الاختلاف؛ لأنه قد يوجد ما يدعو للاختلاف في أمور الشريعة أو في مصالح الدنيا؛ فالاختلاف سنة إلهية، ولا حيلة في دفعها، بل لو لم يوجد الاختلاف لكان ذلك تفويتًا لكثير من المصالح والخيرات، وقد امتنَّ البارئ جل وعز بتنوُّع ألسنتنا وألواننا وسائر أشيائنا.

التصافي يعني: استثمار الاختلاف إيجابيًّا، عِوضًا عن أن يتحول إلى تحضير للصراع واستعداد للنزاع.

التصافي يعني: أن تجتمع القلوب، وإن لم تجتمع العقول.

التصافي يعني: تفعيل «**الأخلاق**» على أكمل الوجوه، وليس تفعيل «المعرفة» فحسب.

قد تقتضي المعارف والاجتهادات أن نتفاوت في مواقعنا ورؤيتنا ومواقفنا وتحالفاتنا، ولكن الأخلاق تقتضي أن لا تتحول نتائج المعرفة والاجتهاد إلى قسوة على النفس، بالقسوة على أحبتنا، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور:٦١].

التصافي يعني: الاهتمام الكبير بدوائر المتفق عليه، والعناية بالمشتركات

الإنسانية، وهي ضخمة، والمشترَكات الإيمانية، وهي ضخمة أيضًا، ولهذه المشترَكات من الحقوق الشيء العظيم الذي قرَّره القرآن، وأكدته السنة، وعزَّزته التجارب الإيجابية والسلبية معًا.

التجارب تصيح بنا أن نتحالف ونجتمع على القواعد الكلية والمشترَكات الشرعية والمصالح الحياتية، وألَّا نتجاهل الخلافات، سواء كانت جوهرية أساسية، أو كانت جزئية فرعية.

لكن لا نجعل الإحساس بهذه الخلافات هو الذي يتحكَّم في عقولنا، ويسيطر على عواطفنا وقلوبنا، ويؤسِّس لعلاقاتنا البَيْنيَّة؛ لئلَّا تتحول العلاقات إلى حروب ومكايدات وتقارير سلبية يرفعها القلب للعقل، ثم يفيض بها العقل للسان واليد والقلم.

الحياة ليست معركة.

التصافي هو: الاختلاف الهادئ، والاتفاق الأصيل.

التصافي هو: الخُلُق الكريم، والمعرفة المحقَّقة.

التصافي هو: الفصل بين حق العلم وبين غرور النفس ونزْقها[1] وشيطنتها وكبريائها وأنانيتها.

التصافي هو: الانتصار في معركة الصراع الأولى، الصراع مع أهواء النفس الخفية، ودوافعها الباطنة، وشرورها المترسِّخة، والتي تظهر أحيانًا بهيئة الخير والإيمان والغيرة والصفاء، ويصعب على صاحبها ملاحقتها وكشف ملابساتها وتمشيط جيوبها الخفية المتغلغلة في «العقل الباطن»، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦،٧].

---

(١) النزق: الخفة والطيش.

وسبحان العليم بمداخل النفوس ومساربها، والمطَّلع على خفاياها وأسرارها ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩].

الصفاء: مكاشفة مع النفس، وتمرُّد على أحكامها الجائرة، وأمراضها المسيطرة، وإيحاءاتها المدمرة.

التصافي: كشفٌ لعيوب الذات، وتواضع لرب الأرض والسماوات، وطلب للمغفرة بحفظ مقامات الآخرين، وحسن الظن بهم، وتسامح مع زلاتهم؛ حتى حين تكون زلاتهم إجحافًا في حقك، أو عدوانًا عليك، أو قسوة مفرطة، أو ظلمًا طويلًا ممتدًا لا عدل معه ولا تراجع.

التصافي: إدراكٌ جيد بأن الكلام سهل والفعل ليس كذلك، فلِكي نتجاوز المرحلة المتخلفة في واقع أفرادنا وجماعتنا وتياراتنا ومجتمعاتنا ودولنا؛ نحتاج إلى الرُّقِيِّ الفردي، والتفوق على الـ «أنا»، وتجاوز الحظوظ الذاتية، نحتاج إلى مبادرات نبيلة من هذا النوع هنا وهناك، تتجاوز الأتباع والمريدين، والمصالح الخاصة لتكون تأسيسًا حقيقًا لمستوى من التجرد والصدق يسعى إليه الجميع.

دعونا جميعًا نردد: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

ودعونا نردد مع الشاعر قوله:

تَعالُوا بِنا نَطوي الحَديثَ الَّذي جَرى
وَلا سَـمِعَ الواشي بِذاكَ وَلا دَرى
تَعالوا بِنـا حَـتَّى نَعــودَ إِلى الرِّضى
وَحَـتَّـى كَـأَنَّ العَهـدَ لَن يَتَغَيَّرا

وَلا تَذكُروا ذاكَ الَّذي كانَ بَينَنا
عَـلى أَنَّــهُ ما كانَ ذَنـبٌ فَـيُذكَرا
لَقَد طالَ شَرحُ القـالِ وَالقيـلِ بَينَنا
وَمـا طـالَ ذاكَ الشَّـرحُ إِلّا لِيَقصُرا
مِــنَ اليَــومِ تاريـخُ المَحَبَّـةِ بَينَنا
عَفا اللهُ عَن ذاكَ العِتابِ الَّذي جَرى
فَكَم لَيلَـةٍ بِتـنـا وَكَم بـاتَ بَينَنا
مِـنَ الأُنسِ ما يُنسى بِهِ طَيِّبُ الكَرى
أَحاديثُ أَحلى في النُفوسِ مِنَ المُنى
وَأَلـطَـفُ مِـن مَرِّ النَسيمِ إِذا سَرى[1]

وتعالوا بنا نردد:

مِنَ اليَــوم تَعـارَفنـا ... وَنَطوي ما جَرى مِنّا
وَلا كــانَ وَلا صـارَ ... وَلا قُلتُـم وَلا قُلنـا
وَإِن كـــانَ وَلا بُــدٌّ ... مِنَ العَتبِ فَبِالحُسنى
فَقَـد قيـلَ لَنا عَنــكُم ... كَما قيلَ لَكُــم عَنّــا
كَفى ما كانَ مِن هَجرٍ ... وَقَد ذُقتُم وَقَد ذُقنـا
وَما أَحسَــنَ أَن نَــر ... جِعَ لِلوَصلِ كَما كُنّـا[2]

إنني أدعو جميع المخلصين لكلمة سواء، بعيدًا عن صخب الجماهير وضجيجها وضوضائها وإسقاطاتها.

---

(١) ينظر: ديوان بهاء الدين زهير (ص ١٢٩).

(٢) ينظر: ديوان بهاء الدين زهير (ص ٣٤٠).

دعونا نتناول عبارات الاعتذار عمن أخطؤوا علينا وأساؤوا الظن بنا، وليس أن نطلب منهم أن يعتذروا.. ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢].

●●●●

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

مقدمة ٧

شكرًا أيها الأعداء ١٣

لماذا لا ترد؟ ١٩

الموت لأعدائي ٢٧

أأنت كذلك؟! ٣٧

شكرًا للشيخين ٤٥

شكرًا صديقي ٥١

بيني وبين ابن جبرين ٥٩

الدفاع عن العقيدة أولى ٧٥

إذا عز أخوك فهن ٨٣

شتائم حضارية ٩١

توظيف النص ٩٩

الترس بالنص ١٠٥

سهو الفكر ١١٣

وإذا قلتم فاعدلوا ١١٩

مقدمة في منهج النقد (١) ١٢٧
مقدمة في منهج النقد (٢) ١٣٩
مقدمة في منهج النقد (٣) ١٤٩
استعادة الذكريات ١٦١
فرص هاربة ١٦٧
الوقوف على الحياد ١٧٣
نموذجان للحركة ١٨١
الفكر المأزوم ١٨٩
مأزوم ١٩٧
مراجعات وممانعات (١) ٢٠٥
مراجعات وممانعات (٢) ٢١٣
التعايش مع النفس ٢٢١
سلام الضمير ٢٣١
التعايش الحضاري (١) ٢٤١
التعايش الحضاري (٢) ٢٤٩
النقيض ٢٥٧
مشاركة متميزة حقًّا ٢٦٣
سنة الأنبياء ٢٦٩
مقالب ٢٧٩
المسؤولية الفردية ٢٨٧
رحيلك ليس مشكلةً ٢٩٥
إعلان عن مفقودات ٣٠١

الانفعال المباشر ٣٠٩
الهدوء ٣١٥
محكات الأخلاق ٣٢١
تسعة أسباب لكظم الغيظ ٣٣١
أنا طيب بالمرة ٣٤٣
لحظة جديدة ٣٥١
دعوة للتصافي ٣٥٧
فهرس المحتويات ٣٦٣